القرآن وقضايا الإنسان

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ
أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث
جامعة القرويين : المغرب

دار المعارف

القرآن وقضايا الإنسان

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

معاناتي لهموم إنسان العصر وهواجسه ومآسيه ، وجهتني أول الأمر إلى أن أقدم مباحث هذا الكتاب بعنوان : القرآن وقضايا العصر .

ثم عدلت عنه ، لعلمي أن العصرية ابتذلت في زماننا ، واختلت موازينها فليس عصرياً من لا ينتحل منا فكر الفرنجة وينتمي إلى إحدى مدارسها ، ويشغل بالتيارات الوافدة التي سيطرت على كثير من مثقفينا المحدثين ، حصروا قضايا العصر في صراع المذاهب الاقتصادية والنظم السياسية والأوضاع الاجتماعية .

ولن يجدوا في كتابي هذا ما يشغلهم

ذلك لأني لا أنتمي إلى يمين ولا إلى يسار ، بالمصطلح المذهبي المعاصر . وإنما إنتمائي إلى الإنسانية في شموها المطلق ، وولائي لعقيدتي التي أدين بها ، ولأمتي التي لا أرى سواها لي مذهباً .

وقد أرى في الانتماء إلى مذهب دخيل طارىء ؛ ما يجرح كرامة عقلي ويصادر حرية فكري بالإلزام المذهبي الذي يحدد لي زاوية الرؤية للحياة والإنسان ، ولا يسمح لي في أن اتجاوزها أو أحيد عنها .

متأثرة في هذا العزوف عن الانتماء إلى غير إنسانيتي وعقيدتي وأمتي ، بما حملني الإسلام من تكاليف حرية العقيدة والفكر والرأي. ومبلغ علمي أن المذاهب المحدثة ، اليمين منها واليسار ، تصادر هذه الحرية ، فلا يسمح أي مذهب منها

برأي مخالف، بل قد تهدر حياة الإنسان في سبيل فرض المذهب بالقسر والإكراه.

الشيوعية جريمة في أمريكا ،

والخروج عليها جريمة في الدول الماركسية .

وهذه بدورها يختلف فهمها للمذهب وتفسيرها إياه ، فلا يحل لروسي أن يميل إلى تفسير « ماوتسي تونج » كما لا يحل لصيني أن يخرج عليه ويفكر بغير عقلية الزعيم .

* * *

في النطاق الإنساني ، تشغلني قضايا كانت وستظل أبداً ، مشغلة الإنسان حيثما وأنى كان، فيما يحمل من أمانة إنسانيته وتكاليف وجوده وشواغل دنياه وهواجس أخراه .

ويؤرقني من مآسي الانتهاك لحرمة الإنسان في عصرنا، ما يزهدني في مذاهب جديدة ونظم محدثة ، تتصارع على مناطق السيطرة وقواعد النفوذ ومجال الاستغلال في عالم يئن من مآسي الاضطهاد المذهبي والديني ، وجرائم القرصنة الصهيونية وفواجع التفرقة العنصرية .

وعصرنا يمن علينا بوثيقة لحقوق الإنسان ، أعلنتها هيئة الأمم المتحدة منذ نحو ربع قرن من الزمان .

من عجب أن هذه الفترة الزمنية ، هي عمر جيل من أبنائنا ،تنفسوا وهم أجنة في الأرحام ، غبار فاجعة هيروشيما ونجازاكي ، واستقبلتهم في المهد، عام إعلان وثيقة حقوق الإنسان ، جريمة العصر التي بترت جزءاً من وطن الإنسان العربي ، أخرج من دياره وأرض أجداده ، ونبذ بالعراء في مخيمات اللاجئين على زمجرة الوحش الصهيوني الذي اغتصب بلادنا يعربد فيها وينتهك أقدس حرمات الإنسان في مهد المدنية وأرض الرسالات .

وشهد هذا الجيل من أبنائنا أمته في صباه ، تقدم لمعركة تحرير الجزائر الباسلة أكثر من مليون شهيد فدية لشرف الإنسان .

وعاش بوجدانه وضميره ، حروب الإبادة والتدمير ومصارع الشهداء والضحايا ، في المذابح الجماعية بالشرق الآسيوي الإفريقي .

وتضيع حرمة المبادئ في تواطؤ أقطاب العصر لتتعادل موازين القوى المساردة المسيطرة على عالم اليوم ، فتغدو أعرق الشعوب أوراقاً على مائدة اللعب لطواغيت هذا الزمان ، وبضاعة للتبادل بينهم والمساواة على مناطق النفوذ .

وفي معرض الأقنعة ، يستوي رداء القديس وعباءة الشيطان .

وتزيف القيم فيلهج بالسلام لصوص السلام ، ويبشر بحقوق الإنسان أعداء الإنسان ، ويرجم الاستعباد من استبدلوا بالرق الفردي الرق الجماعي ، وسخّروا العلم لوأد روح الإنسان بأجهزة جهنمية تغسل مخه وتستبيح ضميره وتنتهك مكنون سره ، وقد كان العبيد في العصور الخالية تُقيد أيديهم وأرجلهم بالسلاسل والأغلال ، وتبقى لهم ضمائرهم وقلوبهم منطقة حراماً لا تنتهك ، ولا تخضع لأي قيد أو رقابة . . .

* * *

وبإنسانيتي أرنو إلى أمتي في محنتها بأعداء الإنسان :

في ساعات معدودات ، سيق أقوى جيش لها في قلب الوطن العربي والعالم الإسلامي ، من حرب اليمن إلى مقبرة سينا .

وفي أيام قليلات ، سيق أقوى جيش لها في الشرق الأسيوي ، إلى مجزرة دكا ومصيدة البنغال .

وغير بعيد من باكستان المنكوبة ، تواجه أمتي مذابح جماعية في الفلبين ...
والأسلحة هنا وهناك وهنالك ، من قطبي الصراع المذهبي الذي يسحق الملايين منا في لعبة توازن القوى .

ويلح على خاطري سؤال : ماذا يراد بأمتي ؟

فأرانا قد مزقتنا المذاهب والأوضاع والنظم ، فرقاً وأحزاباً وطوائف ، فذهبنا طرائق قددا .

وتستنزف الخصومة قوانا وتوقد بيننا نار العداوة والبغضاء، بعد أن تكفلت الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية ، بتربية جيل مشوه ممسوخ من أبناء الأمة ، يُدعى لغير آبائه وينتمي فكراً وثقافة ومذهباً إلى غير أمته .

وقد راج في أمتي كلام كثير عن نقد الفكر الديني وأفيون الشعوب المستضعفة ، وتهافت متهافتون على ما بهرهم من بضاعة مستوردة . فمنهم من فتن عن دينه وكفر به جهلاً بعطاء قيمه وأصيل مبادئه وعالي مُثله ومنهم من ارتدى زي الكهنوت العصري ، فراح يروج في الأمة مخدرات سامة من بدع التأويلات التي لا تجوز على عقل ولا على دين ...

* * *

وإذ تحمل أمتي عبء هذه الجولة الشرسة من المعركة الضارية ضد أعداء الإنسان ، تأخذ قضاياها موضعها من قضايا الإنسان ، فيما تواجه من تكاليف الجهاد وتحديات العصر .

وهي قضايا أنظر إليها من الموقع الفكري الذي فرضت عليَّ عقيدتي ومدرستي أن أقف فيه ، نضالاً عن وجود أمتي وشرف الإنسان .

فليكن لسواي من المفكرين وجهات نظرهم إلى قضايا العصر من مختلف الزوايا التي يطلون منها على عالمنا .

وليتقبل أصدقائي القراء وجهة نظري من الأفق القرآني الذي أطل منه على وجودنا ، من حيث أدري أن هذا القرآن هو الذي صنع تاريخ أمتي وضم شعوبها تحت لوائه الجامع .

وهو الذي كرم الإنسان وأعطاه الكلمة الأخيرة للدين في ختام رسالاته ، وكل ميسر لما خلق له ..

القسم الأول

الإنسان والعصر

* هذا الإنسان

١ — قصة الإنسان
* من المبتدأ إلى المنتهى
* اسجدوا لآدم
* أمانة الإنسان
* قضايا الحرية

٢ — مصير الإنسان
* الوجود والعدم
* جدل في البعث
* العرض والجوهر
* عالم الروح

٣ — إنسان العصر بين الدين والعلم
* الإنسان والقمر

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي
إلى ربّك راضية مرضية . فادخلي
في عبادي وادخلي جنّتي »

الإهداء

إلى « أمين الخولي » الإنسان . . .

صحبتُه في رحلة الحياة فتجلت لي فيه وبه ، آية الإنسان بكل عظمته وشموخه وكبريائه ، وجبروت عقله ومرهف حسه وعزة ضميره .

ثم مضى . . .

فعرفت منه وفيه ، مأساة الإنسان ، بكل هوانه وضعف حيلته وقصور طاقته .

وفيما بين حياته وموته ، أرهف إحساسي بقصة الإنسان من المبتدأ إلى المنتهى .

عائشة

مصر الجديدة
مارس : ١٩٦٩
المحرم : ١٣٨٩

هـذا الإنسـان

« اقرأ باسم ربّك الذي خلقَ ٠
خلق الإنسانَ من علَق ٠ اقرأ
وربّك الأكرمُ ٠ الذي علّم بالقلم ٠
علّم الإنسانَ ما لم يعلمْ ٠ كلاّ إن
الإنسانَ ليَطغَى ٠ أنْ رآه استغنى ٠
إنّ إلى ربّك الرجعى »

(سورة العلق)

---

* مستخلص من : « مقال في الإنسان : دراسة قرآنية » نشرته دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٩ .

الإنسان في القرآن الكريم ، غيرُ البشر :

فاستقراء مواضع ورود « بشر » في القرآن كله ، يؤذن بأن البشرية فيه هي هذه الآدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق . وفيها يلتقي بنو آدم جميعاً على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة .

وبهذه الدلالة ، ورد لفظ البشر ، اسمَ جنس ، في خمسة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعاً في بشرية الرسل والأنبياء . مع النص على المماثلة ، فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية ، بينهم وبين سائر البشر :

« ما يأتيهم من ذكرٍ من ربِّهم مُحدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهيةً قلوبُهم ، وأسرّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشرٌ مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تُبصرون . قال ربي يعلم القولَ في السماء والأرضِ وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاثُ أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسِل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون . وما أرسلنا قبلَك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » .

(الأنبياء ٢ : ٨)

«ألم يأتكم نبأ الذين من قبلِكم قومِ نوح وعادٍ وثمودَ ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا اللهُ ، جاءتهم رسلُهم بالبينات فردّوا أيديَهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لَفي شَكٍّ مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلُهم أفي الله شكٌّ فاطرِ السموات والأرضِ يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم ويؤخرَكم إلى أجَلٍ مُسَمّى ، قالوا إن أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبدُ آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلُهم إنْ نحن إلا بشرٌ مثلكم ولكن اللهَ يمُنُّ على مَن يشاءُ من عبادِه وما كان لنا أن نأتيَكم بسلطانٍ إلا بإذن الله ، وعلى اللهِ فلْيتوكل المؤمنون»

(إبراهيم ٩ : ١١)

«ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبين . أن لا تعبدوا إلا اللهَ إني أخاف عليكم عذابَ يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومِه ما نراك إلا بشراً مثلَنا وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلُنا باديَ الرأيِ وما نرى لكم علينا من فضلٍ بل نظنكم كاذبين . قال يا قومِ أرأيتم إن كنتُ على بيّنةٍ من ربي وآتاني رحمةً من عنده فعُمِّيَتْ عليكم أنُلزِمُكموها وأنتم لها كارهون . . .» .

(هود ٢٥ : ٢٨)

«قل إنما أنا بشرٌ مثلُكم يوحَى إليّ أنما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فمن كان يرجو لقاءَ ربِّه فلْيَعملْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعِبادةِ ربِّه أحداً»

(الكهف : ١١٠)

وانظر معها آيات : المؤمنون ٢٤ ، ٣٣ ، الشعراء ١٥٤ ، يس ١٥ ، فصلت ٦ .

وقد تأتي الآيات في تقرير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعاً ، لكن السياقَ فيها شاهد على هذه المماثلة وإن لم تُذكر بلفظها نصاً :

« وقالوا لن نؤمنَ لكَ حتى تَفجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكونَ لكَ جَنَّةٌ من نخيل وعنبٍ فتُفجِّرَ الأنهارَ خلالَها تفجيراً . أو تُسقطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً . أو يكونَ لكَ بيتٌ من زُخرفٍ أو تَرقى في السماءِ ولن نؤمنَ لِرُقيِّكَ حتى تُنزِّلَ علينا كتاباً نَقرؤه ، قُلْ سُبحانَ ربّي هل كنت إلا بشراً رسولاً » .

(الإسراء ٩٠ : ٩٣)

ومعها آيات : الأنبياء ٢٤ ، الفرقان ٢٠ ، الشورى ٢١ .

* * *

والإنسان في القرآن الكريم ، غير الناس .

لفظ الناس ، يأتي في النصّ القرآني نحو مائتين وأربعين مرة ، بدلالة واضحة على اسم الجنس لهذه السلالةِ الآدمية ، أو هذا النوع من الكائنات ، في عمومه المطلق :

« يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا ، إن أكرمَكم عند الله أتقاكم »

(الحجرات : ١٣)

* * *

وهو أيضاً : غير الإنس : بينهما ملحظٌ مشترك من الأصلِ اللغوي لمادة « أن س » في دلالتها على نقيض التوحش ،

ثم يختص كل من اللفظين في البيان القرآني ، بملحظ متميز وراء ذلك الملحظ المشترك .

لفظ الإنس :

يأتي دائماً مع الجن على وجه التقابل ، يطّرد ذلك ولا يتخلف في كل الآيات التي ورد فيها ذكر « الإنس » وعددها ثماني عشرة آية :

الأنعام ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، الأعراف ٣٨ ، ١٧٩ ، الإسراء ٨٨ ، النمل ١٧ ، فُصِّلت ٢٥ ، ٢٩ ، الأحقاف ١٨ ، الذاريات ٥٦ ، الجن ٥ ، ٦ وكلها آيات مكيات ،

ثم الرحمن : ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٤ وهي مدنية .

وملحظ الإنسية هنا ، بما تعنى من عدم التوحش ، هو المفهوم صراحةً من مقابلتها بالجِنِّ في دلالتها أصلاً على الخفاء الذي هو قرين التوحش .

وبهذه الإنسية يتميز جنسُنا عن أجناسٍ أخرى خفية مجهولة لا تنتمي إلينا ولا تحيا حياتنا .

وليس من الضروري أن يقتصر مفهومُ الجِنّ على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التي لا تظهر لنا إلا في تهاويل الظلمة وتصورات الوهم، وإنما يتسع اللفظ – بدلالته الأصلية على الخفاء ، وبمقابلته للإنس – لأي جنسٍ غير بشري يعيش في عوالم غيرِ منظورة ولا مُدرَكَة ، وراءَ

حدودِ عالمَنا الأرضي الذي نعيش فيه نحن الإنس ، ولا يخضع للسنَن والنواميس المعروفة التي توجه حياتنا وتحكمها .

وبهذا المدلول الرحب ، تنتفي شبهةُ الخرافة التي تدفع كثيراً من العصريين إلى رفض الاعتقاد في وجودِ الجن ، إذا قدّرنا أن الكشوفَ العلمية الحديثة لا تنفي احتمالَ وجودِ جنسٍ غيرنا ، يعيش في عوالمَ خفيةٍ كالكواكب ، لا نزال نجهلها وإن لم نكفّ عن السعي إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها .

* * *

فماذا عن الإنسان ؟

قلت إن اللفظ يلتقي مع الإنس في ملحظ مشترك من الدلالة اللغوية الأصلية للمادة على نقيض التوحش . ثم ينفرد كل منهما بملحظ خاص يميّزه عن الآخر .

فدلالة الإنسية ، هي المتعينة بمقتضى استعمال القرآن الكريم للفظ الإنس دائماً في مقابل الجن بما تعني من توحش وخفاء .

وأما «الإنسان» فليس مناط إنسانيته ، فيما نستقرئ من آيات البيان المعجز ، مجرد كونه منتمياً إلى فصيلة الإنس (الرحمن : ١٤ ، والحجر : ٢٦) كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض واحتمالِ تبعاتِ التكليف وأمانة الإنسان ، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز ، مع ما يُلابِسُ ذلك كلّه من تعرّضٍ للابتلاء بالخير والشر ، وفتنةِ الغرور بما يحس من قوته وطاقته ، وما يزدهيه من

الشعورِ بقَدْرِه ومكانته في الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات .

بحيث ينسى في نشوة زهوه وكبرياء غروره ، أنه المخلوق الضعيف الذي يعبر رحلة الدنيا من عالم المجهول إلى عالم الغيب ، على الجسر المفضي حتماً إلى حفرة من تراب :

« أم للإنسان ما تمنى . فلله الآخرة والأولى »

* * *

وأمضي في تدبر آيات القرآن عن هذا « الإنسان » بوجه خاص ، اجتلاء لملامح صورته وخصائص إنسانيته التي يتميز بها عن مجرد كونه فرداً من النوع البشري أو من الإنس .

وقد ورد لفظ « الإنسان » في القرآن الكريم ، في خمسة وستين موضعاً ، نتدبر سياقها جميعاً ، فنطمئن إلى الدلالة المميزة للإنسانية .

ونبدأ بسورة العلق ، أول ما نزل من كتاب الإسلام ، وفيها يمكن أن نجتلي الملامح العامة للإنسان ، وقد تكرر ذكره في هذه السورة الأولى ثلاث مرات :

إحداها : تلفت إلى آية خلقه من علَقٍ .

والثانية : تشير إلى اختصاصه بالعلم .

والثالثة : تحذر مما يتورط فيه من طغيان ، حين يتمادى به الغرورُ فيرى أنه استغنى عن خالقه :

« اقرأ باسمِ ربّـِك الذي خلق . خلق الإنسانَ من علَق .
إقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علّـم بالقلم . علّـمَ الإنسانَ

ما لم يعلم . كلا إن الإنسان لَيطغى . أن رآه استغنى .
إن إلى ربك الرّجْعَى »

هذه هي السماتُ المجملة للإنسان ، كما بدتْ في السورة الأولى من القرآن . ثم تتابعت الآياتُ من بعد ذلك تَزيدها جلاءً وبياناً ، بما تضيف إليها من إضاءة كاشفة لدقيق الملامح وخفي النوازع .

وقد تكررت الإشارةُ إلى خلق الإنسان من علقٍ ، أو من ترابٍ ومن نطفة ثم علقة ، في آيات كثيرة . وليس من شأني هنا أن أعرض لما يخوض فيه المحدثون من تأويلات علمية لهذه الآيات ، فلست من أصحاب هذا المذهب . وإنما قصارى جهدي أن أتدبر آيات كتابنا الأكبر ، وأصغي إلى إيحاء سياقها .

وآيات خلق الإنسان ، جاءت كلها في سياق العظة والاعتبار ، لافتة إلى أطوار الجنين البشري التي يدركها الناسُ بأيسر ملاحظة وانتباه . ويبدو في الآيات العمدُ الواضح إلى الاستدلال بها على القدرة الإلهية على البعث :

« فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِق . خُلِقَ من ماءٍ دافق .
يخرجُ من بين الصُّلْبِ والترائب . إنه على رَجْعِهِ لقادر »
(الطارق ٥ : ٨)

« قُتِل الإنسانُ ما أكفرَه . من أيِّ شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره . ثم السبيلَ يسّره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره »
(عبس ١٧ : ٢٢)

« إنا خلقنا الإنسانَ من نُطْفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً

بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »
(الإنسان ٢ : ٣)

« أوَ لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه من نُطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين . وضرب لنا مَثَلاً ونسي خلقَه قال مَن يُحيي العظامَ وهي رميم . قلْ يُحييها الذي أنشأها أوّلَ مرة وهو بكلِّ خلق عليم »
(يس ٧٧ : ٧٩)

« ألم يكُ نطفة من منيٍّ يُمنَى ، ثم كان علَقَةً فخلَقَ فسوّى ، فجعل منه الزوجين الذكرَ والأنثى ، أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتى » ؟
(القيامة ٣٧ : ٤٠)

« أكفرتَ بالذي خلَقَك من ترابٍ ثم من نُطفة ثم سوّاكَ رجلاً » ؟
(الكهف : ٣٧)

وإذا كان الأسلوب العلمي في التشريح والأحياء ، لا يتعلق بمثل الكفر أو الشكر والإيمان ، والخصومة والابتلاء والغرور . . .

فإن طبيعة النصِّ القرآني من حيث هو كتابُ هُدى ودين ، تقتضي توجيهَ كلِّ لفظٍ وآية إلى مناطِ الهداية والاعتبار .

ولمثل هذه الغاية ، يحرص كتاب الإسلام على تذكير الإنسان بهوانه وضعفه ، فيلفته إلى خلقِه من تراب ، أو من طين أو من نطفة ، أو من علقة ثم من نطفة ، أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . — ولا شيء من هذا يحتاج الإنسان فيه إلى دراسة علمية ليدركه — كبحاً لجماح غرورِه كيلا يتجاوز قدره فيطغى ويستكبر . والإنسان مظنة أن

يتمادى به الطغيان والغرور إلى حد الكفر بخالقه ، والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين :

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » .
(النحل : ٤)

« وخُلِق الإنسانُ ضعيفاً »
(النساء : ٢٨)

« أو لا يذكرُ الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً »
(مريم : ٦٧)

« يا أيها الإنسانُ ما غرّك بربِّك الكريم . الذي خلقكَ
فسوّاك فعدّلك . في أيِ صورةٍ ما شاء ركّبَك »
(الانفطار ٦ : ٨)

ومن شأن الإنسان أن ينسى ربّه في حالِ النعمة والقوة ، فأما إذا مسّه الضرّ فإنه يذكر خالقه في ضراعة وابتهال :

« وإذا مَسّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبِه أو قاعداً أو قائماً ،
فلما كشَفْنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مَسّه ... »
(يونس : ١٢)

« وإذا مَسّكم الضرُّ في البحرِ ضلّ مَن تدعون إلا إياه ،
فلما نجاكم إلى البرِّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً »
(الإسراء : ٦٧)

وانظر معها آيات : هود ١٠ ، والإسراء ١١ ، ٨٣ ، والزمر ٨ ، ٤٩ ، والشورى ٤٨ .

فذلك هو مزيدُ تفصيلٍ وبيان لما في آية الوحي الأولى :

« كلا إن الإنسان ليَطْغَى . أنْ رآه استغنى »

* * *

والإنسان في القرآن الكريم هو الذي يختص بالعلم :

« علّم الإنسانَ ما لم يعلم »

(العلق : ٥)

والبيان :

« الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان »

(الرحمن : ١ : ٤)

وبما تهيأ له من وسائل التعقل والتبصر ، والتمييز بين الخير والشر . وذلك كله من جوهر إنسانيته . وبها يحمل الأمانةَ ، ويحتمل تبعاتِ التكليف ، ومسؤوليةَ الثواب والعقاب :

« وأنْ ليس للإنسانِ إلا ما سعى . وأنْ سعيَه سوفَ يُرى. ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى »

(النجم ٣٩ : ٤١)

« أيحسب الإنسان أن يُترك سدى » ؟

(القيامة : ٣٦)

« وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عُنُقِه ونُخرجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يلقاه منشورا . اقرأ كتابَك كفى بنفسِك اليومَ عليك حسيباً »

(الإسر ١٣٠ : ١٤)

ثم إن الإنسان هو الذي يحتمل الوصية (لقمان ١٤ ، العنكبوت ٨) وهموم المكابدة ، واقتحام العقبة لتحقيقِ وجوده الإنساني وأداء مسؤوليته الاجتماعية :

« لقد خلقنا الإنسان في كبَد . أيحْسَبُ أنْ لن يَقدِرَ عليه أحدٌ . . . »

« ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين
« فلا اقتحم العقبةَ . وما أدراك ما العقبة »

(البلد ٤ ، ٥ ، ١١ ، ١٢)

« والعصرِ . إن الإنسانَ لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتواصوْا بالصبر »

(العصر)

كما أنه الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية (الفرقان ٢٩ ، ق ١٦ ، الحشر ١٦ ، الإنسان ٢) .

ويظل الإنسان ما عاش كادحاً لمصيره ، محتملاً هموم المكابدة وتجربة الابتلاء حتى يحين الأجل فيمضي . . .

فما أعجبَ قصة هذا الإنسان في رحلته العابرة ما بين الحياة والموت :

هل تعدو أن تكون في مُجْمَلها إلا كما وصفها البيانُ القرآنيّ :

« لقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم . ثم رَدَدْناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فلهم أجرٌ غيرُ ممنون »

(التين ٤ : ٦)

* * *

فلنتابع التأمل في هذه القصة ، من المبتدأ . . . إلى المنتهى .

(١)

قِصَّة الإنسان

مِن المُبتدأ إلى المُنتهى

خليفـــة فى الأرض

«وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ
في الأرضِ خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من
يُفسد فيها ويَسفِك الدماءَ ونحن نُسَبّحُ
بحَمدِك ونُقدّسُ لك ، قال إني أعلم
ما لا تعلمون»

(سورة البقرة)

تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم ، أبي البشرية .

ولا مجال هنا لجدل حول نظرية التطور وخلق آدم : فآدمُ في النص القرآني هو الإنسان الأول الذي بدأ منه طورُ البشرية . والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد «خلقكم أطواراً» كما يلفت إلى مرحلة زمنية ، لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً :

«هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً»

كذلك لا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو طين ، فقد أعفاني أستاذنا العالم «الدكتور محمد كامل حسين» من ردّ ما قالوه من تأويلات لا يحل أن نُلزم القرآن بها وليس فيه نص صريح على كيفية خلق آدم ، والله تعالى لم يقصر الخلقة من تراب أو من طين على آدم وحده ، بل يستوي في ذلك الناسُ جميعاً ، خلقَهم تعالى من تراب ، أو من طين لازب ، فشهد ذلك على أن مادة الإنسان ترابية ، وهو ما لا نزاع فيه .

وقد أضيفُ إلى ما ذكره أستاذنا في هذا [1] ، أن القرآن حين يلفت إلى خلق الإنسان من تراب وطين ، فليس من الضروري أن يكون أحدنا عالماً بترابية مادة الإنسان لكي يؤمنَ بالقدرة الخالقة ، وإنما

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين : الجزء الثاني من (متنوعات) : قصة آدم .

حسبه أن يلتفت إلى الأرض، ندفن جثث موتانا في ترابها . فتتحلل عناصرها ذائبة في التراب الذي يتغذى الأحياء من نباته ومعادنه وباقي عناصره . . .

ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات ، ليُدرك أننا خُلِقنا من تُراب وإلى الترابِ نعود ، على المشهودِ المنظور والواقع الحسي المدرَك . . .

«الذي جعلَ لكم الأرض مَهداً وسلك لكم فيها سُبُلا
وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى .
كُلوا وارعَوا أنعامَكم إن في ذلك لآياتٍ لأولي النُهَى .
منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نُخرجكم تارة أخرى»

(طه ٥٣ : ٥٥)

* * *

ومن بدء الخليقة ، اصطُفِي الإنسانُ الأول للخلافة في الأرض .

ولست أدري ما إذا كانت الرسالات التي سبقت الإسلام قد نزلت بهذا الاصطفاء ، وإنما قصارى ما أعلمه ، هو ما جاء في كتاب الإسلام من إعلانِ خلافةِ آدم في الأرض . فإن يكن هذا الإعلانُ غيرَ مسبوق إليه في رسالة قبله ، فلعل البشرية لم تكن قد بلغت من الرشد المرحلةَ التي تهيئها لوعي هذه الخلافة ، وإدراك خطر جلالها وتبعات أمانتها ...

وإن امتد عهدُها بها موغلاً في أعماق الزمن السحيق إلى عصرِ النشأة الأولى .

أو بتعبير أدق ، كان آدم أبو البشرية موعوداً بها من قبل أن

يُخلَق ، في اللحظة التي آذنت الكونَ باستقبال هذا الطورِ الجديد من الخلق .

* * *

وما أقدمه هنا ، يبدأ من حيث انتهى « الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين » في خطوته الرائدة على الطريق . ولا أرجع في شيء مما أكتب إلى غير القرآن الكريم ، بعد استيعابٍ لما في كتب التفسير ، واستبعاد ما هو دخيلٌ على جوهر الفكرة القرآنية الأصيلة ، من مدسوسات الإسرائيليات ومقحماتها الأسطورية التي شابت فهمَنا لكتاب ديننا ، وتركت أثرها الباقي في الفكر الإسلامي .

* * *

في مستهل العهد المدني ، نزلت سورة البقرة ، وفيها ذكر لإعلان خلافة آدم في الأرض :

« وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً
قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماءَ ونحـن
نُسبّحُ بحمدِك ونُقدّسِ لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون »

والآية ، ومعها آياتُ خلق آدم ، صريحة في أنه مسبوق بأنواع أخرى غير بشرية ، منها هذه الملائكة التي لا ندري كنهها ولا يأذن لنا العلمُ في أن نخوض فيها ، وهي من الميتافيزيقية التي لا تخضع لمجال إدراكه وتجربته ،

وكذلك لا يأذن لنا الدين أن نقول فيها ، بأكثر مما تلاه علينـا كتاب ديننا .

ومنه نعرف أن الملائكة طور سابق على خلق آدم ، وقد عاشت في عالمها الذي لا يحيط به إدراكنا ، خاضعة لنواميس غير التي يخضع لها جنسُنا الآدمي ، تُسيّرها الإرادة العليا على وجه التسخير ، فتأتمر بها في خضوع وإذعان ، دون أن تُبتلى بحرية إرادة واختيار ، ودون أن تهيئها طبيعتُها لعلمٍ أو خُلُقٍ كَسْبي . بل دون أن تدرك ضرورةً ما ، لوجودِ طورٍ جديد من المخلوقات ، ليس له مثلُ خضوعها وتواضعها وطهرها ، وهي المذعنة للتسخير المطلق ، والكون يسير — قبل هـذا الآدمي — في سلام ، والملائكةُ فيه رسلُ ربّهم « لا يَعصُون اللهَ ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون »

* * *

ولنا أن نفترض دون تعسف ، أن المرحلة التي سبقت وجودَ آدم مباشرةً ، كانت مؤذنةً بتحولٍ وشيك ، ظهرت بادرتُه الأولى حين تلقت الملائكةُ الإيذانَ بخلق آدم خليفةً في الأرض ، فبدأتْ تفكر في العلل والأسباب ، على غيرِ المعهود في طبيعتها من الإذعان والتسليم ، وقيامِها بأمر اللهِ دون تفكيرٍ أو مراجعة !

ويؤنسنا في هذا الافتراض ، أن القرآنَ على كثرة ما تحدّث عن الملائكة ، كان موقفها فيه من خلافة آدمَ في الأرض ، هو الموقف الوحيد الذي مارست فيه الملائكة حقّ السؤال والجدل ! وفيما عدا هذا الموقف ، يأتي حديثُ القرآن فيصرفنا عمداً عن البحث في كُنهِها وجوهرِها ، ويَذكُرها رُسُلاً مسخرين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، حافّين من حول العرش يُسبّحون بحمد ربهم ، ويسجدون للهِ وهم لا يستكبرون .

حتى إذا قال لهم سبحانه : « إني جاعلٌ في الأرض خليفة »

استباحوا أن يسألوه تعالى : « أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدماءَ ونحن نسبح بحمدك ونقدّسُ لك » ؟

وقد عادت الملائكة ، بعد كلماتٍ من الله ، إلى مألوفِ وضعها من الطاعة والامتثال والإذعان ، لم يشذ عنها إلا إبليسُ فباء باللعنة :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليسَ أبى واستكبر وكان من الكافرين »

ويسوقنا هذا الافتراضُ ، إلى تصورِ المرحلةِ السابقة مباشرةً على الطور الآدمي ، شبيهةً بمراحل الإرهاصِ والتهيؤ التي تعرفها الحياةُ ويثبتها العلم البيولوجي والتاريخُ الحضاري ، إذ يلمح دائماً قبيل كلِّ طورٍ أو عصرٍ جديد ، بوادرَ التحول المرتقب ، وفيها تلوح على الطورِ السابق بعضُ سِماتٍ وملامحَ من الطور الجديد .

ففي هذا الموقف الذي وقفته الملائكة من قول الله : « إني جاعل في الأرض خليفة » ما يشبه أن يكون بادرةً مؤذنةً بجديد ، إذ أن الإنسان وحده هو الذي انفرد دون الكائنات بخاصية التفكير والجدل ومسؤولية الاختيار ، وما عهدنا الملائكة فيما تلا علينا القرآن من أمرها ، تتجه إلى مثل ذلك السلوك المجافي لخِلقتها وطبيعتها ، وهو السلوكُ الذي لا نلبث أن نراه خاصيةً مميزة للطورِ الآدمي الجديد .

ولقد كانت فتنةُ إبليس ، أثراً لوقع النبأ الجديد على الطور السابق لآدم والذي لم يتهيأ لغير الطاعة والتسخير . . .

كما كان إصراره على المعصية ، إيذاناً بالصراع المحتوم بين الخير

والشر . وبياناً للهوة السحيقة الفاصلة بين عصر الطاعة المطلقة والتسخير التام ، وبين ما ينذر به الاختيارُ من إمعانٍ في التمرد ، وانحراف إلى الشر والضلال .

والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية :

ليست جبريةَ تسليمٍ وطاعةَ تسخير ، ولا هي محض شرٍّ وشهوة تمردٍ وإصرار على الضلال ...

وإنما هي تحقيقٌ للذاتِ ، عن تمييز ووعيٍ وإرادة ...

هي تجربة الأبتلاء ، يتعرض فيها آدمُ للغواية فيغوى ، ثم يؤرقه ضميره وتحاسبه النفسُ اللوامة ، فيندم ويتوب ...

ويمضي ليمارس خلافتَه في الأرض ، فلا تكون حياتُه كلها ، من بدء خلقه إلى آخر وجوده ، إلا معركة متصلة بين الخير والشر ، يحتمل فيها تبعة عمله ومسؤولية اختياره .

وعصمة الملائكة عن إجبار ، دون خيرية البشر عن اختيار .

وكل خيرٍ من الإنسان ، كَسْبِيٌّ لا تحظى به الملائكة المسَخّرة ...

وأي شر ، تنسخه التوبةُ ويكفر عنه حسابُ النفس اللوامة ...

هذه هي الآدمية السوية التي استحقت الخلافة في الأرض .

وحين يشذ بعض أفرادها عن هذه الآدمية السوية ، فيقترف الشر شهوةً ومتعة ، دون أن يردعه ضمير أو يؤرقه قلق ، فإن هذا الشذوذ يخرج بمثل ذلك الشرير عن طبيعة الآدمية ويمسخه شيطاناً مريداً ، من صنف إبليس ، أصل الشر .

من هنا لم يكن فيما توقعت الملائكةُ لآدم قبل أن يُخلق ، من إفسادٍ

في الأرض وسفك الدماء ، ما يسوّغ حرمانه من الخلافة فيها ، دون الملائكة التي تسبّح بحمد الله وتقدّس له .

فالابتلاء يقتضي أن تكون أمام آدم شرورٌ تغويه لكي تمتحن طاقته وتصهر معدنه .

وأمانة الإنسان تعني أن يواجه التجربةَ ويخوضَ المعركة بين الخير والشر . ليكون خيرُه له وشرّه عليه .

وهو ما خُلق ليعيش في أفقِ الملائكة التي تُسبّح بحمدِ الخالق وتقدس له ، وإنما خُلق ليعيش حياتَه على هذه الأرض ويمارس خلافته فيها .

والخير المحض لا يسوّغ الخلافةَ ، إن كان جبريّاً بغيرِ إرادة واختيار .

اُسْجُدُوا لِآدَمَ

« وإذ قلنا للملائكة اسجُدوا لآدمَ
فسجَدوا إلا إبليسَ أبى واستكبر
وكان من الكافرين »

(سورة البقرة)

تمضي الآيات في بيان موقف الملائكة من خلافة آدم في الأرض مع ابتلائه بالافساد وسفك الدماء ، والاشتغال عن تسبيح الله والتقديس له :

« وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها ثم عرضَهم على الملائكةِ فقال أنبئوني بأسماءِ هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقلْ لكم إني أعلم غيبَ السمواتِ والأرضِ وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليسَ أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدمُ اسكن أنت وزوجُك الجنة وكُلاَ منها رغَداً حيثُ شئتما ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطانُ عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ ولكم في الأرضِ مُستَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين . فتلقى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدىً فمَن تبع هُداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

(البقرة ٣١ : ٣٩)

ويذهب عدد من المفسرين إلى تأويل قوله تعالى على لسان الملائكة :

«أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» بنفي دعوى الملائكة عن هذا الإفساد في الأرض وسفك الدماء !

وسياقُ الآيات بعدها . فضلاً عن نصّها ، لا يعين على هذا مثل التأويل بحال ما ، إذ ما لبث آدم أن عصى ربّه ، وتعرض هو وزوجه لغواية الشيطان فأزلهما عن الجنة . وما لبث ولده أن سفَك دمَ أخيه ، حين لم يكن في الأرض غير هذه الأسرة الآدمية الأولى !

وإنما كان وجهُ الإيثار بالخلافة في الأرض ، هو العلم . وبه كان الرد على الملائكة فيما عجبت له من استخلاف آدم في الأرض .

* * *

ولا بدّ هنا من استطراد يسير ، أشير به إلى ما ذاع في البيئة الإسلامية وشاع ، من خلق حواء من ضلع آدم . وليس في القرآن كله ما يشير من قريب أو بعيد إلى أنها خلقت من ضلعة أو غير ضلعه ، بل ليس فيه لفظ ضلع أو أضلاع على الإطلاق !

الذي فيه أنها زوجه ، خلقهما الله من نفس واحدة وخلق منها زوجها :

«يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجَها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا اللهَ الذي تَساءلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيباً»

(النساء : ١)

وقد أكد كتاب الإسلام هذه الخِلقةَ من نفسٍ واحدة في آيات أخرى بينات ، من سور الأنعام والأعراف والزمر .

وهم يذكرون في حكاية الضلع هذه ، حديثاً مروياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم يشبه فيه المرأة بضلع أعوج ، إن حاولت تقويمه بالشدة والعنف كسرته . وقد فهموا هذا الحديث فهماً حرفياً ، مع أن الضلع فيه ، من التعبير المجازي الذي نعرفه في أسلوب البيان العربي . وإذا صح الحديث فليس القصد منه تحديد أصل الخلقة ، وإنما هي وصية من نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ، بالترفق بالمرأة والتحذير من أخذها بالشدة ، مثله مثل الحديث الآخر : « رفقاً بالقوارير » .

فهل خُلقت النساء من قوارير ؟

وأشير كذلك إلى القصة الذائعة التي تستهل فيها حواء الأولى حياتها بالغواية والإغراء ، وفيها تبدو الأنثى الأولى ، أم الآدمية ، أداة طيعة لإبليس على الشر ، ووسيلته إلى التسلط على آدم وإغرائه بعصيان خالقه والأكل من الشجرة المحرمة .

والحق أن ليس في كتاب الإسلام إشارة ما إلى أن إبليس بدأ بإغواء حواء فأغرت زوجها بالأكل من الشجرة المحرمة فأخرجته من جنته . وإنما الذي في القرآن الكريم أنها كانت مكلفة مثله بالنهي عن قرب هذه الشجرة . فأكلا منها بوسوسة إبليس .

(الأعراف ١٩ : ٢٤ ،
والبقرة ٣٥ : ٣٩)

وقد كان العهد لآدم ، وهو الذي نسي وغوى ، وإبليس تعرض له مباشرة بالوسوسة والإغواء دون أن يسلط عليه زوجه . أو يتوسل إليه بها :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً .
وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى .

فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »

(طه ١١٥ : ١٢٢)

* * *

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنا فيه من قصة الإنسان في المبتدأ ، كما تلاها علينا كتابنا الديني ، حين آذن الله الملائكةَ بخلق آدم وجعله خليفة في الأرض ، ثم أمرهم أن يسجدوا لآدم .

سبحانه ! جعل آدمَ خليفة في الأرض ، وأكرمه فأمر الملائكةَ أن يسجدوا له وإنه تعالى لَيعلم نزوعَ الآدمية إلى الفساد وتعرضّها لمحنة الغواية ، وما يجوز عليها من أعراض الضعفِ والخطأ والنسيان ؛ فكأنما هو ابتلاء لها بالشر والخير فتنة .

واختلف اللغويون والمفسرون في تأويل هذه الأسماء التي علمها الله آدم ، فقال « الراغب » في ,, المفردات ،، إنها الحروف والأفعال والأسماء . وهو قريب ممن ذهبوا إلى أن الأسماء هي اللغات ، واستدلوا بالآية على أن اللغات توقيفية ، تلقاها آدمُ من ربه . لا يقتصرون فيها على لغة واحدة كان آدم يتحدث بها ، وإنما هي كل اللغات التي جرى بها لسان بني آدم ، القديم منها والحديث !

ونقل « الإمام الطبري » في تفسيره للآية، مرويات شتى في تأويل الأسماء :

فهي أسماء الملائكة عند بعض المفسرين .

وعم بها آخرون : اسم كل شيء ، كالبعير والبقرة والشاة والقصعة .

وأضاف بعضهم : والجن والوحش !

وذهب نفر منهم إلى أنها أسماء ذرية آدم !

ثم قال الطبري :

« وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل على صحته ظاهرُ التلاوة ، قولُ من قال إنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة ، دون أسماء سائر أجناس الخلق ، وذلك أن الله قال : « ثم عرضهم على الملائكة » يعني أسماء أعيان المسمين بالأسماء ، ولا تكاد العرب تكنى بالهاء والميم (هم) إلا عن أسماء بني آدم والملائكة . وأما أسماء البهائم وسائر الخلق سوى مَن وصفنا ، فإنها تكنى بالهاء والألف أو بالهاء والنون» — يعني : عرضها ، عرضهن .

ولم يفت « الطبري » أن القرآن نفسه ، أضمر عن غير العاقل بضمير العاقل في مثل قوله تعالى :

« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » ،

فكنى عنها بـ « هم » وهي أصناف مختلفة ، فيها الآدمي وغيره [1] .

---

١ أصرح من هذه الآية التي ذكرها الإمام الطبري ، آيات الصافات في إبراهيم والأصنام : « فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون » ٩١ : ٩٢ ، والأنبياء : « فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » « قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون» . وواضح من السياق إرادة السخرية بها والإشهاد على غفلة عابديها وتبكيتهم .

لكن الطبري استطرد فقال :

« وذلك وإن كان جائزاً فإن الغالب المستفيض في كلام العرب ما وصفنا من إخراجهم كناية الأجناس المختلفة بـ : ها ، وهن ، فلذلك قلت : أولى بتأويل الآية أن تكون الأسماء التي علمها آدم ، أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة . وقرأ ابن مسعود : ثم عرضهن . وقرأ أبيّ : ثم عرضها .

« وعلى قراءتنا ورسم مصحفنا ، أن الدلالة على بني آدم والملائكة أولى منه بالدلالة على أجناس الخلق كلها ، وإن كان غير فاسدٍ أن يكون دالاً على جميع أصناف الأمم »[1] .

والذي استبعده الطبري ، هو ما اختاره « الزمخشري » ، قال :

« أراد الأجناس التي خلقها ، وعلّمه أن هذا اسمُه فرس ، وهذا اسمُه بعير ، وهذا اسمُه كذا وكذا ، وعلمه أحوالها أو ما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية .

« وإنما استنبأهم ، وقد علِمَ عجزَهم عن الإنباء ، على سبيل التبكيت : إن كنتم صادقين في زعمكم أني استخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء . . . إرادة للرد عليهم وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ، ما يستأهلون لأجله أن يُستخلَفوا . فأراهم بذلك وبيّن لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في اختلافهم »[2] .

ولا نرى وجهاً لكل هذه التأويلات ، أو إقحام قضية التوقيف في اللغات التي نعرف موقفَ علم اللغة منها . والقرآن الكريم قد أشار في

---

١ تفسير الطبري : سورة البقرة .

٢ الكشاف : جـ ١ سورة البقرة .

أكثر من موضع ، إلى أسماءٍ ما أنزل الله بها من سلطان :

« قالوا أجئتنا لنعبدَ الله وحده ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا فائْتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربِّكم رِجْسٌ وغضب ، أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم ما نَزّل اللهُ بها من سلطانٍ ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين »

(الأعراف : ٧١)

« وما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطانٍ »

(يوسف : ٤٠)

فشهد ذلك بأن من الأسماء التي يعرفُها الآدميون ، ما لم يتلق آدمُ من ربه !

حسبنا ما تلفت إليه الآية ، من اختصاص آدمَ بعلم الأسماء كلها التي لم يكن للملائكة علم بها ، في سياق الإقناع بإيثاره بالخلافة في الأرض وأهليته لها .

والأسماء قد تطلق على أعيان الأشخاص ، كما قد تطلق ويُعنى بها الدلالة على المسميات علامةً مميزة لكلٍّ منها . والعربية تستعمل الاسمَ والسمةَ بمعنى ، وتقول استمى الصائدُ ، إذا لبس اللباس الدالّ على الصيد ، وتوسمتُ فيه الشيءَ : لمحت فيه علامته وسمته .

ولا معنى لأن نتأول الأسماءَ هنا بكلِّ اللغات ، ولعل الأمر فيها ، هو ما ذهب اليه الشيخ محمد عبده في قوله :

« والعلم إنما هو إدراك المعلومات أنفسها ، والألفاظ الدالة عليها

تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح فهي تتغير وتختلف ، والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف »[1] .

* * *

ويبدو أن الشيخ محمد عبده ، يميل إلى حمل آية : « وعلم آدم الأسماء كلها » إلى « ما تهيأ في فطرة هذا الخليفة الإنساني واستعداده ، من علم ما لم يعلموا – الملائكة – فتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الأرض ، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه ، وناهيك بمقام العلم وفائدته وسر العالم وحكمته » .

وهو تأويل مقبول ، لا يمنعه ما في الآية من النص الصريح على أن آدم في بدء حياته ، علم بتوفيق الله ما استطاع به أن ينبئ عن أسماء لم يُعلمها الله الملائكة .

وقد عاد الشيخ محمد عبده ، فقال شبه مستدرك ، فيما نقل عنه صاحب المنار :

« ثم إن الذي يتبادر إلى الفهم من صيغة التعليم هو التدريج : « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »

« ولكن المتبادر من تعليم آدم الأسماء أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه ، بالفعل أو بالقوة . . .

« ولذلك قال شيخنا : علّم الله آدم كل شيء . ولا فرق بين أن يكون له هذا العلم في آن واحد أو في آنات متعددة ، والله قادر على كل شيء . ثم إن هذه القوة العلمية عامة في النوع الآدمي كله ،

---

١ تفسير الذكر الحكيم : ١/٢٥٢ .

ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم ، فيكفي في ثبوت هذه القوة لهم ، معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال .. ومن ذلك عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا وما أودِعتْه فطرتنا ، فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خُلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق ، لتظهر حكمة الله فينا ، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ومعنى سجودهم لأصلنا : ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكّرون » .

* * *

والزمخشري ، يوجه الآية في خلافة آدم في الأرض ، وفي علمه الأسماء ، إلى عموم الجنس الآدمي ، إذ تمضي عبارته في (الكشاف) حديثاً عن الجمع ، في استخلاف « مفسِدين سفاكين للدماء ، إرادة للرد على الملائكة ، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يُستخلفوا » .

ثم يقرر ذلك صراحة حيث يقول :

« واستغنى بذكر آدم عن ذكر بنيه ، كما يُستغنى بذكر القبيلة في قولك : مضر وهشام »

وذلك التعميم ، هو ما يُفهم من عبارة الشيخ محمد عبده :

« فيصح أن يكون معنى الخلافة عامّاً في كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات » . . .

ولا يفوتنا الالتفات إلى ما في قول الملائكة : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتَنا » من نفي كل علم كسبي عن جنس الملائكة ، على حين

يتميز الإنسان دون الكائنات الأخرى ، باالقدرة على تحصيل العلم الكسبي واستعداده لكسب المعارف الوضعية ، وفي ذلك يقول الشيخ محمد عبده في تفسير الآية :

« ... وكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية ، فإن له استعداداً محدوداً وعلماً إلهامياً محدوداً وعملاً محدوداً ...

« وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً وخلقه جاهلاً ، ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر وموضع لعجب المتعجب ، لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء ، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الأسماء ، ويُعطي قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفاً يكون له بها السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذللها كما تشاء تلك القوة الغريبة التي يسمونها العقل ولا يعقلون سرها .

« فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العقل . نعم إن هذا العلم الواسع لا يُعطاه فرد من أفراد الإنسان ، ولا مجموع النوع الإنساني دفعة واحدة فيشابه علم الله تعالى ... فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهي إلا قليلاً ، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الإلهي »[1] .

* * *

وقد تكرر الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم ، في آيات : البقرة ٣٤ ، الأعراف ١١ ، الحجر ٢٩ ، الإسراء ٦١ ، الكهف ٥٠ ، طه ١١٦ ، ص ٧٢ .

---

١ تفسير الذكر الحكيم : ١ / ٢٥٢ .

يلفتنا منها بوجه خاص ، آية الأعراف :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين » — ١١ .

بما تبيح لنا من الاطمئنان إلى أن نعتبر أبوةَ آدمَ للإنسان هي موضع هذا التكريم ، إذ أن الخطاب في صدر الآية عام لبني الإنسان . وهذا العموم مُستفاد من ضمير الجماعة للمخاطبين : « خلقناكم ثم صورناكم »

والسجود إذا كان لغير الله ، فليس معناه العبادة بالمصطلح الديني لمعنى السجود ، وإنما هو الخضوع ، على أصل الاستعمال اللغوي للمادة .

وبهذا المعنى تفسر آيات السجود لآدم ، أو للنوع الإنساني فيه .

ويفرق « الراغب الأصفهاني »[٢] بين ضربين من السجود لله : سجود باختيار وليس ذلك إلا للإنسان ، وبه يستحق الثواب . وسجود بتسخير ، وهو عام في المخلوقات :

« ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكةُ وهم لا يستكبرون » .

(النحل : ٤٩)

وانظر آيتي الرعد ١٥ ، والحج ١٨ .

وهذا السجود الاختياري ، مظهر من مظاهر الإرادة الحرة التي يحتمل الإنسان مسؤوليتها فيما يحتمل من أمانة إنسانيته .

* * *

---

١ مفردات القرآن : مادة سجد .

وقبل أن نتابع القصة ، نقف هنا لنستخلص من آيات البقرة في خلافة آدم في الأرض وأمر الملائكة بالسجود له ، ما تلفت اليه من أمور ثلاثة :

أولها : أن تكريم الإنسان الأول ، الذي تمثل في الأمر الإلهي بأن يسجد الملائكة له ، كان المسوغ الظاهر له في سياق الآية ، هو ما اختص به آدم من علم يختلف عن علم الملائكة الذي لا مجال فيه لميزة الكسب :

• سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا •

والثاني : أن أبوة آدم للنوع الإنساني ، هي موضع التكريم والاستخلاف في الأرض .

والثالث : أن الخلافة في الأرض اقتضاها ما يحتمل النوع الآدمي من أمانة إنسانيته ومسؤولية عمله وكسبه ، وتبعة الابتلاء التي أعفى منها الملائكة بالتسخير المطلق .

ويأتي الحديث عن هذه الأمانة الصعبة ، بعد أن نتدبر ما يتصل بعلم الإنسان من اختصاص بالبيان .

خَلَقَ الإنسَانَ ، عَلَّمَهُ البَيَان

« الرحمنُ . علّم القرآن . خلق
الإنسان . علّمه البيانَ »

(سورة الرحمن)

الآيات من سورة الرحمن ، مدنية ، وفيها لفت إلى اختصاص الإنسان بالبيان مع ربط سياقه بالقرآن ، معجزة النبي العربي عليه الصلاة والسلام .

وتأتي صيغة «بيان» في القرآن ثلاث مرات ، كلها في سياق يتصل بهذا القرآن الذي نزل على نبي أمي من العرب ، فأعياهم أن يأتوا بسورة من مثله .

والآيات الثلاث هي :

آية القيامة ١٩ : « فإذا قرأناه فاتّبِعْ قرآنَه . ثم إن علينا بيانَه » .

وآية آل عمران ١٣٨ : « هذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعِظة للمتقين» .

وآية الرحمن ٤ : « علّم القرآن . خلق الإنسانَ . علّمه البيانَ »

كما جاء المصدر بصيغة تبيان ، في آية النحل ، مفعولا لأجل تنزيل الكتاب :

« ونزلنا عليك الكتابَ تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ٨٩ .

وكل استعمال المادة (ب ي ن) بمختلف صيغها ، يدل دلالة صريحة على الوضوح والإبانة الكاشفة . ويأتي ذكر القرآن « كتاباً مبيّناً » كما توصف آياته تعالى بالبينات . والبينةُ : الحجة الواضحة الملزمة .

ومن هنا يختلف البيانُ عن مجرد النطق الصوتي ، وقد جاء المنطق مضافاً إلى الطير في آية النمل :

« وورِث سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناسُ عُلِّمْنا منطقَ الطيرِ وأوتينا من كل شيءٍ إن هذا لهو الفضلُ المبين » ١٦ .

واختلف اللغويون والمفسرون في وجه استعمال المنطق للطير : و «ابنُ سِيدَه» يستشهد بهذه الآية على أنَ المنطق قد يستعمل لغير الإنسان ، على حين يقول « الراغب الأصفهاني » في مفردات القرآن : «النطق .. الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان ، ولا يقال للحيوان ناطق إلا مُقيداً أو على التشبيه . كقول «جرير» :

* لقد نطق اليومَ الحمامُ لتطربا * »

والواقع أن العربية في توسعها المجازي ، تسيغ أن نقول : نطق الطير : ونطق الحيوان ، ونطق الصخر والجماد . بل قد نقول في اللوحة الفنية لرسام بارع : صورة ناطقة . كما نقول في التمثال المنحوت بمهارة من معدن أو حجر : تمثال ناطق .

لكن العربية لا تسيغ إسنادَ البيانِ ، بمفهومه الخاص ، إلى حيوان أعجم أو جماد ، ومن هنا كان اختيارُ لفظ «البيان» للمصطلح البلاغي من فن القول الذي هو من خصائص الإنسان وحده .

* * *

واختصاص الإنسان بالبيان في سورة الرحمن يرتبط بهذه المعجزة البيانية للنبي العربي . وبها ساير الدين تطور البشرية ، فكانت معجزة «موسى» مناسبة لعصر السحر ، وكانت معجزة «المسيح» الخارقة للعادة ، هي دليل نبوته في عصر الأبطال الذي اقترنت فيه البطولة بالخوارق .

وبزغ عصر الإنسان ، فكانت معجزة خاتم الأنبياء ، هذا البيان الذي يخاطب الحس المرهف والضمير الحي والبصيرة الواعية ، ويرقى بالبشرية

إلى المستوى الذي يُرجّى لها فيه أن تؤمن بكتاب مبين ، معجزة نبيّ أمي من البشر ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

* * *

ويأخذ البيان من حيث وضعه القرآن ، مكانته الأصيلة في إنسانية الإنسان . وقد جهد الفلاسفة والمفكرون في الوصول إلى خصوصية تميز النوع الإنساني من عموم جنسه في الحيوان ، فكان النطق هو هذه الخصوصية المميزة لنوعنا ، حين يستوي مع عامة الحيوان فيما تقوم به الحيوانية من طعام وشراب وتناسل ، وما تحتاج إليه من ضرورات البقاء المادي .

ومن ثم قالوا في تعريف الإنسان إنه «حيوان ناطق» واطمأن المناطقة إلى أنه تعريف جامع لكل أفراد الإنسان ، مانع لغيره من الحيوان الأعجم .

وإذ يعد القرآنُ البيانَ خاصيةً مميزة للإنسان عن عامة جنسه الحيواني ، فإنه يلفت إلى أن مجرد النطق الصوتي ليس مناطَ إنسانيته الناطقة . ونستأنس هنا بالآيات الست التي ورد فيها لفظ « البكم » حيث يتعين فيها جميعاً أن قيمة النطق ، أو السمع والبصر ، ليست في آلية هذه الأجهزة العضوية ..

فالحيوان في عمومه المطلق ، مزود كذلك بألسن ، وآذان وعيون ، وإنما مناطها في أن يكون منطق الإنساني بياناً ، وسمعه وعياً وإدراكاً ، وبصره تمييزاً وهُدى ، وإلا مُسخت إنسانية الإنسان فهبط إلى دونية الدواب العجماء :

«لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا

يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »
(الأعراف ١٧٩ :)

«ومثلُ الذين كفروا كمثلِ الذي ينعقُ بما لا يسمعُ إلا دعاءً ونداءً ، صُمٌ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون »
(البقرة : ١٧١)

« والذين كذبوا بآياتنا صُمٌ وبُكمٌ في الظلمات ».
(الأنعام : ٣٩)

« إن شرَّ الدوابِّ عند اللهِ الصمُ البُكمُ الذين لا يعقلون ».
(الأنفال : ٢٢)

ومعها آيات : البقرة ١٨ ، النحل ٧٦ ، الإسراء ٩٧ .

* * *

وإذا كان البيان في عمومه خاصاً بالإنسان الرشيد المميز الناطق المبين، فإن ارتباطه بمعجزة النبي العربي يتجه به إلى دلالة أخص بالعرب الذين اصطفى الله منهم نبي الإسلام ، وكانوا أول من تلقى آيات معجزته التي استُهلت بآية القراءة والعلم :

«اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ».

والعرب أهل بيان ...

لا يذكر التاريخ أنهم عرفوا فنا غيره من الفنون التي عرفتها شعوب أخرى قديمة ، كالموسيقى والنحت والتصوير والرسم والفن المعماري .

وكان حتماً أن يؤمن العرب برسالة نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، قبل أن يؤمن بها غيرهم من الأمم وليست العربية لغتهم .

لأن العرب بإيمانهم قادرون على أن يحملوا لواء الإسلام وينشروه في الآفاق .

وهم الذين يملكون قبل سواهم ، أن يدركوا إعجاز البيان القرآني .

والقرآن يخاطب العرب بلسانهم ، وقد أخذهم ببيانه المعجز فأسلم منهم من أسلموا بمجرد أن سمعوا كلماتٍ منه ، عن يقين بأنها ليست من قول البشر .

وكفر به كافرون عن عناد وضلال ، فما استطاعوا أن يقولوا فيه إلا أنه قولُ ساحر ، أو شاعر ، أو كاهن .

فكان هذا اعترافاً صريحاً بأن هذا البيان القرآني يملك قلوبهم ويسيطر على وجدانهم سيطرة لا عهد لهم بمثلها إلا في سلطان الشعر وأخذة السحر ونفوذ الكهان .

* * *

ونقول مع ذلك ، إن سلطان البيان لا تنفرد به لغة دون أخرى ، وإنما هو عام في اللغات الإنسانية .

وإذن فليس اختصاص الإنسان بالبيان محدوداً باقتداره عليه دون الحيوان الأعجم ، بل يتسع مفهوم ذلك الاختصاص ، فيشمل انفعال الإنسان بالبيان وتذوقه إياه ، وإدراكه لوقعه المسيطر على منافذ التأثير والوجدان .

وهو أداته في التعبير المبين ، ووسيلته إلى ممارسة قدرته على التفكير وأهليته للتعلم التي استحق بها أن يكون خليفة في الأرض .

أمانة الإنسان

« إنا عرَضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبيْنَ أن يحْمِلْنها وأشفقْنَ منها وحملها الإنسانُ إنه كان ظلوماً جهولا ».

(سورة الأحزاب)

حملُ الإنسان للأمانة ، من أخص ما يميز دلالة الإنسانية في البيان القرآني ، عن الإنسية أو البشرية .

بصريح إسناده إلى «الإنسان» دون الناس ، أو الإنس أو البشر .

وقد ورد لفظ «أمانة» بصيغة المفرد ، في آية كتابة الدَّيْن بسورة البقرة :

« وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرِهان مقبوضة ، فإن أمِن بعضُكم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتُمِن أمانته وليتقِّ اللهَ ربه ، ولا تكتموا الشهادةَ ومن يكتمْها فإنه آثمٌ قلبُه ، واللهُ بما تعلمون عليم » ٢٨٣ .

وجاءت «أمانات» جمعاً ، أربعَ مرات ، فيما للهِ والرسولِ أو للناسِ من حقوق .

« إن اللهَ يأمركم أن تُؤدوا الأماناتِ إلى أهلها وإذا حكمتُم بين الناسِ أن تحكموا بالعدل »

(النساء : ٥٨)

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون » .

(الأنفال : ٢٨)

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

(المؤمنون : ٨ ، والمعارج : ٢٢)

وانفردت أمانة الإنسان في آية الأحزاب ، بمجيئها بصيغة المفرد مع التعريف بِـ : ال ، على وجه الاختصاص .

فما هذه الأمانة الصعبة التي تصدى الإنسان لحملها وقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال ؟

اختلفت الأقوال في تأويلها [1] :

• خصها بعض المفسرين بآدم ، حمل الأمانةَ ثم لم يلبث أن عصى ربَّه فأخرج من الجنة . مع اختلافهم كذلك في تحديد مدة التجربة . فمن قائل :

« فما كان إلا قدر ما بين العصر والليل حتى أصاب الخطيئة »

وآخر يقول :

« فما لبث ما بين الظهر والعصر »

وثالث يقول :

فما مكث إلا قدرَ ما بين العصر إلى غروبِ الشمس » .

مع ما يبدو من حرص القرآن الكريم على عدم التعلق بمثل هذه الجزئيات التي لا شأن لها بجوهر الحادثِ ومناط العبرة !-

• وخصَّها بعضهم بقابيل : ائتمنه أبوه آدم على أهله وولده ، فما لبث أن خان الأمانةَ وقتل أخاه هابيل .

• وقيل : الأمانة الطاعةُ ، والفرائض ، وكلمةُ التوحيد ، والعدالة ، وحروفُ التهجي ، والعقلُ

واختار الطبري في تفسيره ، أن يعم بها جميعَ الأمانات في الدِّين ، وأمانات الناس .

واختار «الراغب الأصفهاني» العقلَ « فإنه الذي تتحصل به معرفةُ

---

١ انظر كل هذه الأقوال والتأويلات في تفسير الطبري : سورة الأحزاب . ولا يكاد ما في التفاسير الأخرى يخرج عنها .

التوحيد وتجري العدالة وتَعلم حروفُ التهجي وكل ما في طوق البشر تعلمه ، وفعلُ ما في طوقهم من الجميل . وبالعقل فُضِّل على كثير من خلقه » [١] .

واختار «الزمخشري» الطاعةَ ، مع تأويل الحملِ في معنى الإباء والنكوص [٢] .

• •

ونعرض كل هذه التأويلات على البيان القرآني ، فنرى أن تخصيص الأمانة بآدم مع ربطها بخروجه من الجنة ، يأباه سياق الآية في حمل الإنسانِ الأمانة ، بعمومٍ مُطلقٍ لا يقف عند ابتلاء آدمَ وخروجِه من الجنة .

وأوهى منه ، أن تُخَصّص الأمانة بقابيل ، خان ما ائتمنه عليه أبوه آدم . فالذي في الآية أن اللهَ هو الذي عرض الأمانة ، فحملها الإنسانُ . ولا يمكن أن نضع «آدم» مكان الله — سبحانه — ولا أن نضع «قابيل» مكان الإنسان .

وتأويل الأمانة بعموم الأمانات ، على ما اختار الطبري ، يرده أن الأمانة في آية الأحزاب متميزة بالإفراد والتعريف بـِ : ال ، والبيان القرآني حين اتجه إلى التعميم ذكر «أمانات» بصيغة الجمع ، في آيات (المؤمنون، والمعارج ، والأنفال) .

فعدول القرآن عن صيغة الجمع إلى «الأمانة» مفردة ، لا يسهل معه تأويلها بعموم الأمانات .

---

١ مفردات القرآن : مادة (أمن) .
٢ الكشاف : سورة الأحزاب .

وقصرُ الأمانة على العقل ، كما ذهب الراغب في (المفردات) ينفيه أن العقلَ وإن هدى إلى حمل الأمانة ، فليس مقبولاً أن يكون مرادفاً لها ، في حِس العربية المرهف الذي يجلوه البيان القرآني .

والقولُ بأن الأمانةَ هي الفرائض الدينية ، يرد عليه أن القرآن جاء برعاية الأمانات إخباراً عن المؤمنين ، في سياق يجمعها مع أداء الفرائض الدينية :

« الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم للزكاة فاعلون ...

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون » .

(المؤمنون ١ : ٩)

ومثلها سياق آية المعارج في الأمانات :

« إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ...

إلى قوله تعالى :

«والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون ».

(١٩ : ٣٤)

فشهد ذلك بأن الأمانات المرعية ، شيء غير الفرائض الدينية المؤداة : صلاة وزكاة وإيماناً بالله وباليوم الآخر ، واجتناباً لكبائر الإثم والفواحش .

وإذ نص القرآن الكريم في مواضع ورود أمانة وأمانات ، على ما هو لله منها وما هو للناس ، فقد تعين أن إفراد «الأمانة» ــ معرفة بِـ : ال ، في

آية الأحزاب ، والتصريح بحمل الإنسان لها ، في العموم المطلق للفظ الإنسان ، ومنه المؤمن وغير المؤمن ، تعين أن تكون الأمانة في مثل هذا السياق اختصاصاً مميزاً ، يتصدى لحملها الإنسان .

وتأويل « الأمانة » بالطاعة ، على ما ذهب إليه بعضهم ، يرد عليه مثلُ ما يرد على تأويلها بالفرائض الدينية .

ثم نحتاج بعد ذلك إلى تدبر لمعنى الحمل الذي أولوه بالخيانة ليستقيم لهم مذهبهم في تفسير الأمانة بالطاعة ، أي أن الإنسان بحمله الأمانةَ التي هي الطاعة ، قد تخلى عنها وخانها .

ونص عبارة القاموس : « وقوله تعالى : فأبين أن يحملنها ... وحملها الإنسان : أن يَخُنَّها وخانها الإنسان ، والإنسان هنا الكافر المنافق ».

ثم سكت صاحب القاموس فلم يوضح لنا كيف يكون الحملُ في اللغة خيانةً للأمانة ، وإباءُ الحملِ وفاءً بحقها .

و «الزمخشري» في الكشاف قال ما نصه :

« معنى أبين أن يحملنها وحملها الإنسان : فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها ».

ثم استطرد يشرح هذا الوجه من تأويل حمل الأمانة بإباء الطاعة ، فكانت خلاصة كلامه فيه أن الإنسان وحده هو الذي أطاق حملَ الأمانة فلم يؤدها ، على حين لم تطقها السموات والأرض والجبال فأدينها طاعةً وامتثالاً لأمر الخالق ، وتخلصن من عبء حملها .

ومع شعوري بالجفوة تجاه هذا التأويل ، أتوقف عن الحكم عليه حتى أعرضه في أناة على كل المواضع التي جاء فيها «الحمل» بمختلف صيغه في الكتاب المحكم ، لأرى ما إذا كان أي موضع منها يقبل تأويل الحمل بالخيانة والتخلي عن المحمول وعدم الوفاء بحقه ؟

وقد وردت مادة «حمل» في القرآن الكريم في ثلاثة وستين موضعاً ، منها سبعة عشر في حمل الأجنة» ، مثل آيات :

مريم ٢٢ : « فحملته فانتبذَتْ به مكاناً قصياً ».

لقمان ١٤ : « ووصَّينا الإنسانَ بوالديه حملته أمُّه وهْناً على وهن »

فاطر ١١ : « وما تحملُ من أنثى ولا تضعُ إلا بعلمه » .

ومعها : فصلت ٤٧

الطلاق ٤ : « وأولاتُ الأحمالِ أجلُهنَّ أن يضعن حملَهن »

ولا يمكن بأي وجه ، أن نؤول حملَ الأمهاتِ بخيانة أجنتهن التخلي عنها .

واستعمل القرآن الكريم الحملَ نحو ست وعشرين مرة ، بمعناه الحسي والمعهود المألوف ، في مثل آيات الطوفان :

«كذّبت قبلَهم قومُ نوح فكذبوا عبدَنا وقالوا مجنونٌ وازدُجِر . فدعا ربّه أني مغلوب فانتصِرْ . ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنهمِر . وفجّرنا الأرضَ عُيوناً فالتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدِرَ . وحمَلناه على ذاتِ ألواح ودُسُرٍ ».

(القمر ٩ : ١٣)

« قلنا احمِلْ فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلَك إلاّ من سبق القولُ ، ومَن آمنَ ، وما آمن معه إلا قليلٌ »

(هود : ٤٠)

« وآيةٌ لهم أنا حمَلنا ذريتَهم في الفُلْكِ المشحون »

(يس : ٤١)

« ذريةَ مَن حملنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكوراً ».

(الإسراء : ٣)

« إنا لمّا طغى الماءُ حملناكم في الجارية »

(الحاقة : ١١)

ومثل آيات :

يوسف ٧٢ : « ولِمَن جاء به حِملُ بَعير ».

مريم ٢٧ : « فأتتْ به قومَها تحمِلهُ قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فَريّا »

الإسراء ٧٠ : « ولقد كرَّمنا بني آدمَ وحملناهم في البر والبحر » .

الأنعام ٤٢ : « ومن الأنعام حَمولةً وفرشاً » .

النحل ٧ : « وتحمِلُ اثقالَكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفُسِ »

ولا يمكن أن يؤُول الحملُ في أي موضع منها ، بالنكوص عن العبء أو خيانة المحمول والتخلي عنه !

وجاءت المادة في الحمل المعنوي ، في نحو عشرين موضعاً ، مثل آيات :

البقرة ٢٨٦ : « لا يكلف الله نفَساً إلا وسعَها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربّنا لا تؤاخذْنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حملتَه على الذين من قبلنا ، ربّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به ... »

طه ١٠١ : « كذلك نَقُصُّ عليك من أنباءِ ما قد سبق ، وقد آتيناكَ من لدُنا ذكراً . مَن أعرض عنه فإنه يحملُ يومَ القيامةِ وِزراً . خالدين فيه وساء لهم يومَ القيامة حِملا ».

طه ١١١ : « وعنَت الوجوهُ للحيِّ القيوم وقد خاب مَن حمل ظلماً »

النساء ١١٢ : « ومَن يكسِبْ خطيئةً أو إثماً ثم يرمِ به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً »

العنكبوت ١٢، ١٣ : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلَنا ولنحملْ خطاياكم وما هُم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون . وليَحمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليُسألُنَّ يوم القيامة عما كانو يفترون »

النحل ٢٥ : « ليحملوا أوزارَهم كاملة يومَ القيامة ومن أوزارِ الذين يُضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزِرون » .

فهل يسوغ لنا أن نتأول حمل الوزر والإصر والخطيئة والبهتان والإثم ، بأنه نكوص عن ذلك كله ورفض لاحتمال تبعته ، فيسوغ لنا ، مِن ثَم ، أن نتأول حمل الخيانة بالتخلي عنها وخيانتها ؟!

ولنتدبر آية الجمعة في اليهود :

« مثلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحملوها كمثَلِ الحمارِ يَحمل أسفاراً »

لو ذهبنا إلى تأويل حملِ الإنسان الأمانةَ بأنه خيانة لها ، وتأويل إباء السموات والأرض والجبال أن يحملنها بالوفاء بحقها ، لجاز القولُ في آية الجمعة — والقرآنُ يفسر بعضه بعضاً — إن نفى حمل اليهود للتوراة وفاء منهم بحقها ! فهل هذا هو مثَل الحمار يحمل أسفاراً ؟ « بئس مثلُ الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين »

ولننظر كذلك في آية النور ٥٤ :

« قل أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ فإن تولَّوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم »

إنه سياق واحد في الآية الواحدة ، والاختلاف بين الموضعين ، ليس في دلالة لفظ التحميل ، وإنما هو التفاوت بين ما حُمل الرسول وما حُمل الذين تولوا .

فإن قال قائلون إن الحمل في آية الأمانة مختلف عن الحمل في كل الآيات التي ورد فيها في القرآن الكريم ، فإن منهجنا يأبى علينا أن نحمل تبعة تفسير القرآن بغير القرآن ، أو توجيه لفظ منه دون تتبع سياقه في كل مواضع وروده بالكتاب المحكم ، كيلا نتورط في شبهة وجود اختلاف فيه :

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

* * *

وعلى هذا المنهج ، أستبعد كذلك تأويلَ «الإنسان» في آية الأحزاب بالكافر أو المنافق ، فلا وجه إطلاقاً لهذا التخصيص ، والبيانُ القرآني يقضي بأنه مطلق الإنسان ، على مألوفِ استعمال الكتاب المحكم للفظ « الإنسان» معرفاً بـِ : ال ، لعموم جنسه .

الإنسان هو الذي تصدى لحمل الأمانة ، وقد أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال .

وواضح أن عرض هذه الأمانة عليهن ، وإشفاقهن منها وإباءهن

أن يحملنها ، إنما هو على سبيل المجاز ، بياناً لصعوبة الأمانة وباهظ عبئها .

وليست « الجمادية » في السموات والأرض والجبال هي مناط العبرة في العجز عن حمل الأمانة ، كما يذهب متأولون ، وإنما مناطها ما نرى من ضخامة أجرامها وطاقتها على الحمل والتحمل : فالسموات الرحبة المرفوعة بغير عَمَدٍ ترونها ، والأرض التي تحمل صلبَ الصخورِ وشاهقَ الجبال والمباني وملايين المخلوقات ، والجبالُ التي تأخذ الأبصار بشموخها وصلابتها ورسوها ورسوخها ، هذه جميعاً أشفقت من الأمانة وأبتْ حملَها ، وحملها هذا الإنسانُ ، وأين هو في ضآلة جرمه ومحدودِ طاقته ، بالقياس إلى السموات والأرض والجبال ؟

* * *

أفلا تكون هذه «الأمانة» هي الابتلاء بتبعة التكليف وحرية الإرادة ومسئولية الاختيار ؟

بلى !

فكل الكائنات عدا الإنسان ، مسيّرةٌ بمقتضى سنن كونية تخضع لها على وجه التسخير والامتثال ، دون تحمل لتبعة ما تعمل : فلو أن السموات قذفت الأرض بالصواعق ، وأمسكت ماء السحب فأتلفت الزرع والضرع من جدب وظمأ ؛ أو لو أنها جادت بالغيث فأحيت الأرض من بعد موتها ... لما كانت بحيث تُسأل عن شيء من هذا ومثله .

ولو أن الأرض زُلزلت فدمّرت الأحياء والقرى ، وقذفت من جوفها بالحمم واللهب فأهلكت وشردت ؛ أو لو أنها أخرجت من باطنها ثمين المعادن والزيوت فعمّرتْ وأغنتْ ...

ولو أن الجبال تهاوت وتصدّعت فقضت على بلدان كانت آمنة مطمئنة ...

لما حوسبت السموات والأرض والجبال على خير أو شر !

الإنسان وحده هو المسئول عن عمله ، المحاسَب عليه ثواباً وعقاباً ، لا يحمل أحدٌ عنه تبعةَ مسعاه ، ولا يفوتُ بغير جزاء ...

* * *

هذه هي الأمانة فيما اطمئن إليه ، بعد طولِ تأملٍ لآيتِها في البيان القرآني .

حملَها الإنسان ، مطلق الإنسان ، تحقيقاً لذاته وممارسة لخلافته في الأرض ، ولو كان قد قبِلَ التسخيرَ لأعفاه من المسئولية والحساب ، لكنه أبى إلا أن يحتمل أمانةَ إنسانيته ، وإن جهل خطرَها وقصّر في الوفاء التامّ بكل حقوقها « وكان الإنسانُ ظلوماً جهولا ».

وإيثارُ لفظِ الأمانة هنا ، على غيرها من ألفاظٍ يُظَن أنها مرادفة لها ، كالتكليف والمسئولية والتبعة والعهد ...

هذا الإيثار ملحوظٌ فيه حِسُّ العربية الأصيل للأمانة ، بما تعني من أمن الخوف وحذر الخيانة .

فالإنسان فيما يحمل من أمانة إنسانيته ، يخاف الخيانةَ وهو خاضع لرقابة خالقه ، مسئول أمام ضميره . ومِن هنا كانت مشقة الأمانة وصعوبتها إذ تلوح الفرص للإنسان مغرية بالنفاق تهرباً من المسئولية أمام الناس ، ومن ثم يتعرض لامتحان عسير وبلاء مبين .

والإيمان من الأمانة ، لكنه أخص منها بمجال العقيدة ، على حين تتسع دلالة الأمانة لمعنويات الإنسانية ، ومسئوليتها التي تأبى التسخير

وتتحمل تبعة الحرية والاختيار . وما أشقها من تبعة قلَّ فينا من يُقدِّر ثقلَ حملها ويدرك صعوبة الابتلاء بها ، وإن الإنسان لظلوم جهول !

وقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال ، وأعفاها التسخيرُ من المسئولية والحساب ، فما عادت بحيث توصف بجهل وظلم ، أو تُمتحن بنفاق وشرك ، أو تتعرض لجزاء من عقاب أو ثواب ...

ولا يعني قصورُ إدراك الإنسان لتبعة الأمانة ، أو تقصيرُه في أداء حقها على الوجه الأكمل ، أن يُؤثِر السلامةَ فيشفق من حمل الأمانة ويأباها ، بل لا بأس عليه من مخاطر الابتلاء وعثرات الجهل ، فإنما العبرة بصدق النية ويقظة الضمير وصحة الإيمان . ومجال التوبة مفتوح أمام الإنسان الذي يتعثر ويخطىء فتصهره التجربة ويهتدي بالخطأ إلى طريق الحق .

والإثم كل الإثم ، على من يخون الأمانة عمداً ، مجاهراً بالخيانة أو منافقاً يتقي حساب الناس ولا يتقي حسابَ الله والنفس اللوامة .

ومن هنا كان حمل الأمانة ابتلاء للإنسان :

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا . ليعذبَ اللهُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً ».

* * *

وليس من العسير أن نرى في حمل الإنسان الأمانة ، على هذا الوجه ، أثراً حتمياً للمكانة التي أقرها له الدين بخلافته في الأرض ، بما تقتضيه هذه الخلافة من حق التصرف وأهلية المسئولية ، وبما تلقيه على عقل الإنسان وضميره من تبعات جسام ، أُعفيتْ منها كلُّ الكائنـــات الأخرى .

لكن الوضع يظل غيرَ مفهوم ، إذا لم يقم على حق مقرر للإنسان في الحرية ، وهذه هي القضية التي نطيل التأمل فيها الآن ، في هَدْي القرآن الكريم .

حُرِّيَّةُ الإِنْسَان

- الحرية ، والرق
- حرية العقيدة
- حرية العقل والرأي
- حرية الإرادة

مضى القول في الأمانة التي حملها الإنسان بمقتضى خلافته في الأرض ، وأن هذا الوضع لا يمكن أن يُفهم أو يُتصور ، إذا لم يقم على حق أصيل مقرر في الحرية الإنسانية .

وإذا كان من المتعذر تناول قضية الحرية في أفقها العام الذي يلم بكل الجهود والدراسات فيها ، قديمة وحديثة ، شرقية وغربية .

فكذلك يبدو من الصعب أن أتناولها في دائرة الإسلامية التي جمعت رصيداً من بحوث الفقهاء والفلاسفة وأعلام الفكر الإسلامي ، ومن ثم أقتصر على تناول القضية فيما يهدى إليه القرآن الكريم من جوهر الفكرة الإسلامية عن الحرية .

* * *

والقضية ذات شُعب ، منها ما يتصل بالحرية العامة المناقضة للرق ، ثم حرية الاعتقاد ، وحرية الفكر والرأي ، وحرية الإرادة .

وإيرادُها على هذا الترتيب ، قد يبدو ملحوظاً فيه أن حرية الإنسان المناقضة للرق ، هي أدنى المراتب التي تتقرر للإنسان بمجرد مولده إنساناً ، تليها حرية الاعتقاد وحرية الفكر ، وهما من لوازم إنسانيته وتكاليف رُشدِه ، ثم حرية الإرادة وهي أصعب عنصر من عناصر القضية ، وإن كانت الأساسَ الذي يقوم عليه حملُ الإنسان أمانته ، وأهليتُه للخلافة في الأرض .

والحقُّ أن الحرية كلٌّ لا يتجزأ ، فإن تكن البشرية قد استطاعت بعد

نضالٍ طويل أن تعلن تحرر الإنسان من أغلال الرق المهدر للآدمية ، فلا يزال عليها أن تناضل طويلاً من أجل استكمال وجودها الحر ، بتحرير العقيدة والعقل والإرادة .

مدركةً أن حرية الإنسان كلٌ لا يتجزأ ، وأي مساس بجانب منها عدوان على شرفِ الإنسان وتعطيلٌ لمسئولية أمانته .

ثم إن عليها أن تناضل طويلاً ، لتحرير مفهوم الحرية من شوائب المسخ ، كيلا يلتبس بالفوضى والتحلل ، ولكي يرسخ الإيمان بأن هذه الحرية ليست منحة وعطاء ، وإنما هي فرض مقرر على كل قادر على حتمال تبعاتها الجسام ، أهل للاضطلاع بمسئوليتها الباهظة .

الحُرّيَّة.. وَالـرِّق

« ما كان لبشر أن يؤتيَه اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ ، ثم يقول للناسِ كونوا عباداً لي من دونِ الله »

(سورة آل عمران)

وحق الحرية من الرق يتقرر أصلاً ، بأن جوهر الدين كله هو عبادة الله وحده لا نشرك بعبادته أحدا .

وإذا كانت البشرية المتدينة قد تورطت قبل الإسلام في شبهة الشرك بتأليهها الرسل ، أثراً من ميراثها المتخلف من عصر عبادة الأبطال البديل لعصرِ تعدُّدِ الآلهة ، فإن كتاب الإسلام فيما استصفى من جوهر العقيدة في الرسالات التي جاء خاتماً ومصدقاً لها ، قد تشدد في تقرير المساواة التامة المطلقة بين البشر ؛ فهم جميعاً سواء ، خلقوا من نفس واحدة .

« يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء .... »

(النساء : ١)

ــ وانظر معها آيات : الأنعام ٩٨ ، الأعراف ١٨٩ ، الزمر ٦ .

كما تتقرر البشرية بين الناس جميعاً على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة ، في عدد من الآيات المحكمات ، نقلناها في الحديث عن بشرية الرسل .

وبهذه المساواة بين الناس ، والمماثلة في بشريتهم جميعاً ، لا يدع الإسلام سبيلاً إلى أن يكون لبشرٍ حقٌّ استرقاق بشرٍ مثله ، ويحمي الإنسانيةَ من رواسب ميراثها القديم في عبادة المخلوقين ، وإنما العبودية لله وحده .

وليس لأحد — من كان — أن ينتحلَ صفة الربوبية فيستعبد الناس وقد خلقهم اللهُ من نفس واحدة ، وهم جميعاً عباد الله .

وليس لقوم أو جنس أن يزعموا الحق في استعباد قوم غيرهم بدعوى تفاضل بالقوة أو التمدن أو الثراء ، أو بدعوى حق إلهي مزعوم في أنهم الصفوة المختارة من خلق الله ، وهي دعوى انتحلها من قديم من زعموا أنهم شعب الله المختار ، ونقضها كتاب الإسلام بآية المائدة ١٨ :

« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبِكم بل أنتم بشرٌ ممن خلَق ... »

كما أسقَطَ التفاضلَ بين الأفراد والشعوب بغيرِ التقوى والعمل الصالح :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارَفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ».

(الحجرات : ١٣)

* * *

ومع هذا التقرير لحق الإنسان في الحرية ، لا يعبد إلا خالقه ، واجه الإسلام في زمن المبعث ، مجتمعاً متصدعاً بطبقية ضارية ، عمادُها استرقاق الأرستقراطية المعتزة بجاهها ومالها ، للموالي من الأسرى والعبيد الذين لا يجري في عروقهم الدم العربي الخالص . وبدت المشكلة عَصِيَّةً على الحلِّ الواقعي الذي يقوض بناء اجتماعياً رسخته تقاليد موروثة وأعراف مقررة . ومع ذلك ، لم يكد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يجهر بدعوته ويتلو آيات من وحي ربه ، حتى أدركت الطبقة المستضعفة أن الدين الجديد هو ملاذها من محنة الرق الذي أهدر إنسانيتها .

* * *

ومؤرخو الحضارة الإنسانية ، قد شهدوا للإسلام بأن وضع الرق فيه كان أهون من وضعه لدى أمم سابقة ، كالرومان واليونان والفرس . غير أني لا ألوذ بشيء من هذه المقارنة في الحديث عن القرآن والرق ، وإنما ألوذ بموقف القرآن تجاه هذه المأساة البشعة ، وأستطيع أن أقول وأنا مطمئنة تماماً ، إن كتاب الإسلام لم يكتف في مواجهة المأساة بتقرير المساواة بين الناس جميعاً وتحريم العبودية لغير الله وحده ، وهذا هو جوهر الدين كله .

وإنما عمد إلى إغلاق المنفذ الجديد من الاسترقاق من ناحية ، وإلى تصفية الرق القائم ، في عصر المبعث ، من ناحية أخرى .

فأما إغلاقُ المنفذِ للرق ، فالمعروف أن أسرى الحرب والقتال كانوا الموردَ الأكبر للرقيق . وتشهد آية محمد ، أن كتاب الإسلام لا يجيز الأسرَ في قتال الكفار ، وإنما يخيِّر المسلمين حين النصر ، بين أمرين لا ثالث لهما : المَنِّ على الأسرى ، أو قبولِ الفدية فيهم :

« فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوثاقَ فإما منّاً بعدُ وإما فداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارها ، ذلك ولو يشاءُ اللهُ لانتصر منهم ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض ، والذين قُتلوا في سبيل اللهِ فلن يُضِلَّ أعمالهم »

والآية نزلت في العهد المدني الذي اتجهت فيه عناية القرآن إلى التشريع ، بعد أن اتجهت في العهد المكي إلى تقرير أصول الدعوة وجوهر الدين .

ولا أقف هنا عند قولٍ لبعض المفسرين بأن الآية نُسِخَتْ ، مع

أن من أئمة المفسرين السابقين كالطبري ، من قرر أن الآية «محكمة لم تنسخ » .

وإذ قال كتاب الإسلام في أسرى الحرب . « فإمّا منّاً بعدُ وإما فداء».

ولم يقل الثالثة : وإما أسراً واسترقاقاً .

فقد سد بذلك المنفذ الأكبر للرق ، وأعفى الإنسانية من مورد له جديد متصل ...

وفي تصفية الرق القائم ، بدأ القرآن في العهد المكي المبكر ، فحض الإنسان على اقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنساني الحر . ونص على أن المرحلة الأولى لاقتحام العقبة ، هي فك الرقاب المصفّدة بأغلال الرق ، دون أن يقيّدَ هذا الفكّ بكفارة من ذنب . فذلك قوله تعالى في «سورة البلد» التي تستهل باللفت إلى أوضاع اجتماعية مريضة فاسدة في البلد الحرام ، توارثها خلف عن سلف ، وأسلمها والد إلى ولد ، ثم بيان غرور الإنسان بماله وقوته ، وقد تهيأ له من وسائل التمييز والبصر ما يهديه إلى طريقي الخير والشر :

«فلا اقتحم العقبةَ . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ».

هذه هي العقبة التي ينبغي أن يقتحمها الإنسان احتمالاً لأمانة إنسانيته قد بينها القرآن الكريم على ترتيب درجاتها ومراحلها : تحرير الرقاب ، والتكافل الاجتماعي ، ثم الإيمان بالله وأداء حق الجماعة في التواصي بالصبر على تكاليف الإنسانية ، والتواصي بالمرحمة .

ومن المفسرين من توقفوا عند هذا الترتيب في آيات العقبة ، فلم يطمئنوا إلى صريح سياق النص ، والإيمانُ فيه يأتي بعد فكِّ رقبةٍ وإطعامِ يتيمٍ ومسكين . وذهبوا مذاهبَ شتى في صرف «ثم» عن معناها اللغوي [1]...

وسياق الآيات صريح في تقديم «فك رقبة» ويؤنس إليه ما في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :

«أرأيتَ الذي يُكذِّب بالدين . فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم . ولا يَحُض على طعام المسكين . فويلٌ للمُصَلّينَ . الذين هم عن صلاتِهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون ».

ومثل سورتي التكاثر والهمزة ، وسورة العصر التي تأتي تكاليف الإنسان فيها ومسئوليته الاجتماعية ، قرين بالإيمان بالله . وكلها سور مكية .

ثم في العهد المدني الذي اتجهت فيه العناية إلى التشريع ، أخذ وضع الرق من هذه العناية ما يؤكد حرص الإسلام على تصفية الرق القائم .

وقد بدأ العهد المدني بسورة البقرة وفيها آية البر :

«ليس البرُّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ، ولكن البرَّ من آمن باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ على حبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين وفي الرقاب . وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفون بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحينَ البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ».
(١٧٧)

---

١ انظر هذه التأويلات ومناقشتي لها في تفسير سورة البلد من كتاب (التفسير البياني للقرآن الكريم) الجزء الأول ، ط المعارف بالقاهرة .

ومعه : « سر الحرف » من كتاب (الإعجاز البياني) ، ط دار المعارف ١٩٧١ .

ثم حدد كتابُ الإسلام مصارفَ الصدقات — وهي مصدر الإيراد لبيت المال — فجعلها ثمانية ، من بينها تحرير الرقاب :

«إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضةٌ من الله والله عليم حكيم » .

(التوبة : ٦٠)

وفرض الإسلام على المؤمن ، تحريرَ رقبةٍ كفارةً لعدد من الذنوب :

الحلف في الإيمان : المائدة ٨٩

والقتل الخطأ : النساء ٩٢

والظِّهار : المجادلة ٣

والبيان القرآني ، حين يتحدث عن تحرير العبيد فيذكر الرقاب بصيغة الجمع ، فمسئولية التحرير فيها على الجماعة وولي الأمر ، والعبء فيها على المال العام للمسلمين .

أما حين يستعمل «الرقبة» بصيغة المفردَ ، فهذه هي مسئولية الإنسان فرداً ، إما احتمالاً لأمانة إنسانيته واقتحاماً للعقبة في سبيل تحقيق الوجود الحر ، (سورة البلد)، وإما كفارة عن ذنب . يطرد ذلك ولا يتخلف حيثما استعمل القرآن لفظ رقبة في تحرير العبيد .

وفي هذا الاستقراء ، إيذان صريح بأن كتاب الإسلام في تصفيته لوضع الرقِ القائم عصر نزوله ، ألقى على الإنسان تبعته من هذا التكليف فترك الحالاتِ الفرديةَ تُصفّى عن طريق الأفراد ، أما الرقيق من حيث هم طبقةٌ في المجتمع ، فألقى تبعة تحريرهم وفك رقابهم على ولاة الأمر ، والعبء على بيت المال .

* * *

لي إذن أن أقرر :

أن الإسلام من حيث المبدأ ، نقض الرقّ أساساً ، بتحريم عبودية الإنسان لغير خالقه .

وفيما يتصل بالوضع الذي كان قائماً ، سدّ البابَ الذي يدخل منه الرق ، بالنصّ علي التخيير في أسرى الحرب بين المن والفداء . ثم عمد إلى تصفية الرقيق ، بإلزام بيت المال بتحرير الرقاب ، من حيث هي طبقة ، وتشريع فك الرقبة في الحالات الفردية ، كفارة عن عدد من الذنوب منصوص عليها في كتاب الإسلام .

كما شرع المكاتبة ، منفذاً آخر لتصفية الرق القائم ، فإذا رغب العبد إلى سيده في أن يحرره نظيرَ مبلغ من المال يكتبُه العبدُ على نفسه ، وجب شرعاً أن يجاب إلى ما ابتغى ، وعلى الذين آتاهم الله من ماله ، أن يؤتوا راغبي الحرية من مال الله ، ليعينوهم على فك رقابهم :

« ... والذين يبتغون الكتابَ مما ملكتْ أيمانُكم فكاتِبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم .. »

(النور : ٣٣)

وفي النص على أن المالَ مالُ الله ، ما يفسح المجال أمام الإنسانية المتدينة ، لحل مشكلة المال التي هي عصب المذاهب المعاصرة .

* * *

ويلحظ في البيان القرآني ، أنه وإن استعمل لفظ «عبد» للرقيق في آية البقرة :

« ولعبدٌ مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ».

فقد استعمل اللفظ نفسه لأفضل الناس ، وهم الأنبياء وصفوة المؤمنين :

نوح : « كان عبداً شكوراً ».

وسليمان : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ».

وأيوب : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسّني الشيطان بنُصْب وعذاب ».

وابن مريم : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » .

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ».

ومحمد : « وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لُبدا » .

ولم يستعمل القرآن لفظ «العبيد» في الرقيق ، وهي الصيغة الخاصة بجمع عبد ، وإنما يأتي لفظ العبيد للمخلوقين «وما ربك بظلام للعبيد»

(١٨٢ آل‌عمران ، ٥١ الأنفال ، ١٠ الحج ، ٤٦ فصلت ، ٢٩ ق)

فكأن القرآن قد تحاشى تخصيص «العبيد» للرقيق ، واستعمل في جمعهم صيغة «عباد» في آية النور ٣٢ :

«وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادِكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراءَ يُغنهم الله من فضله والله واسع عليم ».

وهذه الصيغة «عباد» تأتي كذلك في البيان القرآني ، للصفوة من عباده تعالى ، من ملائكة وأنبياء وعلماء ومؤمنين أتقياء .

وهو ملحظ كريم لا يفوت من ينظر في موقف القرآن من الرق ، بعد الذي ذكرنا من نقضه مبدئياً بتحريم العبودية لغير الله ، وما قدمنا من سده لمورد الرقيق وتصفيته للقائم منه .

وإلى أن تتم التصفية ، شرّع القرآن الأحكام الخاصة بالعبادِ والإماء ، ممن يفوتهم فكُّ رقابهم . لئلا يُتركوا للهوى والهوان .

* * *

وإذا كان الاسترقاق بقي في المجتمع الإسلامي ، على عهد الرسول والصحابة ، فلست أشك ، بما أعي من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين ، أن الرق كان في طريقه إلى التصفية ، لولا ما طرأ على الأمة الإسلامية ، ابتداءً من العصر الأموي ، من ظروفٍ وأوضاع ضيعتْ على الإنسانية تلك الفرصة التي أتاحها لها كتابُ الإسلام ، لتخليصها من مهانة الرق .

حُرِّيَّةُ العَقِيدَة

« ولو شاء ربك لآمنَ مَن في الأرضِ كلّهم جميعاً، أفأنت تُكره الناس حتّى يكونوا مؤمنين »

(سورة يونس)

« لا إكراهَ في الدينِ قد تبيّنَ الرُّشْدُ من الغَيّ »

(سورة البقرة)

قضية الصراع الديني والخصومة المذهبية ، قديمة موغلة في أعماق الزمن ، تلقاها عصرنا فيما تلقى من تركة العصور الخوالي ، بعد أن تضخم ميراثها من الضحايا والأحقاد . وشهد التاريخ أن البشرية لم تروَّع بمثل ما رُوعت به مما جنى على الناس التعصب الديني والخلاف المذهبي الذي مزق أصحاب الدين الواحد طوائف وشيعاً ، وأوقد بينها نار العداوة والبغضاء !

وتلقى عصرنا مع هذه التركةِ المثقلةِ بالمآسي ، المشحونة بالفواجع ، أملَ الإنسانية المتدينة في التسامح والتقارب بين مختلف الأديان ، تقريراً لحرية العقيدة وتفادياً لمزيد من الضحايا .

وهو أمل استشرف له الإنسان ، منذ جاءته رسالة الإسلام ، ختاماً لرسالات الدين .

* * *

والفكرة العامة عن تسامح الإسلام واحترامه لحرية الاعتقاد والتدين ، لا تكفي لبيان الأفق الرحب العالي الذي استشرف بالإنسانية إليه .

فالحق أن الإسلام في إقراره لحرية التدين ، يفرضها على المؤمنين به تكليفاً ويلزمهم بها ، تجاه غيرهم ، ديناً وعقيدة وسلوكاً ، لا لمجرد التسامح أو المجاملة والمسالمة .

وهو يبدأ أول ما يبدأ ، فيأخذ الرسول الكريم بهذا المبدأ ، اتقاء لما قد يدفعه الإيمان من أخذ الناس قسراً بالدين الحق ، وهو ما يأباه

الإسلام نصّاً وروحاً ، إلزاماً للإنسان بحمل الأمانة ، ولأن العقيدة لا تكون عقيدة حتّى تصدر عن اعتقاد ، والإيمان لا يكون إيماناً حتّى ينبع من القلب والضمير عن رضى خالص وطمأنينة صادقة . ولا خيرَ في كلمة ينطق بها اللسان زوراً ويكفر بها القلب ، فذلك هو النفاق الذي يعده الإسلام شراً من الكفر الصريح .

وفي العهد المكي نزلت آية يونس ، خطاباً لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام :

« ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تُكره الناسَ حتّى يكونوا مؤمنين ».

(٩٩)

وبعدها ، في مستهل العهد المدني ، نزلت آية البقرة تقرر أصلَ التشريع :

« لا إكراهَ في الدين قد تبين الرشدُ من الغيّ »

(٢٥٦)

وهذا الإقرار لحرية الاعتقاد ، يلقي على الإنسان تبعة اختياره ويحمله مسئولية حريته . ومن هنا كان تأكيد القرآن لمهمة الرسول ، وأن ليس عليه إلا أن يبلغ رسالته :

« فإن أسلموا فقد اهتدَوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغُ والله بصير بالعباد » .

(آل عمران : ٢٠)

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن

ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرُسلِ إلا البلاغُ المبين »؟

(النحل : ٣٥)

« فإن توليتُم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين »

(المائدة : ٩٢)

ويتكرر هذا القصر لمهمة الرسول على البلاغ ، في القرآن الكريم ، أكثر من عشر مرات ، محدداً موقفه من المكذبين والمعرضين ، بما يؤصل المبدأ الإسلامي في حرية الاعتقاد :

« فإن أعرضوا فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغُ ...»

(الشورى : ٤٨)

ويقدر القرآن الكريم ما في أخذ الرسول بهذا المبدأ من صعوبة ومشقة، إذ يحزنه عليه الصلاة والسلام الا يؤمن الناس جميعاً بما بُعِثَ به من الدين الحق ، ويضيق صدره بمن يكذبونه ويعرضون عنه .. ولكن هذه المشقة البالغة ليست إلا بعض ما يجب أن يحتمله من أعباء رسالته ، ، وقد أمِر ألا يُكرِه أحداً على الإيمان ، وأن يدعوَ إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادل المرتابين والكفار والمشركين بالتي هي أحسن ، إلا ان يبغوا ويعتدوا ، وقبل أن يشرع القتالُ دفاعاً عن الإسلام ، وإقراراً لحق معتنقيه في حرية العقيدة .

تلقى الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الآيات البينات :

« قلْ يا أيها الكافرون . لا أعبدُ ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما

أعبد . ولا أنا عابدٌ ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينُكم وَلِيَ دينِ »

(الكافرون)

«ولا تَحزنْ عليهم ولا تَكُ في ضيقٍ مما يمكرون »

(النحل : ١٢٧)

«فاصدعْ بما تؤمَرُ وأعرضْ عن المشركين »

(الحجر : ٩٤)

«ولقد نعلمُ أنك يضيقُ صدرُك بما يقولون . فسبِّحْ بحمدِ ربِّك وكن من الساجدين »

(الحجر ٩٧ : ٩٨)

«قد نعلمُ إنه لَيحزُنُك الذي يقولون ، فإنهم لا يُكذبونك ولكنَّ الظالمين بآيات اللهِ يَجحَدون . ولقد كُذبتْ رُسُلٌ من قبلِك فصَبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرُنا . ولا مبدِّلَ لكلماتِ اللهِ ولقد جاءك من نبأِ المرسَلين . وإن كان كَبُر عليك إعراضُهم فإن استطعتَ أن تبْتغِي نَفقاً في الأرض أو سُلّماً في السماء فتأتيَهم بآية ، ولو شاء اللهُ لَجمعهم على الهدَى فلا تكونَنَّ من الجاهلين »

(الأنعام ٣٣ : ٣٥)

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظة والحسنةِ وجادلْهم بالتي هي أحسنُ إن ربّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيلهِ وهو أعلَمُ بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثلِ ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين . واصبرْ وما صبرُك إلا باللهِ ولا تحزنْ عليهم ولا تكُ في ضيقٍ مما يمكرون » .

(النحل ١٢٥ : ١٢٧) ..

* * *

ونَنظر في موقف الإسلام من الرسالات الدينية قبله ، فنراه لا يكتفي بالاعتراف لمعتنقيها بحرية التدين ، بل يُلزم المسلمين أن يُقروا بنبوة كل الرسل ، ديناً وعقيدة لا لمجرد التسامح أو المسالمة . كما يُلزمهم أن يؤمنوا بأن الإسلام مصدق لما بين يديه من رسالات الله :

« نَزَّلَ عليك الكتابَ بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه وأنزل التوراةَ والإنجيلَ مِن قبلُ هدى للناس وأنزل الفرقان ».

(آل عمران ٣ : ٤)

« والذي أوحينا إليكَ من الكتابِ هو الحقُّ مصدِّقاً لما بين يديه ، إن اللهَ بعبادِه لَخبيرٌ بصير ».

(فاطر : ٣١)

« إنا أنزلنا التوراةَ فيها هدى ونور ..»

« وقفّينا على آثارِهم بعيسى بنِ مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونور ...»

« وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدقاً لما بين يديه من الكتابِ ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل اللهُ ...»

(المائدة ٤٦ : ٤٨)

(وانظر معها آيات : البقرة ٩١ ، ٩٧ والنساء ٤٦ ، والأحقاف ٣٠) .

* * *

ومع اعتراف الإسلام بكل رسالات الدين التي سبقته ، وتقريره أنه مصدق لها ، وتأكيده لمبدأ حرية التدين ...

مع هذا كله ، فإنه في رياضته للبشرية على تحقيق وجودها الأسمى، استشرف بها إلى غاية تبدو بعيدة ، وأفسح لها مجالَ الطموح إلى الوحدة الجامعة ، تلتقي فيها الإنسانية المتدينة على الإيمان بالله ، لا تُفرق بين أحد من رسله .

ولم يأت «الدينُ» في القرآن الكريم ، بصيغة الجمع «أديان» على الاطلاق وإنما هو دين واحد . وقد تعددت رسالاته ورسله . والذي تلقاه خاتم الرسل هو في جوهره ما تلقاه الرسلُ من قبلهُ :

« ما يقالُ لك إلا ما قد قيل للرسلِ من قبلِك »

(فصلت : ٤٣)

« ولا تُجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذي أُنزِل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهُنا وإلهُكم واحدٌ ونحن له مسلمون ».

(العنكبوت : ٤٦)

ثم يبين منهاج الدعوة إلى هذه الوحدة الجامعة ، في مثل هذه الآيات :

« قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ ، فإن تَولَّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ».

« يا أهل الكتابِ لمَ تكفرون بآياتِ اللهِ وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ».

(آل عمران : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١)

* * *

وإذا لم تكن طاقة البشرية فيما مضى قد أسعفت على الاستجابة لتلك الدعوة ، فإن القرآن الكريم لم يرضَ لها واقعَها ، بل أغراها بمثالية رفيعة تظل دائبة السعي نحوها والتطلع إليها .

ومهما تبدُ الغاية بعيدة والمرتقى صعباً ، فإن للإنسانية المتدينة من هدى الإسلام ما يغلب دواعي اليأس والقنوط ، وفيها هذه الآيات التي تلاها خاتم الأنبياء منذ نحو أربعة عشر قرناً من الزمان :

« شرع لكم من الدين ما وَصّى به نوحاً والذي أوحينا إليكَ وما وصيّنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » .

(الشورى : ١٣)

« قل آمنّا باللهِ وما أُنزِل علينا وما أُنزِل على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربِّهم لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ».

(آل عمران : ٨٤ ومعها آية البقرة : ١٣٦)

« إن الذين يكفرون بالله ورسلِه ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسلِه ، ويقولون نؤمنُ ببعض ونكفرُ ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقّاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسلِه ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورَهم وكان الله غفوراً رحيما ».

(النساء ١٥٠ : ١٥٢)

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كلٌّ آمن بالله

وملائِكته وكتبِه ورسلِه لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانَك ربّنا وإليك المَصير ».

(البقرة : ٢٨٥)

* * *

بمثل ذلك الإصرار ، أكد كتاب الإسلام أن الحقيقة في الدين واحدة يمكن أن يلتقي عندها المتدينون جميعاً فوق أحقاد التعصب وفواصل الخلاف .

وذلك مما يدخل في حسابِ علم الاجتماع الديني . آيةٌ من آيات عالمية الإسلام وخلوده ...

وقد شُرع القتال في الإسلام ، دفاعاً عن الدين الإسلامي وتأميناً لحق معتنقيه في حرية العقيدة ، وحمايةً لبيوت العبادة على اختلاف الدين ، من أنْ تَهدمها الوثنية الكافرة :

« أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرِجوا من ديارهم بغيرِ حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لَهدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرَ فيها اسمُ اللهِ كثيراً ، ولينصُرَنَّ اللهُ من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز . الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكرِ وللهِ عاقبةُ الأمور ».

(الحج ٣٩ ؛ ٤٠)

والقتال ، دفاعاً عن حرية العقيدة ، لم يبدأ إلا في السنة الثانية للهجرة ، وظلت مع ذلك توجيهات الوحي تحمي نبي الإسلام عليه الصلاة

والسلام والذين آمنوا معه ، من التورط في إكراه غيرهم على الإسلام ، وتأمرهم بمسالمة من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم .

من تلك التوجيهات ، آية الأنفال وهي ثاني سورة نزلت بالمدينة :

« وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل تُرهِبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللهُ يعلمهم ، وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلْم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم » — ٦١ .

وآية الممتحنة ، وهي مَدنية كذلك نزلت بعد الأحزاب :

« لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدينِ ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقسطوا إليهم إن الله يُحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهَروا على إخراجكم أن تَولَّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ».

ثم ، في آخر العهد المدني ، قبل أن يختم الوحي بسورة النصر ، نزلت سورة التوبة وفيها هذا التوجيه القرآني للرسول عليه الصلاة والسلام :

« وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »

* * *

ومن تحرير الإسلام ، ختام الدين ، لعقيدة الإنسان ، إبطالُه سلطةَ الكهنوتية التي تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم ، بما أخذت من صفة الوساطة بين العبد المتدين وخالقه ، وما ادعت من سلطة إلهية تمنح بها صكوك الغفران أو تصدر قرار التكفير والحرمان !

وذلك ما أبطله الإسلام فلم يأذن لأحد أن يتوسط بين العبد وخالقه :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدُون ».

(البقرة : ١٨٦)

« وهو الذي يقبلُ التوبةَ من عبادِه ويعفو عن السيئات ».

(الشورى : ٢٥)

« وإني لغفّار لمن تابَ وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى »

(طه : ٨٢)

كما ليس لأحد أن يوزع بطاقات دخول إلى الجنة والنار ، أو يحدد لمخلوقٍ مثله مكانه في الدار الآخرة . فهو سبحانه الذي يدري أين يضع رحمتَه . والرسولُ المصطفى نفسه لم يكن له شيء من هذه الحقوق الإلهية التي ينتحلها فينا ناسٌ تسلطوا على خلق الله بكهنوتية أبطلها الإسلام .

في مستهل الوحي . نزلت سورة القلم . ثاني السور على المشهور في ترتيب النزول ، وفيها الآية المحكمة :

« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

وبعدها نزلت آية النجم ، خطاباً لخاتم الأنبياء :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرِنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا . ذلك مبلغُهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

وآية النحل ، مكية كذلك :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي

أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

* * *

ولعل عداء بعض المذاهب المحدثة للدين ، إنما نشأ أصلاً بسبب ما انتحله رجالُ الدين فيهم من سلطة كهنوتية آزرت باسم الدين البغي والاستغلال ، وهادنت الرجعية والفساد والطغيان ، واستنزفت أموال المتدينين الكادحين ، ثمناً للمغفرة أو فدية من غضب الله !

ومن عجب أن حركة الإصلاح الديني التي قام بها «مارتن لوثر» تأثرت بمبادىء الإسلام في مثل إبطال الكهنوتية وتحريمَ صكوك الغفران[1] ، ثم يكون من بيننا من يمارس هذا الحق المزعوم في أمة مسلمة ، فيزعم لنفسه وصاية على الجنة والنار ، وينتحل من سلطة الغفران والحرمان ما استأثر به الله سبحانه ، لم يعطه أحداً من رسله ، فضلاً عن أن يعطيه غيرهم ممن الناس :

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » .

(المائدة : ٤٠)

ويتكرر عقد المغفرة والتعذيب بمشيئة الله في آيات بينات من كتاب الإسلام ، نتلوها نحن المسلمين ونتلو معها من كلمات الله مثل آيات :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ».

(النساء ٤٨ : ١١٦)

---

١ اقرأ في هذا « صلة الإسلام باصلاح المسيحية » وهو بحث قدمه « أستاذنا أمين الخولي »بالألمانية إلى مؤتمر تاريخ الأديان في بروكسل سنة ١٩٣٥ — ونشره الأزهر مترجماً إلى العربية .

« قل يا عباديَّ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمةِ الله . إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ».

(الزمر : ٥٣)

فأنى لأحد أن ينتحل فينا هذا الحق ، وكتاب الإسلام قد رفع عن الإنسان إصرَّ تلك الكهنوتية ، تقريراً لحرية عقيدته وضميره وعقله :

« وكذّب به قومك وهو الحق ، قل لستُ عليكم بوكيل ».

«ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل » .

(الأنعام ٦١ : ١٠٧)

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ».

(الزمر : ٤١)

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ، اللهُ حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » .

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ».

(الشورى ٦ : ٤٨)

« فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ».

(الغاشية : ٢٢)

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً».

(النساء : ٨٠)

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ».

(الأنعام : ١٠٤)

* * *

وكتاب الإسلام يمضي في رفض الكهنوتية ، إلى المدى الذي لا يغني فيه استغفار الرسول المصطفى للمشركين والمنافقين من قومه ، كما لم يغن استغفار إبراهيم الخليل لأبيه .

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ».

« ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ؛ فلما تبين له أنه عدوٌّ اللهِ تبرأ منه ، إن إبراهيم لأوّاه حليم ».

(التوبة ٨٠ : ١١٣)

وحق الشفاعة عند الله ، معلق بإذنه تعالى ورضاه ، بصريح الآيات المحكمات .

«... وخَشَعت الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا همساً . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ».

(طه : ١٠٩)

« ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » .

(يونس : ٣)

« قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له . ».

(سبأ : ٢٣)

« وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً ، سبحانه بل عِبادٌ مكرَمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يَشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ..»

(الأنبياء : ٢٨)

« له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه » .

(البقرة : ٢٥٥)

فإذا لم يأذن سبحانه ، فهيهات لأحدٍ من شفيع ، وهيهات أن تُجديَ شفاعةٌ من دونه :

« قالوا لم نَكُ من المصلين . ولم نَكُ نُطعِمُ المسكينَ . وكنا نخوضُ مع الخائضين . وكنا نُكَذِّب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعُهم شفاعةُ الشافعين ».

(المدثر ٤٣ : ٤٨)

« وأنْذِر به الذين يخافون أن يُحشَروا إلى ربِّهم ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقون ».

(الأنعام : ٥١)

« وذَرِ الذين اتخذوا دينَهم لعباً ولهواً وغرَّتهم الحياةُ الدنيا وذكِّر به أن تُبْسَل نفسٌ بما كسبتُ ليس لها من دون اللهِ ولي ولا شفيع » .

(الأنعام : ٧٠)

« وأنذِرْهم يومَ الآزفةِ إذ القلوبُ لدى الحناجرِ كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »

(غافر : ١٨)

« ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيعٍ أفلا تتذكرون »
(السجدة : ٤)

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلّةٌ ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون »
(البقرة : ٢٥٤)

« قلْ للهِ الشفاعةُ جميعاً له ملكُ السموات والأرضِ وإليه تُرجَعون»
(الزمر : ٤٤)

* * *

بكل هذا الإصرار ، أسقط الدينُ ، في ختام رسالاته ، كلّ وصايةٍ كهنوتية على الإنسان ، تتوسط بينه وبين خالقه أو تُحدد له مكانه من جنة أو جحيم .

سبحانه ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء « إن ربّك هو أعلَمُ بمن ضَلّ عن سبيله . وهو أعلم بمن اهتدى »

* * *

فأين الإنسانية اليوم من مثالية هذا القرآن ؟

بل أين هي من حرية العقيدة التي أقرها وفرضها ، منذ أربعة عشر قرنـــــاً ؟

« ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ».

حُرِّيَّةُ العَقْلِ وَالرَّأْى

« وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى ، قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبي » .

(سورة البقرة)

« ولقد صرَّفنا في هذا القرآنِ للناسِ من كلِّ مَثلٍ ، وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلا »

(سورة الكهف)

لا يمكن أن تمارس حرية العقيدة . بمعزل عن حرية العقــل والرأي ، فلا يكون للانسان أن يجادل فيما لا يقتنع به ، ولا أن يسأل فيما لا يطمئن إليه .

والفكرة الشائعة أن مثل هذا السؤال ، إذا جاز في القضايا الفكرية والعلمية . فليس بجائز في المقررات الدينية التي تقتضي التسليم المطلق . بل إن فينا من يتصورون أن مجرد مناقشة المتدين لأحدٍ من يتكلمون باسم الدين جرأة وضلال . وقد امتُحنت هذه الأمة الإسلامية بمن حجَبوا الدين عن جمهرة الناس ، وصادروا حقهم في مناقشة ما يسمعون . بل قيل فيما قيل : إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً ، إذا جرؤ على التردد في التسليم بكل ما يسمع من تعاليم وتأويلات وتوجيهات يقدمها الذين يتكلمون باسم الإسلام ويدعون لأنفسهم وصاية كهنوتية عليه .

وفينا كتاب الإسلام ، نتدبر آيته المحكمة في إبراهيم عليه السلام ، فنراه وهو المصطفى للنبوة قد أعوزته طمأنينة القلب في كيفية إحياء الله تعالى للموتى ، فسأل ربه أن يريه كي يحيي الموتى ؟

ولم ترعد السماءُ ولا زلزلت الأرض زلزالها ...

ولم يغضب سبحانه على إبراهيم حين سأل ما سأل ، ولا حرمه شرف الاصطفاء للنبوة . بل كانت كلمة الله رداً على سؤال إبراهيم :

« أوَلَم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ».

وفي جواب إبراهيم اعتراف صريح معلَن ، بأن قلبَه لم يكن مطمئناً ، بل أعياه أن يتمثل كيفية إحياء الله الموتى ، فلم يكتم في نفسه ما خامره من قلق ، بل طلب الرؤية والمشاهدة التماساً لطمأنينة القلب ، والراحة من نوازع القلق وهواجس الحيرة ...

وبقيت كلمته عبرة ، وبقي له شرف مكانته عند الله يذكره سبحانه لرسوله خاتم الأنبياء ، بعد تباعد الدهور ومر الأحقاب :

« واذكرْ في الكتابِ إبراهيمَ إنه كان صديقاً نبيّاً ».

(مريم : ٤١)

وخلد على الزمان ، خليلَ الله ..

كما خلدت ملتُه الحنيفية ، مؤيَّدَةً برسالة الإسلام ختام الدين .

« ومن أحسنُ ديناً مِمَّن أسلمَ وجهَه لله وهو مُحسِنٌ واتبع مِلةَ إبراهيمَ حنيفاً واتخذ اللهُ إبراهيم خليلا ».

(النساء : ١٢٥)

« قل صدق اللهُ ، فاتبعوا مِلةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين » .

(آل عمران : ٩٥)

«إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين ».

(النحل : ١٢٠)

وجاهِدوا في اللهِ حقَّ جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدينِ من حَرَجٍ ، مِلةَ أبيكم إبراهيمَ ، هو سمّاكم المسلِمين من قبل ... » .

(الحج : ٧٨)

* * *

وقصة اهتداء إبراهيم إلى الحق — فيما تلاها علينا كتاب الإسلام — بدأت بالحيرة ، والشكُّ الذي هو مظهر لرشدِ العقل وحريةِ التفكير . ومن الشك طال تأمله في الكون وإصرارُه على طلب الهدى والتماس اليقين :

« واتلُ عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدوٌّ لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين ...»

(الشعراء ٦٩ : ٧٨)

«... فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يَهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين ، فلما رأى الشمسَ بازغة قال هذا ربي هذا أكبرُ . فلما أفَلَتْ قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجّهتُ وجهيَ للذي فطر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين » .

(الأنعام ٧٦ : ٧٩)

وهذا هو بعد أن اهتدى إلى خالقه الحق ، المحيي المميت ، لم يزل يجد في نفسه هاجساً من قلق ، فالتمس راحةَ اليقين وطمأنينةالقلب .

دون أن يكون في ذلك ما يلقي أدنى ظلٍّ من شبهة ، على صدقِ إيمانه وعقيدته .

ودون أن يكون فيه ما يقتضي حرمانه من شرف اصطفائه للنبوة !

* * *

فيم قصَّ علينا القرآن الكريم هذه الآيات من نبأ إبراهيم ؟

ليكون لنا منها عبرة وعظة وهدى ، لا لكي نرددها بأفواهنا ، وألبابُنا غافلةٌ عن مغزاها وهداها .

وأزيد الموقف بياناً ، بالحديث عن حرية الرأي ، ومظهرُه حقُّ الجدال في الأمور الدينية وما يتصل بها من أحكام .

والجدالُ في العربية من صيغ المفاعلة ، والأصلُ اللغوي للمادة في استعمالاتها الحسية المادية ، فيه معنى الصلابة . يقال جَدَلَ فلاناً إذا صرعه . والجدَل : عنفُ الخصومة في المناقشة . وأكثر ما يستعمل الجدلُ والمجادلةُ في صراع الآراء والأفكار حيث يُحاول كلُّ مجادلٍ أن يفرضَ رأيه ويناضل عنه في صلابة .

وفي القرآن الكريم ، لم يجيء من المادة إلا الفعلُ رباعياً « جادَلَ » خمساً وعشرين مرة . وجاء المصدر منه مرتين بصيغة « جَدَل » وأخريين بصيغة جدال ، ومرة بصيغة مجادلة . والغالب عليها جميعاً أنها في سياق الجدال الديني . ونفهم من آية الكهف ، أن الجدل من خصائص الإنسان ، المميزة له عن غيره من الكائنات :

« ولقد صرَّفنا في هذا القرآنِ للناسِ من كلِّ مَثَلٍ ، وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلا »

والآية صريحة الدلالة على أن الإنسان لو لم يكن من شأنه الجَدَلُ ، لكان حسبه ما جاءه من آياتٍ بيناتٍ فيها تصريف للناسِ من كل مثل .

من هنا ، قدَّر الإسلام وهو دين الفطرة ، طبيعةَ هذا الإنسان التي تختلف عن طبيعة الملائكة وسائر الكائنات ، فلم ينكر عليه الجدالَ إلا أن يكون مماراة فاحشة في الحق الجلي والآيات البينات ، عن عنادٍ ومكابرة ، أو عن إصرار على الجهل والضلال :

« يجادلونك في الحقِّ بعدما تبيّن ، كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون » .

(الأنفال : ٦)

« وما نرسِلُ المرسَلين إلا مبشرين ومنذرين ، ويجادلُ الذين كفروا بالباطلِ لِيُدحِضوا به الحقَّ »

(الكهف : ٥٦)

« ومِن الناسِ مَن يجادلُ في اللهِ بغيرِ علم ولا هدى ولا كتابٍ منير . ثانِيَ عِطْفِه ليُضِلَّ عن سبيلِ اللهِ ، له في الدنيا خِزْيٌ ونُذيقُه يومَ القيامةِ عذابَ الحريق . ذلك بما قدَّمتْ يداك وأن اللهَ ليس بظلامٍ للعبيد » .

(الحج ٨ : ١٠)

« كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ والأحزابُ من بعدِهم ، وهمّتْ كلُّ أمةٍ برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطلِ ليدحِضوا به الحقَّ فأخذتُهم ، فكيف كان عقابِ ».

(غافر : ٥)

« إن الذين يجادلون في آياتِ اللهِ بغيرِ سلطانٍ أتاهم إنْ في صدورِهم إلا كِبرٌ ما هم ببالغيه ...»

(غافر : ٥٦)

* * *

أما حين يكون جدال الإنسان عن حاجةٍ إلى الاقتناع ، فمن حقِّه أن يُصغَى إليه ويجادَل بالّتي هي أحسن ، وبهذا أمِر نبيُّ الإسلام والمسلمون :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادلْهم بالتي هي أحسنُ ، إن ربّك هو أعلمُ بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين».

(النحل : ١٢٥)

« ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهُنا وإلهُكم واحدٌ ونحن له مسلمون » .

(العنكبوت : ٤٦)

وقد يتوهم ناسٌ ، أو يوهمون غيرَهم ، أن الجدالَ في هذا المجال الديني لا يكون إلا من الكفار والمشركين . والحق أن الإسلام أفسح للإنسان « وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلا » وجهَ العذرِ حين يكون جدالُه عن رأيٍ حر وفكرٍ حُرٍّ ونيةٍ خالصة ، لأن مثل هذا الجدال من لوازم إنسانيته التي حَمَلَ أمانتها .

وقد جادل إبراهيم عليه السلام ربه في «قوم لوط» استرحاماً ، فلم يسخط عليه الله ، بل عذره سبحانه في حلمه على القوم الفاسقين ، وأمره أن يعرض عن جدال لا جدوى منه بعد أن سبق أمرُ الله فيهم ، وحَقّ عليهم عذابٌ غير مردودٍ بجدالٍ أو استرحام :

« فلما ذهب عن إبراهيم الروعُ وجاءته البشرى يجادلُنا في قومِ لوط. إن إبراهيمَ لحليمٌ أواه منيب . يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا إنه قد جاء أمرُ ربِّك وإنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ ».

(هود ٧٤ : ٧٦)

* * *

كذلك جادلت امرأة مسلمة، رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في زوجها حين ظاهر منها، فلما لم تجد لدى الرسول ما يفرج كربها اشتكت إلى الله، فسمع سبحانه قولها ونزلت فيها آيات المجادلة:

«قد سمع اللهُ قولَ التي تجادلُك في زوجِها وتشتكي إلى الله واللهُ يسمعُ تحاورَكما إن اللهَ سميعٌ بصير. الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتِهم إنْ أمهاتُهم إلا اللائي ولَدْنَهم وإنهم ليقولون مُنكراً من القول وزُورا ...».

(المجادلة ١ : ٢)

* * *

وفي السيرة النبوية خبرٌ مستفيض عن معارضة نفرٍ من الصحابة لصلح الحديبية على شروطه التي أقرها صلى الله عليه وسلم، وكان من تلك الشروط «أنه مَن أتى محمداً من قريشٍ بغيرِ إذن وليّه ردّه إليه، ومَن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه».

ويروي ابن إسحاق في «السيرة» وابنُ سعد في «الطبقات الكبرى» والطبري في (تاريخه) ما كان من جدال عمر بن الخطاب في شروط هذا الصلح. قالوا إنه لما تم الاتفاق ولم يبق إلا كتابة نص العهد، وثب «عمر» فأتى أبا بكر الصديق فجادله فيه، فلما لم يقره أبو بكر على موقفه، ذهب عمر إلى الرسول فقال:

يا رسول الله، ألستَ برسول الله؟

قال: بلى.

قال عمر: أو لسنا بالمسلمين؟

قال الرسول: بلى.

قال عمر : أو ليسوا بالمشركين ؟

قال الرسول : بلى

عندئذ سأل عمر : فعلامَ نُعطي الدِنيّة في دينِنا ؟

وأجاب صلى الله عليه وسلم : أنا عبدُ الله ورسوله ، لن أخالف أمرَه ولن يضيعني .

ولم يسخط الرسول على صاحبه ، ولا أنكر عليه حقَّ الجدال فيما لم يقتنع به . بل لعله صلى الله عليه وسلم قدَّر صلابة موقفه مجادلاً عما يعتقد أنه حق . ثم كان عمر هو الذي راجع نفسه لما تبينت له حكمة ذلك الصلح الذي عدَّه القرآن «فتحاً مبيناً»، ومِثْلُ عمرَ من يبادر فيعترف بالخطأ بمثلِ الشجاعة التي واتته حين جادل عن رأيه في صلابة ولا يخشى لومة لائم .

و «عمر» هو الذي كتب في «رسالة القضاء» إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه أمر القضاء ، ألا يمنعه قضاءٌ قَضَى به ثم راجع فيه نفسَه ، أن يرجعَ عنه « فإن الرجوعَ إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل ».

وهو الذي أصغى إلى من جادلته بالمسجد على مسمع من المسلمين فيما نهى عنه من المغالاة في مهور النساء ، وفيما أعلن من قرارِه أن يأخذ ما زاد على خمسة وعشرين درهماً فيرده على بيت المال .

قال مؤرخوه : فخرجتْ إليه من صفِّ النساء امرأةٌ تقول بأعلى صوتها على سمع الجماعة في المسجد : ليس لك هذا يا عمر !

فلم يزجرها ، بل وقف فسألها : ولم ؟

قالت : لأن الله تعالى يقول :

« وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ».

فرجع أمير المؤمنين إلى المنبر وقال كلمته المشهورة التي بقيت ملء سمع الزمان :

« أصابت امرأة وأخطأ عمر ».

* * *

على أن قضية حرية الرأي والكلمة ، لا تقف في العقيدة الاسلامية عند حق الجدل التماساً لطمأنينة العقل ، بل تقرر كذلك تكليفاً لا يجوز لمؤمن أن يفرط فيه ، وفريضة لا يحل له أن يتخلى عنها أو يتهاون بها .

بمقتضى الاصل الثابت من أصول العقيدة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

(آل عمران : ١٠٤)

وقد جعل الإسلام هذا التكليف مناط خيرية أمته ، بصريح الآية المحكمة :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

(آل عمران : ١١٠)

وحقت اللعنة على الكفار من بني إسرائيل ، بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر

« لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »

وفي كتاب الإسلام ، يقترنُ الإيمان بالله بالتواصي بالحق. وذلك ما لا سبيل إليه إذا فرط الانسان في حرية الرأي والكلمة ، فارتد شيطاناً أخرس :

ومن هذه الحرية تأخذ الشهادة بالحق حرمتها في العقيدة الاسلامية ، فلا يحل لمؤمن أن يكتم هذه الشهادة :

« ومن يكتمها فانه آثم قلبه »

وويل لمن يشهدون الزور ..

وويل لمن يخونون امانة الكلمة ، ومن يفرطون في تكليف الأمر بالمعروف والتواصى بالحق ، والنهى عن المنكر ...

حُرِّيَّة الإرَادَة

« وأنْ ليس للإنسان إلا مـــــا سعى ٠
وأن سعيَه سوف يُرَى ٠ ثم يُجزاه
الجزاءَ الأوفى ٠ وأنَّ إلى ربِّك المنتهى »

(سورة النجم)

حرية الأراده ليست في الواقع إلا عنصرا جوهريا من كل [illegible] يعجز هو الحرية الكاملة للإنسان بمقتضى حمله أمانته الصعبة .

وإذا كان شرط التكليف الاختيار — بنص عبارة ابن رشد [1] — فكيف نتصور أن يحتمل الإنسان الرشيد تبعة التكليف إذا فقد الاختيار الذي هو شرطه ؟

* * *

وحين ننظر في موقف القرآن من حرية الإرادة ، نحتاج إلى أن نفرغ أولاً لتدبر آيات قرآنية محكمة ، تأمر بالتوكل على الله وتفرض علينا الإيمان بمشيئته تعالى فينا وإرادته لنا ، وأن ليس لمؤمن أن يقول « إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ».

وهنا تواجهنا المشكلة الكبرى التي لا نعرف مشكلة أخرى حيرت مفكري الإسلام مثلها ، أعني مشكلة الجبر والاختيار .

بل إنها عقدة العقد ، لا في الفكر الإسلامي فحسب ، ولكن في الفكر الإنساني بوجه عام .

لقد أطالت الفرق الإسلامية الجدل في المشكلة ، وكأنها تضرب في متاهة محيرة ، لا مخرج منها ولا مخلص . وكان مدار البحث في البيئة الدينية ، حول علاقة إرادة الإنسان بالقوة الإلهية التي تدبر أمر العالم وتتصرف فيه بحكمتها ، والله عالم بكل شيء ، فعملُ الإنسان إنما يجري على وفق علم الله القديم ، وهو بذلك مجبر لا مخير .

---

١ في كتابه : فصل المقال .

لكن الأديان في الوقت نفسه ، تقرر مسئولية الإنسان عن حسناته وسيئاته ، وبهما يكون الجزاء ثواباً وعقاباً . والله عادل ، ولا يمكن أن يظلم أحداً من عباده وما ظلمهم « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وتوزعوا فِرَقاً شتى :

قالت «الجبرية» بالجبر المطلق ، وأن ليس للإنسان من الأمر شيء ، وإنما هو مسير بقضاء الله وقدره . وساقوا أدلتهم ، من مثل الآيات القرانية :

« ولو شاء اللهُ لجمَعهم على الهدى »

« وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ اللهَ رمى ».

« سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ».

* * *

ورفضت «المعتزلة» هذه الجبرية ، لأنها تلغي الكسب ، وتنفي حكمة التكليف والمسئولية ، وتجر إلى القولِ بأن الإنسان يعاقَب أو يثـاب على ما هو مجبور على فعله ، وذلك ينافي عدل الله الثابت عقلاً وشرعاً بنصوص لا تحتمل التأويل . والعدلُ أحدُ أسـاسين لمذهب المعتزلة : أصحاب التوحيد والعدل .

ومن ثم ذهبوا إلى القول بالاختيار المطلق ، استناداً إلى أدلة عقلية ونصوص شرعية — وهم يثبتون ألا تناقض بين العقل والشرع — وتلوا من الآيات مثل قوله تعالى :

« ولا نكلف نفساً إلا وسعها ، ولدينا كتابٌ ينطق بالحق وهم لا يُظلمون » .

« ولتجزى كلُّ نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون ».

« وأنْ ليس للإنسانِ إلا ما سعى . وأن سعيَه سوف يُرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ».

« من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها .»

وأضافوا : إن الجبر إلى جانب مجافاته للعدل الإلهي ومنافاته للتكليف، يجعل اللهَ خالقاً لما يقترف العبدُ من قبائحَ وسيئاتٍ ، واللهُ سبحانه منزه عن ذلك .

* * *

وبين الطرفين المتقابلين ، وقفت فِرقٌ إسلامية أخرى موقفاً وسطاً :

فالشيعة ترى أنه ليس هناك جبر تام ولا اختيار تام ، مع القول بعدل الله [1] .

والأشعرية توسطت كذلك فقالت بأن للإنسان كسباً يثاب به ويعاقب عليه ، والإنسان وكسبُه مخلوقان لله تعالى . ولا وجه عندهم للكلام في عدلِ الله ، لأنه سبحانه حر في مخلوقاته يفعل ما يشاء ، « لا يُسأل عما يفعلُ وهم يسألون » .

وتوشك الأشعرية بهذا أن تكون قد انتهت إلى الجبرية .

* * *

ودخلت الفلسفة الميدان فزادته تعقيداً .

---

١ انظر مقال « الشيعة » للأستاذ محمود شهابي أستاذ الفلسفة الشرقية في كلية الإلهيات بجامعة طهران. وقد نشر المقال في كتاب (الإسلام ، الصراط المستقيم) النسخة العربية ط بيروت ١٩٦١ ، بإشراف مورجان وترجمة الأستاذ عبد الله يعقوب .

وحاول ابن رشد أن يوفق بين الأدلة المتعارضة [1] :

فهو يقدر الجبرَ من ناحية العوامل الخارجية والأحوال النفسية التي تعطل إرادة الإنسان ، كما يقدر الاختيار فيما هو متروك للإنسان وإرادته . وعنده أن الأسباب الخارجةَ عن إرادتنا هي القضاء والقدر.

وهذا المذهب قريب مما ذهبت إليه الفلسفةُ الحديثة ، من القول بالاضطرار تحت ضغطِ عواملَ قاهرة ، من النفس أو من البيئة الخارجية .

والقضية كما يبدو ، لا أول لها ولا آخر ، وما تزال الحرب سجالاً بين مذهبي الجبر والاختيار .

وإن كان الأخلاقيون قد قرروا مسئولية الإنسان عن عمله إلا أن يكون عمله تحت ضغط دوافع غالبة على إرادته خارجة عنها .

والقوانين الوضعية على اختلافها ، تقضي بالمسئولية مع تقدير الدوافع القهرية والظروفِ المعطلة لإرادة الإنسان .

وبعيداً عن جدل المتكلمين وحوار الفلاسفة وقوانين المشرعين وأحكام الأخلاقيين ، أعلنت الصوفية رأيها الجهير :

« إن للهِ عباداً إذا أرادوا أراد ».

وهم يعدون أنفسهم أصحابَ الحقيقة ، وغيرَهم أصحابَ الشريعة والنزاع بينهم وبين الفقهاء ذائع مشهور [2]

* * *

وأياً ما كان الأمر ، فقد انتهى الموقف في البيئة الإسلامية إلى شيوع مذهب الجبر ، لأن الذين قالوا بالاختيار ، كانوا معتزلة أو صوفية

---

١ في : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة .

٢ انظر فيه رسالة « النزاع بين الفقهاء والمتصوفة » للدكتور عبد المحسن الحسيني .

وبينهم وبين الجمهور من أهل الشريعة خصومة جهيرة معلنة . وقدأعانت ظروف سياسية وأوضاع اجتماعية ، في عصور التخلف ، على انتصار الجبر لأنه يريح من تكاليف المسئولية ، ويعفي من همّ التفكير فيما كان ويكون ، ويخدر بلذة الاستسلام المطلق لكل ما تجيء به الدنيا .

وهكذا غبرت عصور ، رسّختْ فينا القولَ بوجوب أن ندعَ الخلق للخالق ، وزينت لنا أن التوكل على الله ينفي السعيَ ، وأن طموحنا إلى حياة أفضل ينافي التسليم الواجبَ بما كُتِب علينا من قبل أن نخلق ، وأن الضيقَ بوضع من الأوضاع أو رفضِه ، فيه ما يشبه الاعتراض على إرادة الخالق ومشيئته ، والمؤمن لا يعاند القدر .

والتصقت الجبرية بالإسلام .

وربط نفر من المستشرقين بين تخلُّفِنا وبين هذه الجبرية في ديننا والذين تزيوا منهم بزي الإنصاف دافعوا عن جبرية الإسلام بأنه لم يستحدثها ولم ينفرد بها عن أديان سبقته ، وزادوا فردوا الجبرية إلى طبيعة متأصلة في العرب من قديمهم البعيدِ قبل الإسلام ، فيقول « جوستاف لوبون » :

« وليس فيما يوصَم به الإسلام من الجبرية ما يجوز أن يُعَدَّ به محمدٌ أكثر مما في التوراة ... وليس في آي القرآن التي ذكرناها آنفاً ، من الجبرية ما ليس في كتب الأديان الأخرى ومنها التوراة . وهناك فلاسفة وعلماء لاهوت يعترفون أن مجرى الحوادث تابع لسُنةٍ لا تتبدل . وكتب جميع الأمم الدينية مفعمة بالجبرية التي يسميها القدماء القدرَ الذي لا رادَّ لحكمه . ولم يكن محمد جبرياً أكثر من مؤسسي الأديان الذين ظهروا

قبله ... والعربُ كانوا جبريين بمزاجهم قبل ظهور محمد ، فلم يكن لجبريتهم تأثير في ارتقائهم كما أنها لم تؤد إلى انحطاطهم » [1] .

وتابعهم على ذلك متابعون من الدارسين المعاصرين ، ولم يتجهوا إلى البحث في حقيقة هذه الجبرية الإسلامية ، بل تلقوها على أنها بديهية لا تحتمل المناقشة . ثم كان همُّهم أن يردوها كذلك إلى جذور لها بعيدة قبل الإسلام ، في الفلسفة الميتافيزيقية ، وفي طبيعة متأصلة في العرب ، ومزاج لهم موروث من قديم الحقب والأدهار . وقد كتب «الدكتور أبو العلا عفيفي» في الفصل المنشور له بعنوان : التأويل العقلية والصوفية في الإسلام [2] :

«المسألة الخلقية — في الجبر والاختيار — لها جذور في الفلسفة الميتافيزيقية الأكثر شمولاً وهي مسألة إدراك الله في علاقته بالعالم عموماً والناس خصوصاً . ولقد أدت نظرة التشاؤم عند الساميين الذين يرون في العالم ظلاً زائلاً وشيئاً لا قيمة له إلا بقدر ما يهيىء به المرء لنفسه فيه مكاناً لحياة أخرى أكثر بقاء ، إلى القول بأن الله هو صاحب القوة والسلطان المطلق على الكون والإنسان ، وفي القرآن الكريم نجد آثاراً واضحة لهذا المعنى : * لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون * * يخلُق ما يشاء * * فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء * * إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

---

١ حضارة العرب : الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر ، ص ١٥٧ وما بعدها ط ٢ الحلبي بالقاهرة .

٢ في كتاب : « الإسلام ، الصراط المستقيم » والنص المنقول هنا يقع من ص ٢٠٤ ، جـ ١ ، ط بيروت .

ثم يمضي الدكتور عفيفي بعد أن ربط هذه الجبرية في القرآن ، بفطرة التشاؤم عند الساميين فيقول :« إن هذا جانبٌ واحد من الصورة وهو يؤكد من ناحيته اللاهوتية سلطانَ الله المطلقَ على خَلقه . ويُري من ناحيته الخلقية ، النظريةَ الجبرية في أعمال المرء .

« أما الجانب الآخر من الصورة فإنه يُظهر الناحيتين وقد ارتبطت إحداهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً . فالله الذي وُصِف بأنه صاحب السلطان والإرادة العليا ، وصف نفسه بأنه عادل .

« ومن الواضح أن المذهبين المتناقضين : الجبر والاختيار ، يمكن اقتفاءُ أثرهما في نزاع بين مفهومين لطبيعة الله : القوة المطلقة ، والعادل . وقد فضل المسلمون المتقدمون ، الذين كانوا أبناء الصحراء البررة ، أن يفكروا في اللهِ على غرارِ إله القبيلة ذي السلطة غير المحدودة (؟!) وهو المفهوم الذي اقتبسوا منه نظريتَهم في الجبر [1] . فإلههم يستطيع أن يفعل كل شيء حتى ما هو غير عادل ولا منطقي . والإنسان ليس إلا أداة بين يدي ربه ، فهو يخضع لأدق قوانين الجبر .. وعُرِف باسم القَدَرية . وقد أدى بالإسلام إلى أن يوسَم بأنه دين يؤمن بأن كل شيء قضاء وقدر » [2] .

ثم دافع عن الإسلام ، فقال إنه يعطي أكبر الأهمية لدور الإنسان

---

١ أقول : بل اقتبسوها ، إن جاز أن توصف بالنظرية عند المسلمين الأولين ، من آيات قرآنية محكمة والله هو ما عرفوه من كتاب دينهم لا ما تصوروه على غرارة إله القبيلة وقوله : « فإلههم يستطيع أن يفعل كل شيء حتى ما هو غير عادي ولا منطقي » فيه جفوة ينبو عنها حس المؤمن .

٢ الإسلام ، الصراط المستقيم . المقال نفسه .

في أعماله ، وأن جذور عقيدة الاختيار – التي قال بها المعتزلة – موجودة في القرآن نفسه « وأن الآيات القرآنية التي تؤيد مذهب الاختيار ، تفوق في عددها كثيراً تلك التي تقول بالجبر »[1] .

ونراه هنا ، لم يُضف عنصراً جديداً إلى القضية في البيئة الإسلامية ، اللهم إلا إقحام صورة إلهِ القبيلة على تمثُّل المسلمين الأولين لله ! دون أن يحل عقدةَ الموقف بحال ما ، فليست المسألة مسألةً عددية تُحَلُّ بأن آياتِ الاختيار في القرآن أكثر من آيات الجبر ؛ ثم تواجهنا بمشكلة اختلافٍ في القرآن : يقول في المسألة الواحدة بالجبر ويقول بالاختيار !

* * *

وسنظل ندور ونحور ، في متاهة يحار فيها الدليل ، إذا نحن وقفنا عند نقل ما قال أصحاب الجبر وأصحاب الاختيار .

إلا أن نعود من نقطة البدء إلى كتاب الإسلام نفسه ، متحررين من الالتزام بأي قول سابق في القضية ، ولو بدا من المسلمات البديهية .

ونحدد مفهوم الإرادة ، فنقول إنها لا تعني مجرد الرغبة والميل ، ولا هي تقف عن التفكير والاتجاه إلى عمل ما ، إنما تكون الإرادة حين تنتقل النية إلى عمل ، ويستقر العزم عليه في تصميم مهما تكن العوائق والموانع .

ومبدأ «الأعمال بالنيات» لا يعني الإلزام بالمسئولية على مجرد النية ، بل يقدر سبق العمد ويفرق بين أعمالٍ تمتْ عن إرادة وتصميم ،

١ الإسلام ، الصراط المستقيم . المقال نفسه .

أخرى بَدَرَتْ عن غير نية . فالعبرة بالعمل عن سبق نية ، حتى مع وجود موانع خارجية تحول دون نفاذ العمل بعد القصد إليه والشروع فيه.

وإذ كانت الرغبة تمهيداً للإرادة ، وكان العزم من لوازمها ، فمن الضروري أن نتدبر استعمال القرآن لكل من الرغبة والعزم ، لعله يضيء لنا سبيلنا إلى تدبر موقفه من الإرادة .

ويشهد التتبع الدقيق ، بأن الرغبة لم تأت إطلاقاً في القرآن الكريم ، مسندة أو مضافة إليه تعالى ، وإنما جاءت مادة «رغب» في كتابه المحكم ثماني مرات ، كلها بلا استثناء ، للمخلوقين لا للخالق .

وكذلك الأمر في العزم ، لم يأت قط مضافاً أو مسنداً إلى الله ، ولا وُصف سبحانه بأنه ذو عزم ، وإنما العزم في كتاب الله لعباده . يطرد ذلك ولا يتخلف في المواضع التسعة التي جاء فيها العزم في القرآن ، بصيغة الفعل أو بصيغة المصدر .

والعزم في القرآن يأتي بمعنى التصميم والنفاذ :

« ولا تعزموا عقدةَ النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجلَه »

« فإذا عزمت فتوكل على الله »

وهذا الاستقراء ، جدير بأن يلفتنا إلى ملحظ دقيق ، هو الفرق الجوهري بين مفهوم الإرادة حين تكون من الخالق حكماً وقضاءً ، ومفهوم الإرادة حين تكون من المخلوقين رغبة واختياراً وعزماً .

* * *

وفي ضوء هذا البيان القرآني ، نمضي في تتبع استعماله للإرادة ، فنجدها جاءت فيه في نحو ١٤٠ موضعاً ، كلها بلا استثناء بصيغة الفعل الماضي ، أو المضارع ، فحسب !

وعجيب أمر هذا الكتاب في إحكام بيانه واطراد نسقه وأسرار إعجازه: فعلى كثرة ما جاء فيه من فعل الإرادة ، لم يستعملها قط بصيغة الاسم والمصدر أو أي صيغة من مشتقاته ، وإنما هي فِعلٌ لا غير .

ولا يأتي الفعلُ منها بصيغة الأمر ، في أي موضع من القرآن كله .

وهو ملحظ لم يلتفت إليه المفسرون ، ولا المتكلمون في الإرادة ، فيما قرأت .

وأعترف بأن سره البياني يفوت إدراكي ، وأقصى ما لمحته منه بعد طول تدبر واستقراء لكل ما في القرآن منه : أن هذا البيان المعجز لا يعرف الإرادةَ إلا عملاً وفعلاً ، فليست عنده من المجردات الذهنية التي تختص بها الأسماء والمصادر ، ولا هي من الصفات التي تُطلق على الأشخاص أو تضاف إليهم . فكأن العبرة في الإرادة بالفعل ، لا بالتصور أو الوصف أو الادعاء .

أما قصرُ استعمال فعل الإرادة في القرآن كله ، على الماضي والمضارع دون الأمر ، فالذي اهتديت إليه من سره البياني هو أن مناط الإرادة في القرآن الكريم ، وقوعُ الفعل ، لا الأمرُ به أو الحملُ عليه .

لافتاً إلى أن الإرادةَ لا تكون بأمرٍ ينتفي به جوهرُ الإرادة من حيث هي مشيئةٌ واختيار .

* * *

وأتابع تدبر آيات القرآن في الإرادة ، فأجد فعلها مسنداً إلى الله تعالى ، مذكوراً أو مضمراً ، في نحو خمسين آية ، وإلى غيره من مخلوقاته في نحو تسعين .

وآيات إرادته تعالى ، فيها النص الصريح على أنها كل شيء ، فهو تعالى : « يفعل ما يريد» سبحانه «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

على حين تقرر الآيات الأخرى ، أن إرادة المخلوقين هي التي تسبق فتختار ، وبعدها تأتي إرادة الله وفقَ ما أردوا . وأتلو منها قوله تعالى :

«ومَن يُرد ثوابَ الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثوابَ الآخرةِ نؤته منها وسنجزي الشاكرين ».

(آل عمران : ١٤٥)

«من كان يريدُ ثوابَ الدنيا فعند اللهِ ثوابُ الدنيا والآخرةِ وكان الله سميعاً بصيرا ».

(النساء : ١٣٤)

« من كان يريد حرثَ الآخرة نزد له في حرثِه ، ومن كان يريد حرثَ الدنيا نؤتِه منها وما له في الآخرة من نصيب ».

(الشورى : ٢٠)

« ومن كان يريد الحياةَ الدنيا وزينتَها نُوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخَسون ».

(هود : ١٥)

«من كان يريد العاجلةَ عجلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يَصلاها مذموماً مدحوراً ».

(الإسراء : ١٨)

« يا أيها النبيُّ قل لأزواجِك إنْ كنتن تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْن أمتعْكُن وأسرحْكن سراحاً جميلاً . وإن

كنتن تُرِدن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

(الأحزاب ٢٨ : ٢٩)

فلمن الإرادة : للخالق أم للإنسان ؟

لا نملك أن نأخذ ببعض آيات الإرادة في القرآن ونعرض عن بعض .

فهل نقول إن القرآن يقرر الجبر ، كما يقرر الاختيار ، هكذا على الإطلاق فيهما ، فنتورط في القول بتناقضه واختلافه ، حاشاه ؟

أو نُرجح الاختيار لمجرد ملحظٍ عددي ، نسجل به أن آيات الإرادة الإلهية ، نحو خمسين ، يقابلها نحو تسعين آية ، الإرادةُ فيها للمخلوقين ؟

إننا إن فعلنا ، ظلت العقدة عصِية ، وعدنا نخبط في المتاهة دون أن نصل إلى طمأنينة واقتناع .

* * *

وإنما تنحل عقدة الموقف ، فيما أرى ، إذا نحن التفتنا إلى ما هدانا إليه البيان القرآني ، من أن مفهوم إرادة المخلوق فيه ، غير المفهوم من إرادة الخالق :

إرادتنا كسبية ، مصحوبة بعزم مسبوق برغبة وتفكير ، وليست كذلك إرادة الله حيث لا يجوز عليه تعالى أي عمل أو صفة كسبية ، على ما هو مقرر في علم التوحيد .

من ثم ، لم يُسنَد إليه تعالى فيما قدمنا من استقراء لآيات القرآن ، وكذلك الأمر ، حيثما وصف الخالق بما يوصف به المخلوق ، كالعلم والغنى والعزة والقوة ... علم الله لدني قديم غير محدث ، وعلمنا أو غنانا كسبي

طارىء ومخلوق محدث ، تجوز عليه أعراض الحدوث من تفاوت وزيادة أو نقص ، أو زوال عزم أو رغبة ، أو ما شابه ذلك من الصفات المحدثة والأعمال الكسبية .

وإنما تُفهَم إرادة الله ، في القرآن كله ، على أنها حُكم نافذ وقضاء مبرم ، وليست كإرادتنا عزماً على أمر أو سعياً وراء مُرادٍ نصمم على إنفاذه :

« إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كن فيكون ».
(يس : ٨٢)

« إنما قولُنا لشيءٍ إذا أردناه أن نقولَ له كنْ فيكون ».
(النحل : ٤٠)

• • •

وبهذا الفهم الواعي للفرق بين فعل الإرادة حين يسند إليه سبحانه ، وحين يسند إلى مخلوقاته ، نتدبر الآيات التي حكّمت الإرادةَ الإلهية العليا في مصاير الأمم والأفراد ، فنراها ألقت عليهم مسئوليةَ ما صاروا أو يصيرون إليه ، بشاهدٍ صريح من سياقها .

فآية الإسراء : الإرادة الإلهيةِ فيها أمر نافذ ، وقد جعلت الترف بما هو ذريعة بغي وفساد ، مسئولاً عن سوء المصير . وهي مسبوقة بآية وزرِ الضلال ومثوبة الهدى :

«من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلُّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » — ١٦

وآية الأحزاب ، جعلت إرادة الله حكماً نافذاً لا مفر منه على من خانوا مسئولية العهد :

« ولقد كانوا عاهدوا اللهَ من قبلُ لا يُولون الأدبارَ وكان عهدُ الله مسئولا . قل لن ينفعَكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتلِ وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يَعصِمُكم من اللهِ إنْ أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دونِ اللهِ ولياً ولا نصيرا » — ١٦

وآية هود ٣٤ :

« ولا ينفعكم نصحي إن أردتُ أن أنصحَ لكم إن كان اللهُ يريد أن يُغويَكم هو ربكم وإليه ترجعون ».

هذه الآية التي طالما واجهتنا حيثما قيل بجبرية الإسلام ، لا يجوز أن تؤخذ مبتورة من سياقها في الملأ الذين كفروا من قوم نوح وقالوا لنبيهم : « ما نراك إلا بشراً مثلَنا وما نراك اتبعكَ إلا الذين هم أراذلُنا باديَ الرأيِ وما نرى لكم علينا من فضلٍ بل نظنكم كاذبين ».

وقد نصح لهم نوح فضاقوا بنصحه : « قالوا يا نوحُ قد جادلتنا فأكثرتَ جدالَنا فأتِنا بما تعِدنُا إن كنتَ من الصادقين . قال إنما يأتيكم به اللهُ إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي ... » الآيــة .

وآية يس ، قد أبطلتْ شفاعةَ آلهةٍ تُتخذُ من دون اللهِ أرباباً هيهات أن تنقذ من حكم الرحمن :

« أأتخذ من دونِه آلهة إنْ يُرِدنِ الرحمنُ بضُرٍّ لا تُغنِ عني

شفاعتُهم شيئاً ولا ينقذونِ إني إذن لفي ضلال مبين » — ٢٣

ومثلها آية يونس :

« ولا تدعُ من دونِ اللهِ مالا ينفعُك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسْك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يُرِدْكَ بخير فلا رادَّ لفضلِه » — ١٠٧

وآية التوبة ٤٦ :

« لا يستأذِنُك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنُك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبُهم فهم في ريبِهم يترددون . ولو أرادوا الخروجَ لأعدّوا له عُدةً ولكنْ كرِه اللهُ انبعاثَهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالَكم يبغونكم الفتنةَ وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » .

الآية جعلت تثبيطَ الله حكماً مبرماً على المترددين في الجهاد عن ارتياب في قلوبِهم ، فكَرِه اللهُ انبعاثَهم مع المؤمنين حتى لا يكونوا ذريعة فتنة .

وآية الرعد التي جعلتْ إرادةَ اللهِ بقومٍ سوءاً حكماً لا مرد له :

« وإذا أراد اللهُ بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونِه من والٍ »

مسبوقة بقوله تعالى في صدرِ الآية نفسها :

« إن اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسِهم » — ١١

ومثلها آية الأنفال فيمن كفروا بآيات الله :

« فأخذَهم اللهُ بذنوبِهم إن اللهَ قويٌّ شديدُ العقاب . ذلك بأن اللهَ لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمَها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسِهم وأن الله سميعٌ عليم » — ٥٣

وقوله تعالى في آية هود :

« إن ربَّك فعّال لما يريد ».

جاء حكماً نافذاً على أمم وثنية بائدة ، ضلّت وظلمتْ فأخذها الله بظُلمِها :

« وما ظلمناهم ولكنْ ظلموا أنفسَهم فما أغنت عنهم آلهتُهم التي يَدعُون من دونِ اللهِ مِن شيءٍ لما جاء أمرُ ربِّك وما زادوهم غيرَ تتبيبٍ ، وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذَ القرى وهي ظالمةٌ ، إن أخذَه أليم شديد ... »

إلى قوله تعالى :

« فأما الذين شَقُوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرض إلا ما شاء ربُّك إن ربَّك فعّالٌ لما يريد » — ١٠٧

* * *

وأحتاج هنا إلى استطراد أشير فيه إلى مقال نشره الأستاذ الزميل «الدكتور مصطفى الزرقا» [١] تعقيباً على محاضرة لي في «القرآن وحرية الإرادة» ألقيتها بالكويت في نوفمبر عام ١٩٦٥ .

لقد وقف الأستاذ عند تخريجي لآيتي هود ويس وأمثالهما فقال : « إن

---

١ في مجلة الإيمان المغربية (ديسمبر ١٩٦٧) ثم ، بنصه ، في مجلة الوعي الإسلامي الكويتيـــة (مارس ١٩٦٨) .

هذه الآيات بقيت محل تساؤل : كيف يمكن توفيقها مع هذا التأويل الجديد للدكتورة بنت الشاطىء بصورة يزول منها إشكال الجبرية : فمن ذلك قوله تعالى على لسان نوح لقومه : « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم » واضح أن مناط احتجاج الجبرية إنما هو في تسليط الإرادة الإلهية على الإغواء وتعلقها به . فلو كان متعلقها غيرَ الإغواء من عذاب أو سوء عاقبة ، لصحَّ للسيدة تأويلها ..

«وكذلك آية يس « أأتخذ من دونه آلهة إن يردنِ الرحمن بضر لا تُغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون » السياق فيها هو موازنة بين قدرة قادر وإرادته المطلقة ، وعجز العاجزين ... فيبقى في ظاهر الآية متمسكٌ للجبرية في أن ما يقع للناس من خير وشر ونفع وضر ، إنما هو بإرادة الله تعالى التي لا محيص لهم منها ».

أقول : لا وجهَ عندي لهذا التساؤل ، فلم أقلْ إن إرادة الله حين تأتي حكماً مبرماً تقتصر على الجزاء والتعذيب ، وإنما يصدُق حكمُ الإرادة النافذة على الإنسان بما أراد لنفسه من خير أو شر ، من هُدىً أو ضلال :

«فأما من أعطى واتقى . وصدّق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى » – الليل .

وعلى هذا يصح تخريج كل آيات الإرادة الإلهية في تعلقها بالنفع أو الضر وبالغواية أو الهدى ، تيسيراً لليسرى أو تيسيراً للعسرى . والله قد هيأ للإنسان وسائل البصر والتمييز فجعله سميعاً بصيراً :

«إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ».

«ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين ».

كما صحّ تخريجها في تعلقها بالجزاء والعقاب . حكماً عادلاً وجزاء وفاقاً : « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ».

وأقدر مع ذلك ما رآه الأستاذ الزميل ، من أن هذه الآيات جاءت كلها في مقام التعبير عن قدرة الله المطلقة في ذاتها ، وليست تعبيراً عن واقع . ولذا جاءت في صورة الشرط : « إن يردن الرحمن بضر .. » « إن كان الله يريد أن يغويكم » « فالمراد بيان أن قدرته تعالى وإرادته لا يستطيع أحد أو شيء أن يحدّ من سلطانهما حتى لو أراد الله أن يغوي أحداً أو يظلمه ... لأن قدرته تعالى وإرادته مطلقتان كما أن علمه محيط . وهذا لا يدل على أن الله تعالى يظلم فعلاً أو يلحق بأحد ضرراً دون استحقاق . فهو تعالى قادر على العدل والظلم ولكنه لا يغوي ولا يظلم ولا يرضى لعباده الكفر ولا يسوقهم إليه . وذلك كما تقول إن فلاناً يستطيع أن يفعل كذا وكذا من خير أو شر ، ولو أراد أن يقتل فلاناً لفعل ... ولا يفهم أحد من ذلك أنه فعل أو يفعل ما يستطيعه».

وأضيف إلى هذا الملحظ الهام ، ما يقرره القرآن الكريم من ثبات السنن الكونية مع قدرته تعالى على نقضها . فلا تناقض بين قوله تعالى :

« فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »

وبين الآيات المثبتة قدرةَ الله تعالى على نقض سنن الكون وقوانين الحياة . وقد جاء بها البيان القرآني معلقة على شرط المشيئة الإلهية بحرف

«لو» المفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ، أو مشروطة بحرف «إن» المفيد تعذر الوقوع :

سبحانه ، لو شاء لجعل الليل أو النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، ولجعل ماء المزن أجاجاً ، ولاختلط الماء العذب الفرات بالماء المالح الأجاج لا يتميزان « وما كان الله ليعجزه من شيء في الأرض ولا في السمـــاء » .

لكنه تعالى لم يشأ أن ينقض سننه الثابتة في النظام الكوني .

وكذلك الأمر في سننه تعالى في أعمال خلقه : لو شاء الله لهدى الناس أجمعين ، ولجعلهم أمة واحدة ليس فيها ضال فاسق . لكنه تعالى لم يشأ ، لتمضي سنته في خلقه ابتلاء وفتنة وتمحيصاً ، « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

* * *

وعرض السيد الدكتور بعد ذلك لآيات :

الأنعام ١٠٨ : « كذلك زيّنا لكل أمة عملهم ».

الأنعام ١١١ : « ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله»

الأنعام ٥٧ : « قل إن اللهَ يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء»

ورأى فيها مشكلةً على ما سبق لي من تأويل ، إذ أسند فيها أصلُ السلوك الصالح أو الخاطىء من هداية أو ضلال ، إلى فعلِ الله تعالى ومشيئته .

ولا أراها مشكلة :

فآية الأنعام جاءت في سياق من أصروا على الضلال عمداً وصحّت إرادتهم على الشرك والعمى والعناد ، بعد تقرير مسئولية الإرادة :

«قد جاءتكم بصائرُ من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ * وكذلك نُصرف الآياتِ وليقولوا درَستَ ولنبينَه لقومٍ يعلمون * اتبعْ ما أوحي إليك من ربِّك لا إله إلا هو وأعرِض عن المشركين . ولو شاء اللهُ ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل * ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْوا بغير علم ، كذلك زيّنا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ».

واضح أن الآية في سياق تقرير حرية العقيدة ، وهي متلوّةٌ مباشرةً ، بآيات عنادهم وإصرارهم على الضلال ولو نزلت إليهم الملائكة وكلمهم الموتى :

« وأقسَموا بالله جهدَ أيمانهم لئن جاءتْهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها ، قل إنما الآياتُ عند اللهِ وما يُشعِرُكم بأنها إذا جاءتْ لا يؤمنون * ونُقلب أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ، ونَذَرُهم في طُغيانهم يَعْمَهون * ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكةَ وكلّمهم الموتى وحشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاءَ اللهُ ولكن أكثَرَهم يجهلون » . (الانعام ١٠٩ : ١١١)

وآية الرعد ، تمامها :

« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يُضل من يشاء ويهدي من يشاء ويهدي إليه من أناب » — ٢٧

واضح كذلك أنها تربط الضلالَ بعناد الكفار وممارأتهم الفاحشة ، كما تتعلق هدايةُ الله فيها بمن أناب .

وبعدها في السياق نفسه ، تتقرر مسئوليةُ الكسب ويتعلق إضلالُ الله بمن حقّ عليهم العذاب مَن المكذبين الكافرين بالله المستهزئين برسله :

« ولقد استُهزِىء برسُلٍ من قبلِك فأمليتُ للذين كفروا ثم أخذتُهم فكيف كان عقابِ * أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبَتْ ، وجعلوا للهِ شركاء قُلْ سمُّوهم ، أم تنبئونه بما لا يَعلم في الأرضِ أم بظاهرٍ من القول ، بل زُيِّنَ للذين كفروا مكرُهم وصدّوا عن السبيل ، ومن يُضلل الله فما له من هادٍ * لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ولعذابُ الآخرة أشق وما لهم من الله من واق » — ٣١ : ٣٤ .

وآخذ بما ذهب إليه الأستاذ الجليل من «أن تزيين الأعمال يمكن فهمه بمعنى تحويطها بما يجذب إليها ويغري بها من مُتَع وملذات ومنافع عاجلة وانفلات من القيود الملجمة ، في مقابل ما وضع الله في الإنسان من قوة العقل والتمييز والتبصر في العواقب .

وأن مشيئة الله تتعلق بعدم الحيلولة بين مخلوقاته وبين اتباع طريق الهدى أو الضلال . وتتحقق مشيئته بأن لا يريد الله تعالى استعمال قدرته في صرفهم وإن كان قادراً على ذلك «فهذا القدر من التخلية بين المكلف والمنطلقات التي أمامه في الخير أو الشر ، يدخل في حدود المشيئة متى كان صاحب هذه المشيئة قادراً على الحيلولة »

ثم أضيف : إن تزيين الله للناسِ أعمالَهم وحب الشهوات ، هو أيضاً من قبيل الابتلاءِ الذي يُمارس فيه الإنسان إرادته تقريراً لتبعةِ

الكَسْبِ والسعيِ ؛ وإلزاماً بما يتعلق بهما من اهتداء أو ضلال ، ومن ثوابٍ أو عقاب :

« ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا ترجعون ».

« وأن ليس للإنسانِ إلا ما سعى . وأن سعيَه سوف يُرَى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ».

* * *

وأعود من هذا الاستطراد إلى ما كنت فيه من موقف القرآن من حرية الإرادة فأقول :

إنني لا أذكر فيما قرأت من تاريخ الإسلام أن الجدل في حرية إرادتنا ظهر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أو عصر خلفائه الراشدين ؛ بل لست أعلم أن المسألة شغلت جيلَ الصحابة وقد تلقوا القرآن الكريم بروح نقية ، فلم يفهموا من إرادة الله إلا أنها حُكم نافذ وقرار عادل ، لا يُلغي الإرادةَ الكسبية للإنسان ، ولا يعفيه من تبعة اختياره الحر لعقيدته وعمله « ولو شاء ربك لآمَنَ مَن في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ».

وإنما ثار الجَدلُ فيها في العصر العباسي وقد بَعُدَ العهدُ بالفطرة العربية النقية والفكرِ الإسلامي الصافي ، وشابتْ فهمَ المسلمين لكتابِ دينهم شوائبُ دخيلة ، أضافت إلى الإسرائيليات والمذهبيات والأذواق الأعجمية ، ما حملته الشعوب الطارئة على العربية والإسلام من تراثها الفكري والروحي ، فكانت مشكلةُ الجبر والاختيار من أعقد المشكلات التي بَلبلت الأفكار وحيّرت الألباب لشدةِ ما تدافعت فيها الأقوالُ وتصادمت الأدلّةُ .

ومع أن الفرق الإسلامية كلها عالجت المشكلة على أساسٍ من النظر في القرآن والسنة ، إلا أنها ما لبثت أن خرجت من ذلك النطاق ، ثم تلقفها من أرادوا أن يتخذوا الدين أداة لتبرير الأوضاع ، فتسلطوا على الجماهير يُلِحُّون على وجدانها المؤمن بأن تدع الخلق للخالق ، ويحذرونها من غضب الله إن هي حاولت أن تُغير واقعاً أو تطمح إلى شيء من الحق والحرية والعدل ، فكلُّ شيءٍ مسيَّرٌ بقضاءِ الله وقدره ، لا حيلة لمخلوق فيه ، وكل ما نلقى مكتوبٌ على الجبين لا مَفرَّ منه ولا مرد له .

فكان ما كان من ذيوع القول بجبرية الإسلام .

وهذه آيات القرآن ، تهدينا إلى أن العزم لنا وحدنا ما بقينا في الدنيا ، والإرادة الكسبية إرادتنا ، وبهذه الإرادة الكسبية نختار لأنفسنا ما نختار محتملين مسئولية هذا الاختيار الحر .

أما الإرادة الإلهية فحكم نافذ ومصير محتوم . وإذا كان الله سبحانه يحكم علينا بما نريد لأنفسنا ، فليس ذلك إلا تقريراً حاسماً للتبعة ، وتأكيداً إلهياً لحرية إرادتنا ، وإلزاماً عادلاً لنا بمسئوليتها .

* * *

وتلخيصاً للموضوع أقول ، إن القضية إذا أريد فهمُها من القرآن ، فلا يجوز أن نأخذ ببعض آياته في الإرادة ونعرض عن بعض ، فيذهب كل فريق بما يؤيد رأيه . وإنما نستقرىء كل آيات الإرادة ، فتهدينا إلى ان مفهوم إرادتنا فيه غير مفهوم إرادة الخالق : إرادتنا كسبية حرة فيما نعمل ، وإنما الجبرية في حتمية المصير لما أردناه باختيارنا ، والحكم الإلهي العادل في إلزامنا تبعة اختيارنا الحر ، إلزاماً جبرياً لا مفر منه ولا مهرب .

وبغير هذه الحرية ، تنتفي حكمةُ إرسال الرسل ، وتتعطلُ قدرة الإنسان على حمل تكاليفِ أمانته في هذه الحياة الدنيا .

* * *

وبعدُ فما ينبغي أن يفوتنا أن ما يسميه عصرُنا «حقوق الإنسان» لا يأتي في القرآن بصفة الحقوق ، وإنما هي فيه فروض ملزمة وتكاليف واجبة .

والفرقُ بين أن تكون حقوقاً ، وأن تكون تكاليف مفروضة ، هو أن الإنسان يملك أن يتنازل عما هو من حقه ، وأن يفرط فيه .

على حين لا يحلُّ له أن يتخلى عما كُلِّف به وفُرِضَ عليه .

في الإسلام ، ليس لإنسان أن يفرط في حريته بالعبودية لغير خالقه وحــده .

كما ليس له أن يقبل الإكراه في الدين ، ولا من حقه أن يتخلى عن أمانة الكلمة وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا أن يُعطِّل حرية عقله وفكره ، تحت أي ضغط من إرهاب أو إغراء ...

(٢)

مَصِيرُ الإنسَانْ

الوجُود . . . والعَدَم

« وقالوا ما هي إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا
وما يُهلكنا إلا الدهر ، ومَا لَهم بذلك من
عِلْمٍ إنْ هم إلا يَظنُّون »

(سورة الجاثية)

إن تكن حياة الإنسان لا تعدو هذه الرحلة العابرة من المهد إلى اللحد ، فما أبشعها من مأساة تدعو إلى القنوط وتخنق في الأحياء منا إرادة الحياة !

ومن قديم ، حاولت البشرية قبلَ عصر الأديان أن تقاوم فكرةَ العدم ، وكأنها أدركت بفطرتها أن كل مغريات الوجود لا تكفي لحماية الإنسان من رفض حياةٍ تنتهي حتماً بهذا المصير الرهيب .

ولعلها في عصورها البدائية ، كانت مدفوعةً إلى هذه المقاومة بغريزة البقاء ، أو محكومة بالسنن الكونية التي تريد لهذه الحياةِ أن تستمر .

ذلك لأن رفضَ الحياة يعوق استمرارَها ، ويُغري البشرية بالتمرد على ما تُلقيه عليها من أعباءٍ فادحة ثقال ، وبخاصةٍ في تلك العصورِ الخالية التي عاشتْها البشرية في صراع منهك مع قوى الطبيعة العاتية وأسرار الكون الملغزة ، تجد وراءَ كلِّ خطوة تخطوها عدوّاً خفياً أو ظاهراً يترصد لها ، دون أن تملكَ وسيلةً للبقاءِ سوى الحرصِ على البقاء .

وأرهف ذلك الصراعُ المضني طاقة كامنة في البشرية ، ربما أدهشت الإنسانَ نفسه وهو يواجه أعداءه أعزلَ من أي سلاح إلا ما يثيره التحدّي في كيانه من رغبةِ النضال دفاعاً عن وجوده . فمضى يتابع نضالَه الباسل في المعركة فكلما حقق انتصاراً في جولة من جولاتها ازداد قدرة على مواصلة الصراع بمقدار ما أضاف إلى جعبته من أسلحة معنوية

ومادية . ومن ثم قوِيَ تشبثُه بالحياة بعد أن فهم بعض ألغاز الوجود وذلّلَ بعض العناصر الكونية لخدمته ، فلم يعد حرصُه على البقاء مجردَ استجابة غريزية أو خضوعٍ لسنةٍ كونية فحسب ، بل صار كذلك يستبشع فكرةَ العدم لأنها تُدمّر فيه إرادةَ الكفاح ، إذ لا معنى لذلك الدأبِ المضني في تحقيق وجوده وفرض سلطانه على الكائنات ، والموتُ يتربصُ به ليحسمَ ذلك العبثَ العقيمَ بغمضةِ عينٍ لا يقظةَ بعدها أبداً!

* * *

وكانت عقيدةُ البعث في الديانة المصرية القديمة ، محاولةً مستبسلة لمقاومة فكرة العدم بعد الموت ، وهذه العقيدة هي التي هيّأتْ لإنسان وادي النيل قدرتَه المبدعة على بناء الحضارة البشرية الأولى .

على حين التمس إنسانُ وادي الرافدين القديم — الذي يسامي المصريَّ عراقةَ التحضر — أملَه البعيد ، في تجدُّد الحياة الإنسانية يتمثل في بعثٍ دوري متجدد ، بعد طولِ تأمل في دورة الفصول الأربعة ، حيث تتجددُ الحياةُ في كل ربيع وتنضج في الصيف بعد أن تذبلَ في الخريف وتموتَ في الشتاء . وإن تكن المعتقدات السومرية ، فيما نعلم ، قد أصرّتْ على قصرِ الخلود على الآلهة ومن تصطفيهم من البشر الصالحين . ولعل «نوحاً» وحده ، هو الذي آثرته السومرية بهذا الخلود لأنه أنقذ البشرية من الطوفان ، على حين أبتْ الملحمةُ البابلية «جليجامش» الخلودَ على ذلك الملك البطل المصلح ، لكونه من البشر . ومَنَحَ مجمعُ الآلهة «الراعيَ تموز» خلوداً دورياً مؤقتاً ، استجابةً لشفاعة حبيبته الإلهة «عِشتار» فكان تموز ، على ما تحكي الأسطورة ، يحيا في أول الربيع

كلَّ عام ، فتزدهر الأرضُ وتنتعشُ الكائنات الحية ويغني الرعاة ، ثم يموتُ في آخر الصيف إيذاناً بذبولِ الحياة وموتها .

كما كانت عقيدةُ التناسخ عند الهنود ، محاولةً أخرى للفرارِ من فكرة الفناء الأبدي بالموت .

وأطال الفلاسفة الأقدمون التأمل في «الكون والفساد» فظهر القول بخلود الروح تعزية لهذا الإنسان عن بِلَى جَسَدِه .

على حين اتجه الشعراء وأصحابُ الفن ، إلى التماس العزاء من الأمل في بقاء ما يُخلقون ويبدعون ، بعد أن يرحلوا عن الدنيا إلى غيرِ عودةٍ أو مآب ...

* * *

وجاء عصرُ الرسالات الدينية المعروفة لنا ، والبشريةُ تناضل في سبيل استنقاذ إرادة الحياة من التدمير الذي يحيق بها إن هي استسلمت لليقين بالعدم ، فبشرتْها رسالات الدين بحياةٍ أخرى بعد الموت ، يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدمتْ يداه في الحياة الدنيا .

والبشرى مصحوبة بنذير ...

وقد صكَّ النذيرُ سمعَ عُبادِ الدنيا من عهدِ ما بعد الطوفان ، فاستهزأوا برسول الله إليهم :

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرةِ وأترفناهم في الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بَشَرٌ مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشربُ مما تشربون . ولئن أطعتم بَشراً مثلَكم إنكم إذنْ لخاسرون . أيَعِدُكم

أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخْرجون . هيهاتَ هيهات لما تُوعَدون . إن هي إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا وما نحن بمبعوثين ».

(المؤمنون ٣٣ : ٣٧)

لكن البشرية المتدينة وجدتْ في البشرى بحياةٍ ثانية بعد الموت ، ما يغريها بمواصلة الكفاح ويقوي عزيمتها في الصراع بين الخير والشر ، وما يعطي حياتَها الأولى الفانية ، معنى وقيمة تستحق من أجلهما أن تُعاش .

* * *

ومضت الحياة لا تتوقف ..

وتابع الإنسان نضالَه الدائب من أجل انتصار الحياة .

واستراح المؤمن بالدين إلى رفضٍ فكرة العدم التي تجعل وجودَه في الدنيا عبثاً عقيماً ومحنةً لا تطاق ، كما تجعل همومَ رحلته الدنيوية وتكاليفَها عبئاً باهظاً لا يُحتمل ، وتشدُّ بصرَه ووجدانه وفكره إلى الحفرة التي تنتظره في نهاية المطاف ، رِمّةً عِفنةً ينهشُها الدود ويعبث بها البِلَى ...

وعلى الأمل الموعود في اللقاء بالعالم الآخر ، هان على الأحياء منا أن يودعوا أحبابَهم في الحفرة الموحشة ، وأن يطيقوا بَعدهم محنةَ العيش إلى أن يحين الأجلُ المحتوم فيلتئم الشمل الممزق . ولولا هذا الرجاء لألقى بهم اليأسُ في جحيمٍ من العذاب لا نجاةَ منه إلا بالفرار إلى الموت .

* * *

ورسالات الدين قد ختمت بالإسلام الذي أعلن أنه مصدق لها . وقد استخلص الجوهر النقي للدين الواحد الحق ، مما شابه من رواسب عصور

السحر والوثنية وعبادة الأبطال . ففي كتاب الإسلام إذن ، نستطيع أن نلتمس الكلمة الأخيرة للدِّين في مصير هذا الإنسان الذي خاض معركته الطويلة المضنية من أجل الحياة ، وأعياه مع ذلك أن يتحدى قانونَ الموت القاهر النافذ ، الذي يسري على أفضل الرسل وأنبه العباقرة وأنبغ الأطباء وأشجع الأبطال وأعتى الجبابرة ، كما يسري على أضأل حشرة هينة هائمة في الكون الواسع العريض ...

* * *

والإقناعُ بحياة أخرى بعد الموت ، مسألة بالغة الصعوبة ، إذ يشق على الإنسان أن يتصور رجعةَ الحياةِ بعد أن تفنى الأجساد . والذين سبقونا إلى المقابر لم يعد منهم عائدٌ يحدثنا عما هناك ، والعلمُ عاجزٌ حتى اليوم عن اقتحام تلك المنطقة الغيبية المجهولة التي لا تزال خارجَ نطاق اختصاصه ، وكلُّ ما يُرجف به المرجفون من قولٍ بالعدَمِ المطلَق بعدَ الموت ، لا يعدو أن يكونَ في حساب العلم نفسِه رجْماً بالظن . وصدقت الآية القرآنية :

« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علمٍ إنْ هم إلا يظنون ».

(الجاثية : ٢٤)

وإذا كانت الأديان تَكِلُ المؤمنَ إلى إيمانه الذي يفرضُ عليه التصديقَ بما جاء به الرسل من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا اللهُ ، فإن كتاب الإسلام الذي خُتمت به رسالات الدِّين إيذاناً بأن البشرية بلغت رشدها ، يقدر حاجة الإنسان إلى برهانٍ يقنعه بالحياة الأخرى ، ويتوقع جدلَه في هذه المسألة الغيبية : « وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلا » .

* * *

وقد سجل القرآن ما أثير من جَدَلٍ في البعث ، فتلا علينا شبهاتِ الذين أنكروه . ثم لم يدعْها تمر مكتفياً بأن يَكِلَ الإنسانَ إلى إيمانه ، بل حَرِصَ على أن يرد تلك الشبهات بالمنطق الذي تطمئن إليه الإنسانيةُ دون أن تحتاج فيه إلى أكثر مما تهيأ لها من إلهام الفطرة وهدى البصيرة ووسائل التأمل والنظر ، لكيلا يكون الاطمئنانُ وقفاً على زمانٍ بعينه أو مرتبطاً بظروفٍ وأحوال خاصة لا تتاح لكل إنسان .

وأحاول فيما يلي ، أن أتدبر ما جاء به البيان القرآني من جَدَلٍ في ذلك المصير الذي هو مشغلةُ الفكر الإنساني منذ الأزل وإلى الأبد...

جَدلٌ في البَعْث

« أوَ لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خَصيمٌ مُبين • وضربَ لنا مَثَلاً ونسيَ خَلْقَه قال من يُحيي العظامَ وهي رميم • قل يُحييها الذي أنشأها أوَّلَ مَرَّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم » .

(سورة يس)

« يا أيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تَدعُونَ من دونِ اللهِ لن يَخْلُقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يَسْلُبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعُفَ الطالبُ والمطلوب »

(سورة الحج)

يبدو أن البشرية على طول ما جاهدت مستبسلة للفرار من فكرة العدم ، لبثت على مدى الحقب والأدهار غيرَ مطمئنة إلى تلك المحاولات القديمة التي التمست بها الأمل في ألا يكون الموت هو النهاية الأخيرة لقصة الإنسان ...

وفي أعماقها ، كانت الحيرةُ تضنيها وهي تحتال بوسيلةٍ أو بأخرى على التدبير لما تعلّقت به من رجاءٍ في عودةِ الحياة بعد الموت ، بمثل تحنيطِ جثث الموتى وتزويد قبورهم بكل ما تعلقوا به من متاع دنياهم الفانية . ونحتِ تماثيلَ للبشرِ الفانين ، تقاوم الفناء ...

تبريراً لصراعها المرير في رحلة الدنيا ، وحمايةً لإرادة البقاء في الأحياء.

وما كان أحراها أن تتخلص من ذلك الهم الذي أرقها ، حين جاءتها رسالة الدين الأولى فمنحتْها الأملَ المرجو الذي ما تخلت عنه قط منذ بدأتْ حياتَها على هذه الأرض !

لكن بقيةً من الشك والحيرة ظلت تساورها وهي تُصغي إلى وعد الدين ، فتحرمها طمأنينةَ القلب وراحة العقل . وإذا كانت قد تطلعت إلى ما يمنحها هذه الطمأنينة ، فعُذْرُها أن الأملَ البعيدَ كان عزيزاً وغالياً ، بقدرِ ما كان تصورُ تحققهِ صعباً وعسيراً !

* * *

وتتابعت رسالات الدين تؤكد وجودَ الحياة الأخرى ، حتى جاء

الإسلام فلم يعد الإنسان ينتظر رسالة جديدة تُضيف كلمةً إلى ما جاء به الدين عن الحياة الأخرى .

ومن ثم حرص كتاب الإسلام على الاستجابة إلى ما ظلت البشريةُ تلتمسه من اقتناع بإمكانِ تحقُّق أملِها البعيد ، مقدراً ما في طبيعة الإنسان الرشيد الواعي ، من ميل إلى الجدل ، ومقرراً حقه في أن يطلب ما يطمئن به قلبُه ولو كان متعلقاً بمسألة غيبية .. وللإنسان أسوةٌ في إبراهيم عليه السلام ، وقد تلا علينا القرآن من حديثه :

« وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تُحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبي » .

ولم يجرح هذا السؤال إيمان إبراهيم ، ولا حرمه شرف اصطفائه نبيّاً وخليلا ...

* * *

فماذا قدم كتاب الإسلام إلى الإنسان لكي يطمئن قلبُه إلى تحقق أمله في حياة أخرى تجعل لنضاله في الدنيا قيمة ومعنى ؟

أو بتعبير آخر :

ماذا قدم الدين في ختام رسالاته ليريح البشريةَ مما طالما أضناها من حيرة وقلق وهي تقاوم فكرةَ العدم وتتشبث بالرجاء في ألا يكون وجودنا في الدنيا عبثاً ينتهي بضجعة القبر ؟

لقد أثبت كتاب الإسلام ما كان من جدَل الأولين في البعث ، ورد عليه بالمنطق الذي يُثبته النظرُ الحرُّ والبصيرةُ المميزةُ والتأملُ الواعي ، دون أن يحتاج الإنسان فيه ، كما أشرت من قبل ، إلى ظروفِ

خاصة أو وسيلة من وسائل المعرفة الكسبية ، إن أتيحت لعددٍ من الناس في بيئة معينة أو عصر خاص ، فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية .

وأقرب ما يلفتنا إليه كتاب الإسلام . ما نراه في الواقع المشهود من حياة الأرض بعد موتها ، وما نبصره بأعيننا من خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي ، توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العقلي أو المستحيل العادي :

« ومن آياته أنك ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربَتْ ، إن الذي أحياها لَمحيي الموتى إنه على كلِّ شيءٍ قدير » .

(فصلت : ٣٩)

« يُخرِج الحيَّ من الميتِ ويُخرج الميتَ من الحيِّ ويحيي الأرضَ بعد موتها وكذلك تُخرَجون ».

(الروم : ١٩)

(وانظر معها آيات : البقرة ١٦٤ ، النحل ٦٥ ، الجاثية ٥ ، فاطر ٩ ، الفرقان ٤٩ ، العنكبوت ٦٣ ، يس ٣٣ ، ق ١١ ، وكذلك آيات : آل عمران ٢٧ ، الأنعام ٩٥ ، يونس ١٩ ، الحديد ١٧)

* * *

وليس هذا فحسب ، ما يقدمه الدينُ في كتاب الإسلام إلى الإنسان ليطمئن قلبه إلى إمكان البعث ، بل إنه كذلك يضع أمام بصرِه وبصيرتَه وحِسِّه ووجدانه ، آيةَ القدرة الإلهية المعجزة في خلقِ الإنسان أولَ مرة ، فلن يُعْيِيَها أن تعيدَه مرةً أخرى ، وذلك أهْوَنُ .

وتوشك الآياتُ القرآنية في خلق الإنسان أن تكون في الغالب الأعم موجهة إلى الاستدلال بهذه لنشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى .

ومن هذه الآيات ، ما يأتي في سياق الرد على الكافرين في هزئهم بنذير الآخرة :

« بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب . أئذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد ... »

« أفعَيِينا بالخلقِ الأولِ ، بل هم في لَبْسٍ من خَلْقٍ جديد »

(ق ٣ : ١٥)

« إنهم كانوا قبل ذلك مُترَفين . وكانوا يُصرّون على الحِنْثِ العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أوَ آباؤنا الأولون ... » ؟

« ولقد علمتم النشأةَ الأولى فلولا تَذكّرون ».

(الواقعة ٤٥ : ٦٢)

« وقالوا أئذا كنا عظاماً ورُفاتاً أئنا لمبعوثون خلْقاً جديداً . قل كونوا حجارةً أو حديداً . أو خَلقاً مما يكبُرُ في صدورِكم فسيقولون مَن يُعيدُنا ، قل الذي فَطركم أولَ مرة ... »

(الإسراء : ٤٩)

* * *

ومنها ما يأتي دفعاً لحيرة الإنسان فيما يشغل بالَه من أمر تلك الحياةِ الآخرة التي أكدتها رسالات الدين ، وما يجهده من التفكير في تصور إمكان تحققِها :

« ويقولُ الإنسانُ أئذا ما متُّ لسوف أُخرَجُ حياً . أوَ لا يذكرُ الإنسانُ أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً » ؟

(مريم : ٦٦)

« أيَحسَبُ الإنسانُ أن لن نجمعَ عظامَه . بلى قادرين على أن نُسَوِّيَ بنانَه » .

« أيحسب الإنسانُ أن يترُك سُدىً . ألم يكُ نطفةً من مَنِيٍّ يُمْنَى . ثم كان عَلَقةً فخَلَقَ فسوَّى . فجعل منه الزوجين الذكرَ والأنثى . أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيِيَ الموتى » ؟

(القيامة)

« فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ . خلق من ماءٍ دافقٍ . يخرجُ من بين الصُّلْبِ والترائب . إنه على رجعِه لقادر »

(الطارق)

« أو لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه من نُطفَةٍ فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مَثَلاً ونسِيَ خلْقَه قال مَن يُحيي العظامَ وهي رميم . قل يُحييها الذي أنشأها أولَ مرةٍ وهو بكل خلق عليم ».

(يس : ٧٧)

وكلها آيات مكية .

ومعها من العهد المكي كذلك ، آيات : الروم ٦ ، ٢٧ . والسجدة ٦ ، ١٠ . والمؤمنون ٣٣ ، ٨١ . والصافات ١٦ ، ٥٣ .

وبعدها في العهد المدني ، نزلت آيةُ الحج ، والخطابُ فيها للناسِ كـــافةً :

« يا أيها الناسُ إن كنتم في ريبٍ من البعث فإنا خلقناكم من

تراب ثم من نطفة ثم من علقة ٍ ثم من مضغة مُخَلَّقَة ٍ وغيرِ مخلقة ٍ لنبين لكم ، ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسَمًّى ، ثم نُخرجكم طِفلاً ثم لتبلغوا أشُدَّكم ومنكم مَن يُتوفى ومنكم مَن يُرَدُّ إلى أرذلِ العمرِ لكيلا يعلمَ من بعدِ علمٍ شيئاً ، وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ بهيج » — ٥

بهذا المنطقِ ، يقدم البيانُ القرآني إلى الإنسان الآياتِ الشاهدة على أن الذي خلقه أولَ مرة ، قادرٌ على أن يعيد خلقَه مرة أخرى ، فإذا شقَّ على الإنسان أن يتصوَّر حياةً بعد موتٍ ، فليتأمل في الكونِ يرَ شواهدَ من الواقع الحسي ، في الأرضِ تحيا بعد موت ، وفي الكائنات الحية تخرج مما يبدو لنا هامداً ميتاً .

• • •

لكن هذه الآيات إذا أقنعت الإنسانيةَ المتدينةَ التي تؤمن بخالقها ، فقد بقي هناك مجالٌ لما يثير الملحدون من جَدَلٍ في أن اللهَ هو الذي خلق الإنسان أولَ مرة !

ولا يسكتُ القرآن عن هذا ، بل يقدم برهانَه الذي يجلو الريبةَ ويُفحمُ المنكِرَ .

والسؤال الذي عرضه كتابُ الإسلام بصيغة التحدي لكلِّ منكِرٍ أو مرتابٍ ، هو :

« أم خُلقوا من غيرِ شيء أم هم الخالقون » ؟

ثم نزلت آية الحج المدنية ، فضربت للناس المثلَ الصادع وساقتْ البرهان المفحم :

« يا أيها الناسُ ضُرِب مَثَلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تَدْعُون من دونِ اللهِ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعُف الطالبُ والمطلوب ».

ولقد مضى على الناس منذ ضَرَبَ لهم كتابُ الإسلام هذا المثلَ ، أكثر من أربعة عشر قرناً ، ارتاد فيها الإنسانُ من مجهول الآفاق ما ارتاد ، وتابع نضالَه الباهر العجيبَ في كشف ألغاز الوجود وأسرار الكون ، إلى أن اقتحم الفضاءَ . ووصَلَ إلى القمر وتجوَّل على سطحه .

وما يزال المثل القرآني يتحدى كلَّ جبروتِ الغزاة وعبقريَّةِ العلماء .

وما يزال على الذين غرهم الغرورُ بما حقق إنسانُ العصر الحديث من معجزات العلم ، أن ينسخوا ذلك المثلَ ، بأن يجتمعوا فيخلقوا ذباباً ، أو يستنقذوا شيئاً سلبتهم إياه هذه الحشرة الضئيلة التي تقتلها ذرةٌ من هواء مشبّع بمبيدِ الحشرات ، وتستطيع مع ذلك أن تسلبَ مخترِعَ المبيدِ حياتَه ، بِلَمْسةٍ هَيِّنَةٍ خاطفة تحمِلُ إليه جرثومة داء مميت .

* * *

سيقولون : وماذا عن الجهود الجادة المبذولة لاستنقاذ الحياةِ من الموت ؟
ولهذا حديث خاص يلي ...

العَـرَضُ.. والجَوْهـَـر

« فأمّا الزبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما
ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ ، كذلك
يضربُ اللهُ الأمثالَ »

(سورة الرعد)

ماذا عن الجهود الجادة المبذولة لمحاولة استنقاذ الحياة من الموت ؟

ليست المحاولة في ذاتها جديدة ، فالبشرية من قديم تحاول أن تطيل في أمد الرحلة الدنيوية بكل ما أطاقت من جهد وما أسعفها من وسائل .

وقد احتالت على ذلك في عصور بدائيتها بالضراعة إلى آلهتها وتقديم القرابين إليها . حتى إذا بزغ عصرُ الإنسان ، حلّ الطبُّ والعلاجُ محلّ السحرِ والرُّقَى ، واستُبدل الدواءُ بالتعاويذ والقرابين . وحقق الإنسانُ انتصاره الرائع في هذا المجال بحيث أمكنه أن يهتديَ إلى سرِّ كثيرٍ من الأمراض المستعصية وأن يكتشف دواءً لها .

ويغريه اليومَ الأملُ في مزيدٍ من النصر ، بعد أن توصل إلى اختراع «قطع غيار» لبعضِ ما يتلف من أجهزة الجسم البشري . والأنباء تحمل إلينا بين حين وآخر ، عجيبَ المحاولات المبذولة في هذا الميدان ، ولعل من أعجبها تجارب عمليات نقل الأعين والقلوب والكلى ، ثم تلك المحاولات التي جرتْ في روسيا لإنقاذ عالمها الذري الكبير من موت محقق ، وقد وُصِفَتْ هذه المحاولةُ بأنها انتصارٌ على الموت .

والواقع أن ما يبدو لنا انتصاراً على الموت ، ليس في حقيقة الأمر سوى إنقاذ للحياة حتى يحين الأجل المحتوم .. وعندئذ لا يجدي طبٌّ ولا دواء ، كما لم تُجد من قبل ضراعةٌ وقربان ، ولا سحرٌ ورُقْية . ولا تستطيع جهودُ أطباءِ العالم مجتمعين ، أن تستبقي الحياةَ لحظةً واحدة إذا ما جاء الأجل :

« فإذا جاء أجلُهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ».

ولنا أن نعد كلَّ تقدم في الطبِّ والعلاج انتصاراً للحياةِ ، بمعنى أنه يحميها من عذاب الألم ومذلةِ الضعف طالما بقيتْ في العمر بقيةٌ لم تستنفد ، وبمعنى أنه يستبقى لهذا الإنسان طاقتَه الحيوية ما عاش .

وليس بمستبعد أن تثمر الجهود العلمية والطبية ، فيتضاعف عُمرُ الإنسانِ ، وليس بمستبعدٍ كذلك أن تصيرَ الشيخوخةُ مَرَضاً يعالَجُ فيحفظ للإنسان في أرذلِ مراحلِ العمر قدراً من الحيوية يستطيع به أن يمارسَ الحياة ويتذوقَها .

لكن ... هل يعني انتصارُ الحياة ، الانتصارَ على الموت ؟

في مسمعي صدى باقٍ من بيت شاعرنا الجاهليِّ «طرفةَ بنِ العبد» :

أرى الموتَ أعدادَ النفوسِ ولا أرى
بعيداً غداً ، ما أقربَ اليومَ من غدِ

فليت شعري هل يستطيع عباقرة عصر الفضاء أن ينقضوا تلك المعادلة الرهيبة : « الموت : أعداد النفوس » التي قالها شاعرنا القديم بفطرتِه البدوية المرهفة ؟

هيهات ...

* * *

ولم يكن الدينُ في حاجة إلى أن يقنع الإنسان بحقيقة الموتِ الصارمة، ومع ذلك نرى كتاب الإسلام يُلِحُّ في تقريرها ، وكأنه بذلك يقدر غفلةَ الإنسان في نشوةِ الحياة الدافقة وضجيج صراعِها الصاخب ، ليكونَ التذكيرُ بالموت كَبْحاً لغرورِ الإنسان ، ورَدْعاً له عن الشر والطغيان ، وتذكرةً له بالحياة التي يريد له الدينُ أن يتزود لها :

«وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً ، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموت»

«أينما تكونوا يُدرككُم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مُشَيَّدة»

والملحوظ في سياق آيات التذكير بالموت ، أن القرآن الكريم يعمد إلى التهوين من شأن الحياة الدنيا، كيلا يغترّ بها الإنسان فيطغى ويضل طريقَه إلى الحق والخير ...

وأكثر ما تأتي الآيات في هوانِ الدنيا وفنائها ، مقترنةً بالحديثِ عن الحياة الآخرة وبقائها :

«كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ وإنما تُوفَّون أجوركم يومَ القيامةِ ، فمن زُحزِحَ عن النارِ وأُدخل الجنةَ فقد فاز ، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور » .

« قل إن الموتَ الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تُردُّون إلى عالمِ الغيبِ والشهادةِ فينبئكم بما كنتم تعملون ».

وهذا الاقتران يبيح لنا أن نقول :

إن كتاب الإسلام لا يشق على الإنسانية بالتزهيد في الدنيا والتذكير بفنائها ، لكي ترفضها يأساً منها ، وإنما يرى للإنسانية أن تأخذَ من حتمية الموت عبرةً تحميها من الأثرةِ والشر والتهالك على المتاع الدنيوي الزائل ، كما تتخذ من إيمانها بالحياةِ الآخرة ما يعصمها من محنةِ العدم التي روّعت البشرية منذ بدأت حياتَها على الأرض . فبقدر ما يلح القرآن الكريم في التذكير بالموت وفناءِ الحياة الدنيا ، يلح كذلك في مقاومة فكرة العدم ، وفي ترسيخ الإيمان بحيـاةٍ أخرى باقية يرتهنُ

مصيرُ الإنسانِ فيها بما قدَّم في دنياه ، تأصيلاً لدعوة الدين إلى الحق والخير والعمل الصالح .

* * *

هنا نعود على بدء ، فنذكر ما هدى إليه الاستقراء من الفرق الواضح في الدلالة بين البشر والإنسان في البيان القرآني . فالبشريةُ فيه هي هذه الآدمية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، وتجوز أعراضُها المادية على كلّ أفرادِها على وجه المماثلة .

وليس الأمر كذلك في «الإنسان» حيث يؤذن البيان القرآني بأنه الذي يحتمل تبعات الأمانة والعهد والوصية وأعباء التكليف والمسئولية والمكابدة ، وهو الذي يختص بالعلم والعقل والبيان . وفي كل هذا ، يتفاوت أفراد الإنسانية بمقدارِ ما يتحملون من عبئها وتبعاتها ، وما يكابدون من مشاق المجاهدة في سبيل تحقيق مثلها الأعلى . فلا يستوي الخبيث والطيب ولا المؤمن والفاسق ، ولا العالم والجاهل ، ولا المجاهد والقاعد ، كما لا تستوي الحسنة والسيئة ولا الظلمات والنور ...

* * *

فهل لنا إذن ، أن نلمح من هذا التمييز الواضح الصريح بين البشر والإنسان بعضَ السرِّ المحجبِ الذي شغل الإنسانَ منذ كان ، فندرك أن رحلتنا العابرة على الجسرِ ما بين الحياة والموت ، ليست في البيان القرآني إلا ابتلاء لهذا الإنسان الذي تصدى لحمل الأمانة وقد أشفقت منها السموات والجبال والأرض وأعفاها التسخيرُ من تبعة المسئولية ؟

وموضوع الابتلاء ، فيما يسمح لي الاستقراء أن أطمئن إليه ، هو مكابدة السعي لتحقيق الوجود الأمثل للإنسان ، واقتحام العقبة لمشارفة آفاق

الحق والخير ، والمجاهدة الباسلة لمقاومة نوازع الأثرة والشر وجواذب الفتنة بمغريات الدنيا وعَرَضِها الزائل الفاني :

«الذي خلقَ الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ».

(الملك : ٢)

«وما جعلنا لبشر من قبلِك الخلدَ أفئن متَّ فهم الخالدون . كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجَعون ».

(الأنبياء : ٣٥)

«إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوَهم أيهم أحسنُ عملا».

(الكهف : ٧)

«إنا خلقنا الإنسانَ من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً ».

(الإنسان : ٣)

(وانظر معها آيات : الأعراف ١٦٨ ، هود ٢٧ ، النحل ٩٢ ، الدخان ٣٣ ، محمد ٣١).

* * *

وبهذا الابتلاء لا تعود رحلةُ الإنسان العابرة في الدنيا عبثاً باطلاً ، بل يموت الآدمي البشر وتبقى القيم العليا والكلمة الطيبة والعمل الصالح ، ذخيرةً للإنسانية على مسار الزمن ، ومناراتٍ هاديةً لها على الطريق ، فيتحقق للإنسان من الخلود بها ما لا يتحقق له من تلك المحاولات القديمة كتحنيط الجثث ونحت التماثيل وإقامة النصب التذكارية ، إذ مهما تبلغ المهارةُ في التحنيط فمآل الجثثِ حتماً إلى تعفنٍ وبِلَى ، ومهما

تكن صلابةُ الحجر الذي يُنحَتُ منه التمثال ، فلن يَعْصَى على أفاعيل الزمن .

والقيمُ الإنسانية وحدَها هي التي تخلد وتبقى :

«فأما الزبَدُ فيذهب جُفاءً ، وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض ... »

* * *

ومن هنا ، يتميز ما هو فانٍ مِن البشر ، وما هو باق من الإنسان ، ولا تزال الإنسانية تجد فيما خلّف لها الصفوةُ من بنيها على تتابع الأجيال ، ما تُضيفه إلى رصيدها من ذخيرة الطاقة على استمرارِ الحياة ؛ وما تتقدم به من خُطاها على مدارج الترقي .

وإذا كانت الإنسانية قد فزعت من فكرة العدم وتشبثتْ بأمل البقاء بعد الموت ، فإن الدينَ يمنحها هذا الأملَ المرجُوَّ ، مع توجيهِ كلِّ طاقاتها إلى المقاومة الباسلة في معركة الصراع الأبدي بين الخير والشر وبين الحق والباطل ، وإلى المجاهدة الشاقة في سبيل تحقيق الوجود الأسمى لهذا الإنسان ، الذي أمر اللهُ ملائكته أن يسجدوا لأبيه آدم !

* * *

ترى هل يكون للإنسان في هذا بعضُ العزاء عن مأساة بِلَى الأجساد وانتهاكِ الرمم ؟ تلك المأساة التي روّعتْ شاعري «أبا العلاء» فاختلط في سمعِه الشدوُ بالنواح ، ووجد أن حزناً في ساعةِ الموت أضعافُ سرورٍ في ساعة الميلاد :

صاحِ هذي قبورُنا تملأُ الرحـ ـب فأين القبورُ من عهدِ عادِ

خفِّفِ الوطءَ ماأظنُّ أديمَ الأر ضِ إلا من هذه الأجساد

وقبيحٌ بنا وإن قدُمَ العهـدُ . هوانُ الآباءِ والأجدادِ

. . . .

رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضداد
ودفينٍ على بقايا دفين في طويلِ الأزمانِ والآباد

(سقط الزند)

* * *

إذا الحيُّ ألبسَ أكفانَه فقد فَنِيَ اللبسُ واللابسُ
وَيبْلَى المُحيّا فلا ضاحكٌ إذا سَرَّ دهرٌ ولا عابسُ
يجاور قوماً أجادوا العظات وما فيهم أحدٌ نابس !

(اللزوميات)

«يا جدثُ ، بعد موتي . هل تسمع ندائي وصوتي ؟ يا أرضُ . لا قرضَ عندكِ ولا فرض ، أودِعْتِ المالَ فرددته سالماً ، والخليلَ فأكلتِه راغماً ، ليتَكِ أكلتِ المالَ ورددتِ الخليل ...

«وصيح بالأرضِ اقبلي رَهْنَكِ وبالنزيلِ فاغْدِري ! وحيزَ المالُ ونُبِيَ العَهْدُ وانتوى عن الإنسان أنيسُه ذو الودِّ القديم ...

«يا معشرَ أهلِنا الصالحين ، بئس القومُ نحن ! لم نُوفكم الواجبَ من الوفاء : شربنا بعدكم الباردَ ولبِسْنا ناعمَ اللباسِ ، وأظلّتْنا الجُدُرُ وأفنيةُ الدور ، لو كنا أهلَ حِفاظٍ عفْنَا بعدكَم النُّطَفَ العِذَابَ...»

(الفصول والغايات)

عَالَمُ الرُّوح

« ويسألونكَ عن الروحِ ، قل الروحُ من أمر ربِّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ».

(سورة الإسراء)

لم يفت الإنسانَ من قديم ، أن يفرق بين عنصره المادي مُمَثَّلاً في الجسدِ ، وعنصرهِ المعنوي ممثلاً في الروح . وقد ربط الحياةَ والموتَ بهذه الروح الذي تمنحه الحياةَ ، فكانت الروحُ تعني النفسَ ، من حيثَ لا بقاءَ لنفسٍ بغير روح .

وشُغِلَ الفلاسفةُ والمفكرون من قديم الزمان بأمرِ هذه الروح . وقلما نلحظ في كلامهم عنها أنهم يفرقون بينها وبين النفس ، فهم يذكرون الروحَ ويعنون بها النفسَ ، كما يذكرون النفسَ ويعنون بها الروح . وقد أعياهم أن يصلوا إلى كنهها ، وإن عرفوا من ظواهرها أنها سِرٌّ الحياة ، متى فارقت الجسدَ فسَدَ ومات ..

ومن حيث كانت سرَّ الحياةِ ، انتفى عند أكثرهم القولُ بموتِها وفنائِها ، لأن ما به تكونُ الحياةُ لا يفنى ولا يموت ...

أما من أين جاءت ، وإلى أين تمضي ، فذلك ما تحيرت فيه العقولُ والأفكار ، وتاهت الظنونُ وضلّت الأوهام .

وأكثر الفلاسفة اليونانيين ، على أن الروح عنصرٌ لطيفٌ مختلف عن البدن ، متى فارقته عادتْ إلى عالمها العلوي « سابحةً في عوالمِ الفلكِ غيرَ قابلة للموت » كما قال «فيثاغورس» لديوجينس . وعند «أفلاطون» أنها جوهرُ الإنسان ، وهي ذاتٌ مستقلة عن البدن : فليس جزءاً من ماهيتها ولا يدخل في تعريفها . وهي تهبط مُكرَهةً من عالم عُلْوي

إلى أحدِ الأجسام ، ومن الواجب أن تعمل ما استطاعت على التطهر من الأدران التي تلحقها بسبب وجودِها في سجن الجسد . والموتُ هو سبيلُ الخلاص لها . والنفوسُ خالدة لا تموت .

و « أرسطو » يراها كذلك مستقلة عن الجسم ، ذات وجود سابقٍ عليه ، وتخلُد بعده لا تموت .

ويقول أفلوطين : « ربما خلوتُ بنفسي وخلعتُ بدني وصرتُ كأني جوهرٌ بلا بدنٍ ، فأكون داخلاً في ذاتي خارجاً عن جميع الأشياء ، فأرى فيها من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجباً مبهوراً ، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف الفاضل »[1] .

* * *

وفي العربية ، تأتي الروح مراداً بها : ما تقوم به حياةُ الأنفس .أما النفس فتُطلَق على ذات الإنسان ، مادةً ومعنى ، فيقال : جاء فلان نفسُه . كما تطلق على العنصرِ المعنوي منه ، فيقال : علم الله ما في نفسي . وتأتي أحياناً بمعنى الروح فيقال : خرجتْ نَفْسُه ، إذا مات ، ملحوظاً فيها ما ليس بماديٍّ من كيانه .

والقرآن الكريم يفرِّق بين الروح والنفس ، فليستا فيه مترادفتين .

الروح تأتي فيه إحدى وعشرين مرة ، منها ما يعني أمين الوحي :

«وإنه لتنزيل ربِّ العالمين . نزل به الروحُ الأمينُ . على قلبِك لتكون من المنذرين . بلسانٍ عربي مبين»

(الشعراء : ١٩٣)

---

١ للأستاذ السيد « علي نصوح الطاهر » جهد قيم في استقراء « أقوال الفلاسفة ، القدامى والمتأخرين ، في النفس » راجعه في كتابه « الروح الخالدة » ص ٣٧ وما بعدها ، ط الأردن ، ١٩٦٠ .

«قل نَزَّله روحُ القُدُسِ مِن ربِّك بالحقِّ ليثبتَ الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين »

(النحل : ١٠٢)

ومنها ما يتصل بموضوعنا ، إذ تأتي الروحُ فيه بمعنى السرِّ الإلهي الذي تصير به المادة الآدمية كائناً حياً .

ففي خلقِ آدم ، أبي البشر ، يقول تعالى للملائكة : « فإذا سوَّيتُه ونفختُ فيه من روُحي فقَعُوا له ساجدين ».

(الحجر : ٢٩ ، ص : ٧٢)

وفي خلقِ الجنين الإنساني ، بعامة ، يقول سبحانه عن بني آدم :

« ثم جعلَ نسلَه من سلالة من ماء مهين . ثم سوَّاه ونفخ فيه من روُحه وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ ، قليلاً ما تشكرون ».

(السجدة : ٩)

والروحُ هي كذلك السرُّ الإلهي الذي تجلى في مريم المصطفاة ، فحملتْ جنينَها الحي :

«ومريمَ ابنةَ عِمرانَ التي أحصنتْ فَرْجَها فنفخنا فيه من روحِنا وصدَّقتْ بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ».

(التحريم : ١٢)

وهذه الروحُ التي من أمر الله ، لا يدري كنهَها غيره ، سبحانه وتعالى :

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

(الإسراء : ٨٥)

* * *

أما النفس فتأتي في القرآن الكريم مفردة في مائة وست عشرة آية ، وجمعاً بصيغة نفوس مرتين ، وبصيغة أنفس مائة وثلاثاً وخمسين مرة .

نتدبر سياقها جميعاً فنلحظ أنها تعني الذاتَ بعامةٍ ، أي بعنصريها الماديِّ والمعنوي . ومن ثم يجوز عليها الموتُ والقتل :

« وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلا بإذن الله »

(آل عمران : ١٤٥)

« كلُّ نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يومَ القيامة .

(آل عمران : ١٨٥)

« من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيلِ أنه من قَتَلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناسَ جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً »..

(المائدة : ٣٢)

« وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأذنَ بالأذنِ والسنَّ بالسنِّ والجروحَ قِصاصٌ »

(المائدة : ٤٥)

« الله يتوفى الأنفُسَ حين موتِها »

(الزمر : ٤٢)

« ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقّ »

(الأنعام : ١٥١)

« قال أقتلتَ نفساً زكيّةً بغيرِ نفسٍ لقد جئتَ شيئا نكرا »

(الكهف : ٧٤)

« قال ربِّ إني قتلتُ منهم نَفْساً فأخافُ أن يَقْتُلونِ ».

(القصص : ١٩)

وبهذا الإطلاق ، لا تكونُ النفسُ مرادفةً للروح التي هي سِرُّ الحياة ، لكنها كذلك ليست مرادفة للجسد ، بل لعلها أقربُ إلى أن تَعني الضميرَ أو العنصر المعنويَّ من الإنسان ، بشاهدٍ من صريح النصِّ في مثل آيات :

« لا أقسِمُ بيومِ القيامة . ولا أقسِمُ بالنفسِ اللوَّامة »

(القيامة : ٢)

« بل الإنسانُ على نفسِه بصيرةٌ »

(القيامة : ١٤)

« وما أبرىءُ نفسي إن النفسَ لأَمّارةٌ بالسوء إلا ما رَحِمَ ربي »

(يوسف : ٥٣)

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من اللهِ من شيءٍ إلا حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها »...

(يوسف : ٦٨)

« وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت »

(لقمان : ٣٤)

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ ولتنظرْ نفسٌ ما قدمتْ لِغَدٍ »

(الحشر : ١٨)

« فلعلك باخعٌ نفسَك على آثارِهم إنْ لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ».

(الكهف : ٦)

« فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ »

(فاطر : ٨)

« وتخفي في نفسِك ما اللهُ مبديه ، وتخشَى الناسَ والله أحق أن تخشـــاه »

(الأحزاب : ٣٧)

« فأسّرها يوسفُ في نفسِه ولم يُبْدِها لهم »
(يوسف : ٧٧)

« وكذلك سوّلت لي نفسي »
(طه : ٩٦)

« قال بل سَوّلتْ لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميل »
(يوسف : ٨٣)

« يُخفون في أنفسِهم ما لا يُبدون لك »
(آل عمران : ١٥٤)

« قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسِك إنك أنت علام الغيوب »
(المائدة : ١١٦)

« وضاقتْ عليهم أنفسُهم وظنوا أن لا ملجأ من اللهِ إلا إليه »
(التوبة : ١١٨)

والنفس في القرآن الكريم هي التي توصَف بالطمأنينة والرضى (الفجر ٢٧) ومنها يكون التضرعُ والخيفة (الأعراف ٢٠٥) والاستيقانُ (النمل ١٤٦) والإيثارُ (الحشر ٩) والخداعُ (البقرة ٩) والحسدُ (البقرة ١٠٩) والمقتُ (غافر ١٠) والوسوسةُ (ق ١٦).

ويتعلق بها الإيمانُ والكفرُ ، والهدى والضلال (الإسراء ١٥ ، الأنعام ١٠٤ ، يونس ١٠٨ ، الزمر ٤١ ، سبأ ٥٠ ، النمل ٩٢ ...).

والخيانةُ والفجورُ والتقوى (النساء ١٠٧ ، الشمس ٧).

وهي التي تحتمل كذلك التكليفَ (الأنعام ١٥٢ ، الطلاق ٧) كما تتلقى الجزاء ثواباً أو عقاباً :

« يا أيتها النفسُ المطمئنة . ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيةً ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »

(الفجر : ٢٧)

« وهم فيما اشتهت أنفسُهم خالدون » (الانبياء : ١٠٢)

ومعها آيات : فصلت ٣١ ، والزخرف ، ٧١ ، والنحل ٥٧ والطور ٢٢ .

« وما تقدموا لأنفسِكم من خيرٍ تجدوه عند الله ».

(المزمل : ٢٠)

« ومن خفَّت موازينُه فأولئك الذين خسروا أنفسَهم »

(الأعراف : ٩)

« اقرأ كتابَك كفى بنفسِك اليومَ عليك حسيباً ».

(الإسراء : ١٤)

ولا يستعمل القرآنُ الكريم الجسدَ أو الجسمَ في سياق الحديث عن الجزاء أو الحساب ، فلم يأت لفظ الجسد فيه إلا أربعَ مرات بمعنى الصُّوَرِ والشخوصِ :

« واتخذ قومُ موسى من بعدِه من حُلِيِّهم عِجْلاً جسداً له خُوَارٌ »

(الأعراف : ١٤٨ ، ومعها طه : ٨٨)

« وما جعلناهم جَسَداً لا يأكلون الطعام ومَا كانوا خالدين ».

(الأنبياء : ٨)

« ولقد فتنّا سليمانَ وألقينا على كرسيِّه جَسَداً ثم أناب ».

(ص : ٣٤)

كما لم يأتِ الجسمُ في القرآن كله إلا مرتين ، إحداهما بصيغة المفرد في الحديث عن طالوت :

« قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم ».
(البقرة : ٢٤٧)

والأخرى بصيغة الجمع ، في المنافقين :

« وإذا رأيتهم تُعجبك أجسامُهم وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحسَبون كلَّ صيحةٍ عليهم ، هم العدوُّ فاحذرْهم ، قاتلهم اللهُ أنى يُؤفكون ».
(المنافقون : ٤)

فكأن تحاشي القرآن استعمالَ الجسدِ أو الجسم في الحديثِ عن الآخرة ، إيذانٌ بأن الثوابَ أو العقاب لا يتعلقان بالجسم وحده دون النفس .

« يا أيتها النفسُ المطمئنة * ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي »

* * *

ويبدو أن هذا الملحظ في ندرة استعمال القرآن للفظ الجسم وحديثه عن الجسد ، هو ما جعل كلمة «النفس» تدخل في الفكر الإسلامي ، بمعنى الروح . وكأنهم فهموا من كونها تموت أو تقتل ، تعطُّلَ الحياةِ وتوقفَها . والمعاجم اللغوية تورد الروحَ بين معاني النفس . وقد تحيَّر الفلاسفة المسلمون في كُنه النفس ، بمعنى الروح ، واشتهرت فيها عينية « الشيخ الرئيس ابن سينا » — القرن ٤ هـ — الذي تمثل فيها النفسَ قد

هبطت من العالم العلوي إلى الجسد فمنحتْه الحياة ، وإن شقيتْ بسجنِها في هذا القفَصِ . وبدت له أشبهَ ببرقٍ يتألق ثم ينطوي فكأنه لم يلمع ، ووقف من بعدُ ذلك حائراً لا يدري فيم كان هبوطُها ، وفيم فراقُها ...

فهل من يَدري ؟

هبطتْ إليك من المحلِّ الأرفعِ ... ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ [1]
محجوبة عن كلِّ مقلةِ عارفٍ ... وهي التي سفرتْ ولم تتبرقعِ
وصلتْ على كُرهٍ إليك وربما ... كرِهتْ فراقَك وهي ذاتُ تفجعِ
أنِفتْ وما أنِستْ فلما واصلتْ ... ألِفتْ مجاورةَ الخرابِ البلقعِ
وأظنُّها نسيتْ عهوداً بالحِمَى ... ومنازلاً بفِراقِها لم تَقنعِ
حتى إذا اتصلتْ بهاءِ هُبوطِها ... عن ميمِ مَركزِها بذاتِ الأجرُعِ
علقتْ بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلولِ الخُضَّعِ
تبكي إذا ذكرتْ عهودا بالحِمى ... بمدامعٍ تَهمي ولم تتقطعِ
وتظل ساجعةً على الدِّمَنِ التي ... درَستْ بتكرارِ الرياحِ الأربعِ
إذ عاقَها الشَّركُ الكثيفُ وصدَّها ... قفصٌ عن الأوْجِ الفسيحِ المربعِ
حتى إذا قرُبَ المسيرُ عن الحِمَى ... ودنا الرحيلُ إلى الفضاءِ الأوسعِ
وغدَتْ مفارِقةً لكلِّ مخلَّفٍ ... عنها حليفِ الترْبِ غيرَ مشيعِ

---

١ من شروح عينية ابن سينا : شرح السيد نعمة الله الجزائري الشوشتري(ط طهران ١٩٥٤) ولعل أحدث شروحها ، بحث فلسفي موضوعه نظرات في عينية الشيخ الرئيس ، وعنوانه « الروح الخالدة » للسيد الأستاذ علي نصوح الطاهر (ط الأردن ١٩٦٠) وله قصيدةعينية ، تشطيراً لقصيدة ابن سينا في النفس ، وقصيدة أخرى جواباً عن سؤال ابن سينا رد عليه فيها . ومعها معارضتا أحمد شوقي وعادل الغضبان .

سجعتْ وقد كُشِفَ الغطاءُ فأبصـ ... ـرت ما ليس يُدرَكُ بالعيونِ الهجع
وغدتْ تُغرِّدُ فوق ذروة شاهقٍ ... والعلمُ يرفعُ كلَّ من لم يرفعِ
فلأيِّ شيءٍ أُهبطتْ من شامخ ... عالٍ إلى قعرِ الحضيضِ الأوضع
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ ... طُوِيَتْ على الفذِّ اللبيبِ الأروع
فهبوطُها إن كان ضربةَ لازبٍ ... لتعودَ سامعةً لما لم تسمع
وتعودَ عالمةً بكلِّ خفيةٍ ... في العالمين ، فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها ... حتى إذا غرُبَتْ بغير المطلع
فكأنها برْقٌ تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع
أنعم بردِّ جوابِ ما أنا فاحصٌ ... عنه ، فنارُ العلمِ ذاتُ تشعشع

وتُذكرنا العينية ، بقول عمر الخيام في رباعياته ، كما ترجمها الأديب محمد السباعي :

عجباً للروح إن كان يطيقْ ... نضو سربالٍ من الطينِ صفيق
وسُمُواً لمدى النجمِ السحيقِ ... ما له ، تبّاً له ، قد لزما
سجنَه السُفْلِيَّ مذموم اللزام

* * *

ويمضي «ابن سينا» في تأمله ، فيرى «أنا نشاهد أجساماً تمشي وتتحرك بالإرادة ، بل نشاهد أجساماً تتغذى وتنمو وتولِّد المِثْلَ وليس ذلك بجِسميتها ، فبقي أن يكون في ذلك مبادىء لها غير جسميتها .. والشيء الذي يصدر عن هذه الأفعالِ نسميه نفساً ».

وجمع «ابن حزم» في الجزء الخامس من كتابه (الفِصَل في الملل والأهواء والنحل) أقوالَ عددٍ من المتكلمين والفلاسفة في النفس . وقد ذهب «أبو الهذيل العلاّف» إلى أنها عَرَضٌ كسائر أعراض الجسم . على

حين رأى تلميذه «النّظّامُ» أن الروحَ جسم لطيفٌ ، وهي أفضل ما في الإنسان ، أو هي حقيقتُه ، والبدنُ آلتُها .

وأظنه رأي جمهور المعتزلة .

ونقل عن « أبي بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم » أنه أنكر النفس جملة وقال : لا أعرف إلا ما شاهدتْه حَواسّي . على حين يقول معمر بن عمرو العطار أحد شيوخ المعتزلة :

النفس جوهر ، ليست جسماً ولا عرضاً ، ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ، ولا هي في مكان . ولا تتجزأ . وهي الفعالة المدبرة ، وهي الإنسان » .

وذهب «إخوان الصفا» إلى أنها فيضٌ صادر عن النفسِ الكلية أو نفس العالم . ونفوس أفراد الإنسان تؤلف جوهراً يمكن أن نسميه الإنسان المطلق أو النفس الإنسانية .

وهي عند «الكندي» في الرتبة الوسطى بين العقل الإلهي وبين العالم المادي . وهي من جوهرٍ بسيطٍ غير فانٍ ، هبطَ من عالم العقل إلى عالَم الحِس ، ولكنه مزود بذكرياتٍ من حياته السابقة ، وهو لا يقر له قرار في هذا العالم ، لأن له حاجاتٍ شتّى تحول دونها الحوائلُ الكثيرة.

ويقول الفارابي :« أنت مركب من جوهرين : أحدهما مشكّلٌ مصور ، مُكيّفٌ مُقَدَّر ، متحرك ساكن ، متجسد منقسم . والثاني مبايِنٌ للأول في هذه الصفات ، غير مشارك له في حقيقة الذات ، يناله العقلُ ويعرِضُ عنه الوهم ».

ويقول ابنُ مَسْكَوَيه : « إن النفسَ جوهرٌ بسيط غير محسوس بشيء من الحواس ، تدرك وجود ذاتها وتعلم أنها تعلم وأنها تعمل ».

والغزالي يقول : « إنها الإنسانُ على الحقيقة ، فهو بنفسه لا ببدنه » .
أما ابن رشد فيذهب إلى أن جوهر النفس وحقيقتها نشاطٌ وإدراكٌ عقلي .

* * *

ويشغل الحديث عن الروح فلاسفةَ الغرب المحدثين ، فيجحد الماديون وجودَها . ويفسر «هارتلي» العمليات العقلية بأنها لا تعدو أن تكون ذبذبةً في الجهاز العصبي .

وبقي المتدينون على القول بأن الإنسان : مادةٌ تبلى ، وروح باقية خالدة لا تموت ...

* * *

والإيمانُ الديني بالحياة بعد الموت ، لم يحل دون تطلع البشرية إلى ذلك الأفق المحجوب .

والأحلام والرؤى ، هي التي وجّهت الإنسانَ — فيما أتصور — إلى محاولة الاتصال بما وراء الموت .

من حيث تبدو الرؤيا ، وكأنها تنسخ الواقعَ الصارم وتجمعنا بموتانا الراحلين ، في غيبةٍ من رقابة الوعي والإدراك الحسي .
وهي ظاهرة لافتة ، لم تكن لتمضي دون أن تغري الإنسان بجديد من المحاولات .

* * *

والإنسانُ بمحاولته الاتصال بما وراء الموت ، لا يتحدى حقيقةَ الموت الصارمة .

وأنى له أن يتحداها ، وما من مولودٍ يولَدُ إلا كان كل نَفَسٍ من أنفاس حياته محسوباً عليه من عمره ، وكل خطوة يخطوها على دربٍ

الوجود ، ليست في الحقيقة إلا خطوةً على الجسر ما بين الحياة والموت ؟
كلا ...

ليس الأمر تحدياً ، وإن إنسانَ عصر القمر ليعي تماماً أنه لا يزال يقف تجاه الموت ، حيث وقف الإنسانُ الأول منذ ما لا يحصى من ملايين السنين ، ضائعَ الحيلة مغلوباً على أمره ...

وفي كل لحظة ، يودّع الأحياءُ أحبابَهم الذين سبقوهم إلى المصير المحتوم ، وأقصى ما يملك أحدُنا أن يتأسى به ، هو أن يهتف بمن رحل : وداعاً ، وإلى الملتقى !

• • •

وكانت الأحلام والرؤى ، هي الوسيلة المتاحة للإنسان كي يلقى الأحباب بعد رحيلهم . وقد عاشت البشرية دهوراً وأحقاباً لا تجد غير الرؤى بديلاً لما كان الإنسان يحيا به في الأمس الذي ولى وراح . وقد تتجسد الرؤى عند مرهفي الحس والوجدان ، إلى المدى الذي يصير فيه هذا اللقاء في الرؤيا ، زادَ حياتهم الشقية وريَّ قلوبهم الصادية ، فإذا ما هزتهم صدمةُ اليقظة ، خدّرهم عنها انتظارُ موعد قريب مع الأحباب ، عند ما يحررهم النومُ من قيود الحسّ الواعي ويطلقهم من أسر واقع حزين يقفون فيه على قبور أحبابهم يسألونهم فلا يرجعون جواباً ، ويخاطبونهم فلا يتلقون رداً غير رجع الصدى !

وكان أبو العلاء ، ممن أطالوا الوقوف على أجداث الراحلين ، يصغي في أعماق الصمت الموحش إلى رجع صداه :

وقفتَ على أجداثهم وسـألتهم   فما رجعوا قولاً ولا سألوكا

• • •

ولم يسمعوا قولاً ، أمِن صممٍ بهم؟ ولم يفهموا رَجْعاً كأنهم خُرْس

(اللزوميات)

* * *

« لو غبرتْ ألفُ حقبة ، ما ورد عليّ منهم كتابٌ ولا رسول ...

« سلم الله عليكم أهلَ ديارٍ لا يشعرون بتبلج الصبحِ ولا ترجُّل النهار . أشتاق إليكم وإلى مَن أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجساد ملتئمة ، ولا المنازل برحابٍ ...

«كيف أصبحتم أهلَ المنازل الدارسة ؟ إن ما أصابكم لَلخطبُ الجليل ... يهتف بكم الصائحُ فلا يجاب ».

(الفصول والغايات)

ولاذ الشاعر المحزون ، بالرؤيا تجمعه بمن رحلوا ، فقال في (سقط الزند) :

وبين الردى والنوم قُربى ونسبة وشتانَ بُرءٌ للنفوسِ وإعلالُ

إذا نِمتُ لاقيتُ الأحبةَ بعدما طوتْهم شهورٌ في التراب وأحوال

وقال في اللزوميات :

غُيِّبَ ميْتٌ فما رأتْه عينٌ ، سوى رؤية المنام

وفي الفصول والغايات :

« أسعد الله الأرواحَ ، فلا أعرف فائدةً للدفين في قول القائل : أيها القبرُ سُقيتَ غماماً ! إن الحيَّ والميت لا يتزاوران ، فرضي الله عن قوم نَراهم في الرقدةِ لماماً .

« سبحانك مؤبد الآباد ... هل للمنية نسَب إلى الرقاد ؟ لا أتخيل إذا انتبهت أحداً من الأموات ، وإذا هجعتُ لقيني قريبُ عهدٍ بالمنية ، ومَن قد فُقِدَ منذ أزمان . أسألهم فيجيبون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم بِحَبْلِ الحياةِ متعلقون ...». [1] .

* * *

وما كانت ظاهرة التقائنا في رؤيا المنام بمن رحلوا عن دنيانا ، لتمر دون أن يلتفت إليها الباحثون عن المجهول .

والنومُ يُسقِطُ الوعيَ ...

فهل من سبيل إلى رؤيا الراحلين ، بإسقاطٍ لوعيِ مَن يضنيهم موتُ الأحباب ؟

من هنا كان المنطلَقُ إلى المحاولة الجديدة لتسخير العلم في الاتصال بعالم الروح .

وليس من الضروري أن يكون أصحاب هذه المحاولة قد تنبهوا إلى انطلاقها من منطقة الأحلام والرؤى ، بل إن مثلَ هذا الانطلاق قد يحدث تلقائياً ، استجابةً لتطلع خفي من الوجدان البشري ، يبدأ من حيث تلوح له الرؤيا فتخايله بالأملِ في نقلها من حُلمٍ إلى واقع .

أو هذا هو ما أتصوره ، في ضوءِ المعروف لنا من ماضي تاريخ العلم وخطوات سير الحضارة :

---

١ تحدث كثير من الشعراء عن زيارة طيف الحبيب في الرؤيا ، والحبيب حي . وقد جمع « الشريف المرتضى » قدراً من أشعارهم في كتابه (طيف الخيال) .

فسفُن الفضاء مثلاً ، بدأتْ أولَ ما بدأت عند ما لاح للبشرية في قديمها الأسطوري ، حلمُ الطيران على أجنحـــةٍ من الجن أو بساط الريح .

وقد ظل الحلم يخايلها ويغريها بمحاولة تحقيقه ، فكانت تجربة «عباس ابن فرناس» على بساطتها وسذاجة وسائلها ، الخطوةَ الأولى لتحقيق الأمل الذي تعلقت به البشرية منذ حلمت ببساط الريح .

وأزرار العصر الآلية ، التي تلبي حاجات الإنسان المادية بلمسة هينة من إصبعه للأجهزة الكهربائية ، بدأت أولَ ما بدأت في الحلم الأسطوري الذي تراءى للبشرية ، فخيل إليها أن الإنسان يستطيع بلمسة هينة من إصبع لفصِّ المُلك في خاتم سحري ، أن يستحضر عبداً من الجان يقف بين يديه مسخراً في قضاء حاجاته وتحقيق رغباته ، قائلا في خشوع :

لبيك سيدي لبيك !

عبدك وملك يديك !

وعاشت الإنسانية دهوراً وأحقاباً دون أن تتخلى عن ذلك الحلم العجيب الذي اتجهت إليه أمانيها ، فكانت أزرار العصر الآلي ، هي التحقيق الواقعي للخاتم السحري الأسطوري ...

* * *

والأمر فيما يتصل برؤانا التي نلقى فيها أحبابنا بعد رحيلهم ، ليس من قبيل الأحلام الأسطورية !

ولا هو من ميراث العصور الخالية ، أعياها أن تُحققه بوسائلها البدائية ، فتركته للعصورِ من بعدها ، أمانةً وأملاً ...

وإنما الرؤيا في دنيانا حقيقةٌ لا تجحد ، إذا جاز لي أن أستعمل لفظ الحقيقة هنا ، وأنا أعني بها ما يحدث حقاً من لقائنا بموتانا ، فيما تجسدُه الرؤى التي تفرض وجودَها على رواد الفضاء وغُزاة القمر ، كما تفرضه على المجتمعات البدائية في نجوع البادية وكهوف الإسكيمو وأدغال الغابات ...

فلكل إنسان منا أحلامُه ورؤاه .

وإن اختلف مجالُها وتفاوتتْ طاقاتُها على التشخيصِ والتجسيم والإحضارِ .

* * *

وعلمُ النفس الحديث يُخضع الأحلامَ لتفسيراتٍ يراها أصحابها تفسيرات علمية [1]

وقد يردون رؤى لقاء الأعزاء الراحلين ، إلى أشواقٍ ضاغطة لا تجد لها متنفساً في وعي اليقظة ورقابة الإدراك . فإذا ألحت الرؤى على إنسان منا وقوِيَ تجسيمُها للشخوص وإحضارها للأطياف ، فذلك في رأي النفسيين محاولة للهروب من مأساةِ فقد الأحباب ، وإمعانٌ في الإفلات من وطأتها الباهظة ، في غيبةٍ من رقابة الوعي . وربما عقّدوا الأمر على بساطته ، فلمحوا وراء الإلحاح في لقاء الموتى بالرؤيا ، وسيطرتها على وجدان الحالم ، عُقدةً نفسية تحتاج إلى تحليل وحلٍّ وعلاج !.

ولكن هذه التأويلاتِ وأمثالها ، لا تخرج عن كونها فروضاً أو أو نظرياتٍ ، تظل عرضةً للنسخ أو التعديل ، ومجالاً لإعادة النظر .

* * *

١ وانظر « الروح الخالدة » ، ص ٦٧ .

ثم إني في الواقع لا أدري ما إذا كان النفسيون يفرقون بين الأحلام والرؤى ، أم إنهم يأخذون فيها بالدلالة المعجمية التي تُفسر الحلمَ بالرؤيا ، فكأنها تقول بترادفهما ؟

على حين نؤثر نحن ، أصحابَ التخصص في العربية لغةً وبياناً ، أن نستعمل الأحلام فيما هو من هواجسِ الوهم ، والأضغاثِ المختلطة المشوشة التي يعوزها ما للرؤيا من جلاء المرئي ووضوح التميُّزِ وقوة التمثُّلَ والإحضار . ولم يكن عبثاً عشوائياً أن العربية في حِسِّها الدقيق المرهف ، استعملت الفعلَ «رأى» للرؤيا ، وللرأي ، منقولاً إليهما من الرؤية . وإنما لحظت في هذا الاستعمال ، قوة الوضوح وجلاء المرئي فكأنه مشهود بالعين الباصرة ، ثم خالفت بين مصادر هذا الفعل الواحد ، بياناً لفروق الدلالة : فجعلت الرؤيةَ للبصرِ الحسي ، والرؤيا للمنام ، والرأيَ للأفكار والمعاني .

ولا بأس هنا من استطراد يسير ، ألفت به إلى ما يجلوه البيان القرآني من تمييز بين الأحلام والرؤى :

فكتابنا الأكبر لا يستعمل الحلم إلا بصيغة الجمع مع إضافة الأحلام إلى أضغاث ، دلالةً على الخلط والتشوش والتداخل . على حين تأتي «رؤيا» في القرآن ، مفردة دائماً ، دلالة على الوضوح والتميز . وسياق آيات «الرؤيا» جميعاً ، صريحُ الدلالة على صدق الإلهام .

فالملأ الذين استفتاهم ملك مصر في تأويل رؤياه عن « سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » بدتْ لهم الرؤيا — وقد كانت صادقةَ الإلهام — من أضغاث الأحلام .

« يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا

أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ».

(يوسف : ١٤)

ففي الموقف الواحد ، يستعمل القرآن الرؤيا فيما رآه ملك مصر بجلاء ووضوح ويقول عنها الملأ من قومه أضغاث أحلام ، حين أعياهم أن يدركوا دلالتها الملهمة .

وكذلك أعيا المشركين من قريش ، أن يصفوا ما تلقى محمد صلى الله عليه وسلم من وحي ربه :

« بل قالوا أضغاث أحلامٍ بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأولون »

(الأنبياء : ٥)

وفي القرآن من الرؤيا ، غير رؤيا ملك مصر التي صدقتْ ،خمسُ رؤى أخرى ، كلها بصيغةِ المفرد ، وكلها كذلك في الرؤيا الصادقة . وملحوظ أنها في المواضع الخمسة من رؤى الأنبياء .

فرؤيا يوسف التي قصها على أبيه ، فقال له :

« يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ».

تمضي القصة حتى تصدق الرؤيا :

« ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سُجداً ، وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبلُ قد جعلها ربي حقاً ».

وفي آية الفداء من قصة إبراهيم :

«وناديناه أنْ يا إبراهيم . قدصدّقتَ الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ».

وكذلك صدقتْ رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ، في آية الإسراء :

« وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس » .

وفي آية الفتح :

« لقد صدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين مُحلِّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً

ولهذا البيان القرآني المعجز ، ندين بما نجتلي من أسرار العربية ، فنميز بين الأحلام والرؤى ، حين تمضي معاجمنا على القول بترادفهما .

* * *

وأعود من هذا الاستطراد إلى ما كنت فيه من حديثٍ عن نظريات النفسيين في الأحلام ، فلا أراها تعطينا تفسيراً مقنعاً لطاقة رؤانا على بث الحياة في شخوصٍ مَن أودعناهم جوفَ الثرى !

فنحن نراهم على العهد بهم ، في عِزِّ نضرتهم وحيويتهم لم ترهقهم غبرةٌ من موت . ونبادلهم الحديثَ والنجوى دون أن نحس في أصواتهم أثراً من إعياء أو فتور ، وكأنْ لم تضرب بيننا يدُ النوى فتمزق الشمل ، وكأن لم يرقدوا في مضاجعهم صامتين هامدين !

وفي وعي اليقظة ، تأخذنا الحيرةُ والدهشة تجاهَ هذا السرِّ العجيب الذي يُلغي ما بيننا وبينهم من أبعادٍ تفوت الظنَّ والخيال ، وتتضاءل حيالها أبعدُ المسافات الكونية التي طواها إنسانُ العصر .

* * *

والعلم الحديث يستطيع أن ينقل الأصواتَ والصورَ عبرَ تلك المسافات الشاسعة في مثل لمح البصر .

لكن رؤانا ، ولا أقول أحلامنا ، تنقل إلى سمعنا وبصرنا بغمضةِ

عين ، أصواتاً أخرسها الموتُ وأجساماً عاث فيها البِلَى ...

دون أن تستعين على هذا النقلِ الفوري بأيِّ جهازِ تصويرٍ أو آلةِ تسجيل للصوت !

ودون أن ندري ماذا هنالك في عالم الموتى ، كي نوجه أجهزتنا الصوتية والضوئية لنقله !

من هنا ، كما قلت آنفاً ، يمكن أن يكون المنطلَقُ إلى ما نسمع من محاولةٍ جديدة للوقوف على حافة العالم الأثيري ، تشاغلها أحلامُ الاتصالِ بذلك الأفق البعيدِ غير المنظور .

يحدوها الإيمانُ بالحياة بعد الموت .

وتغريها الرؤيا ، بأن ترنو بأحلامها إلى لمح ما وراء الفناء الظاهر من عجيبِ الأسرار .

* * *

فمنذ لبّى الدينُ شوقَ البشرية إلى البقاء وأيّد نضالها العتيد في مقاومة فكرة العدم ، كان الإيمانُ بالحياة بعد الموت ، هو الذي أغراها بالمحاولة .

وإذا كان في بني الإنسان من لاذوا براحة الاطمئنان إلى وَعْدِ لقائهم بأحبابهم في الحياة الآخرة ، والتمسوا من رؤياهم بعضَ العون على احتمال وطأة الانتظار .

فإن فيهم كذلك من ثقُلت عليهم مأساة الإنسان ، فرفضوا الحياةَ والتمسوا لدى الموت إحدى الراحتين .

وآخرون منهم ، عزّ عليهم اليأسُ ، كما عزّ الاحتمال ، فمضوا يحاولون الاتصال بأرواح الأحباب بعد رحيلهم .

تخايلهم الأحلامُ في اقتحام ذلك العالم المحجوب ، بما تهيأ للعصر من وسائل ، بعد أن تحكم الإنسان في موجاتِ الأثير ، وفهِمَ ظواهرَ الفضاءِ الكوني ، وانتصر على المسافات الشاسعة ...

ويمكن القول بأن المحاولة بدأت منذ قرن وبعض قرن ، دون أن يغيب عني أنها مرّتْ بمرحلة طويلة سابقة ، اعتمدت في تحضير الأرواح على الوهم والتخييلِ والسحرِ ، وما تزال رواسبُ من تلك المرحلة الغابرة ، باقية إلى عصرنا في المجتمعات البدائية التي تعيش بمنطقِ السحر وتفكر بعقليةِ عصرهِ السحيق .

ولكن الجديد في المحاولة ، هو دخول عدد من علماء الطبيعة في الميدان ، وتشبثهم باقتحام عالَم الروح الغيبي ، بوسائلَ مستحدثَة لم يكن لفنونِ السحَرةِ وألاعيبِ الجنِ عهدٌ بها . وسجّلَ منتصفُ القرن التاسع عشر بدايةَ التطور في موضوع استحضار الأرواح ، بتأسيس المدرسة الروحية في لندن سنة ١٨٤٨ ومن ذلك الحين بدأت تتناثر أقاويلُ وشائعاتٌ وأنباء ، عن غريبِ التجارب التي يقوم بها بعضُ علماء الطبيعة لاستحضار أرواح الموتى ، عن طريق وُسَطاء ذوي تكوينٍ طبيعي خاص ، يقال إن أجسامهم تحمل من عنصر «الأكتوبلازم» قدراً يفوق بكثير ، ما تحمله أجسامُ عامةِ الناس .

والذين كتبوا عن هذه التجارب ، يتحدثون عنها بلغةٍ قريبة من اللغة العلمية التي مَرِنوا عليها في دراستهم المتخصصة للطبيعة .

على أن المحاولة ظلت تُقابَل بالصدِّ والشكِّ والتجاهل ، أو بالسخرية والازدراء ، حتى جذبت إلى ميدانها أشهرَ العلماء الإنجليز في الربع الأول من القرن العشرين : « سير أوليفر جوزف لودج » الذي أضفى عليها نوعاً

من الثقة ، بمجده العلمي العتيد ، وبحوثه القيمة في الإليكترونات والأثير والبرق ، ومكانته العلمية مديراً لجامعة برمنجهام ، وأستاذاً لجيلٍ من علماء عصرنا .

وقد دخلَ الميدانَ إثرَ صدمةٍ هزت كيانَه ، إذ قُتِلَ ولدُه في الحرب العالمية الأولى ، فكان اتجاهُه إلى عالَم الروح عاصِماً له من الانسحاق تحت وطأة الصدمة ، وكانت تجاربُه للاتصال بروح ولده ، مَشغلةً له عن الحزن المتلف والأسى المدمر .

ودخوله الميدانَ ، لم يُضْفِ على المحاولة نوعاً من الثقة فحسب ، بل إنه كذلك شدَّ بجاذبية شخصيتِه ووقار سنه ، عدداً غيرَ قليل من العلماء بدأت بهم مرحلةُ رواج وازدهارٍ في الربع الثاني من القرن العشرين ، بحيث صارت تجاربُ استحضارِ الأرواح «مودة» ذاك العصر !

والذين شاركوا فيها ، يؤكدون أن تجاربهم أوصلتهم إلى ظواهرَ بالغةِ الغرابة ، وأنهم استطاعوا أن يسجلوا أصواتاً للموتى الذين تحضر أرواحُهم في الجلسات ، وأن يلتقطوا صُوَراً لبصمات أصابِعهم ، بشهاداتٍ قدموها لعددٍ من العلماء ذوي السمعة الطيبة ...

* * *

وانتقلت إلينا أصداء من ذلك كله ، عن طريق المرحوم «الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير» الذي ترجم كتاب (على حافة العالم الأثيري) للعالم الاقتصادي «جيمس أرثر فندلاي» الذي قضى نحو ثلث قرن في دراسة الميثولوجيا الدينية ، ثم عبر منها إلى حافة العالم الأثيري ، ورأسَ « المعهد الدولي للبحث الروحي في لندن » .

وراج كتابه فينا ، فطُبِعت ترجمتُه العربية ثلاث طبعات ، آخرها

عام ١٩٥٤ ، بعد أن فترتْ المحاولة في أوروبا وآذن عهد ازدهارها بمغيب ، فساغ للموسوعة العربية الميسرة أن تقدم مادة «بحوث روحية» في سياق «المظاهر الهيستيرية والهوسات الجماعية التي تحدث في الجلسات المعروفة عند العامة بتحضير الأرواح »

ثم تختم الموسوعة هذه المادة بما نصه :

« والبحوث الروحية يعوزها الضبط العلمي التجريبي ، ويُعَدُّ الاهتمام الزائد بها من الأعراضِ المرَضية النفسية».

* * *

وفات (الموسوعةَ) وهي تُلقي حكمَها السريع بمثل هذه البساطة الهينة ، أن تَرُدَّ انحسار موجة الروحانيات إلى غلبة المادية على العصر من ناحية ، وإلى التطورِ العلمي الحديث من ناحية أخرى .

فتجافي العلم عن هذه الغيبيات ، التزام بمنهجه التجريبي الدقيق ، الذي يرفض أن يقول في الغيبيات بنفي أو إثبات . ويرى فيها رجعة إلى عصر (الميتافيزيقا) الذي زيّن للعقل الإنساني قديماً ، أن يقتحم المجاهلَ وراء الطبيعة ، ليصل إلى أسرار العناصر وكُنهِ الأشياء .

والعلم الحديث يدرك حق الإدراك أن وراء الظواهر الكونية أسراراً خفية ، لكنه يتجه ببحوثه إلى دراسة الظواهر وكشف الخصائص ، تاركاً أسرارَ الميتافيزيقا حتى تخرج من نطاق الغيبيات فيسقط عنها الحرج .

وقلَّ فينا من التفت إلى أن الدين يلتقي مع العلم في هذا الموقف ، إذ يأبى علينا أن نخوض في الغيبيات بغير علم !

أما حين يصل العلمُ إلى اكتشافِ شيء مما كان غيبياً ، فقد خرج

من نطاق الحظر ، وسقط عنه الحرجُ الديني والحرجُ العلمي ، كلاهما !

* * *

ومن حق العلماء الذين ناضلوا مستبسلين في مجال البحث الروحي ، أن نلقى جهودهم الجادة المضنية بالعطف والتقدير . مهما يعوزْنا الاقتناع بها . وكتاب الإسلام يحمينا من التورط في مصادرة حقّ البحث أو رفضِ ما قد يثبته العلم من نتائجه ، لأن كلّ البحوث التي يطلق عليها «البحوث الروحية» لا تعدو أن تكون من ظواهر الروح ، ولا شيء منها يصل إلى سِرّها المحجوب أو يدرك كنهَ حقيقتها .

ونحن نتلو آية الروح في كتاب ديننا :

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمرِ ربي وما أوتيتم من العلمِ إلا قليلا »

فندرك ضآلةَ ما أوتينا من العلم ، ويأخذنا هذا الإدراكُ بشيءٍ من التواضع ، يُلزمنا حدّنا عند فهم الظواهر الروحية . والذي وصلتْ إليه بحوثُ المشتغلين بتحضير الأرواح ، لا يخرج عن كونه ظواهرَ . ولست أرى فرقاً ذا بال ، بين استحضارِ روحٍ من عالم الموتى بتعطيل الإدراك الحسي للوسيط وإسقاطه في غيبوبة اللاوعي ، وبين ما تمنحنا رؤانا ، دون أي وسيط ، من إحضارٍ لشخوصِ أحبابنا الراحلين ، في غيبة من وعي اليقظة والإدراك الحسي !

* * *

والعلم هنا يؤازر الدين ما دام هذا العلم عاجزاً عن كشف سر الروح وإخضاعها لسلطانه بحيث يستطيع التحكمَ فيها والسيطرة عليها

وتسخيرها ، كأن ينفخ مثلاً في جسدِ ميتٍ فيرده إلى الحياة ؛ أو يصنع تمثالاً جامداً على هيئة آدمي ثم يبث فيه روحاً تجعل منه إنساناً حيّاً ، أو ينشيء مخزناً للأرواح على غرار مصارف الأعين والدم ...

أذكر أنني في إحدى رحلاتي إلى ألمانيا ، دُعيت لكي أتفرج على ما وصفه القوم هناك بأنه إحدى معجزات العلم : تمثال مصنوع على هيئة بقرة ، مزودة بعدد من الأسلاك والأزرار الكهربائية ، يضغط الموكّلُ بها على زرٍّ فتتحرك البقرة ، ويضغط على آخر فتخور كخوار البقر ، ويضغط على ثالثٍ فتدر اللبنَ من أثدائها !

يومها سُئلت عن هذه (المعجزة) فأجبت :

— عجيبة حقّاً ، لكنها ليست أعجبَ من الإنسان الآلي ، وبالتأكيد ، ليست أعجب من (الراديو الترانزستور) والعقل الإلكتروني ! ولن تكون معجزة حتى تستغنوا عن كل هذه الأزرار والأسلاك الكهربائية !

ثم استطردت فسألت :

— إنكم لتعرفون أدقّ المعلومات عن أجهزة البقرة الطبيعية ، وتعلمون كل المواد التي تتكون منها ، ومقدار كلّ مادة ونسبتها ، فهل في طاقتكم أن تبثوا روحَ الحياة في أي عضو من أعضائها ؟

وتلوتُ فيما بيني وبين نفسي آيةَ الروح :

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ».

(٣)

إنسان العصر بين الدّين والعِلم

« إنما يَخشى اللهَ من عباده العلماءُ »

(سورة فاطر)

إنسان العصر يواجه اليومَ موقفَه العصيبَ بين الدين والعلم ...

بعد أن فجر الذرة ، وأنطق الصخر ، وتحكّم في موجاتِ الأثير واقتحم مجاهلَ الفضاء ، وبعث رُوّاده إلى القمر ...

وما يزال يتابع جولاته الظافرة ، لا يهدأ لحظة ولا يفتر ...

وآفاق طموحه تمتد وترحب ، بقدر ما يضيف إلى رصيده من جديد الانتصار .

لكنه يزداد كذلك ، على عنفوان طموحه ومجد علمه ، تفكيراً في مصيره المحتوم وراء رحلته العابرة في هذه الدنيا .

وإنه ليدري أن « المنايا رَصَدٌ ، للفتى حيث سَلَكْ » كما قالت «أمّ السليك» الشاعر الجاهلي الصعلوك ، في عصر الناقة !

وإن جهل متى يَحين الأجل ، وكيف ، وأين :

« وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت »

* * *

ولا سبيل له إلى طمأنينة ، إلا أن يلوذ بالدين ، فيعطيه جواب ما يسأل عنه : فيم كان هذا العناء ، ومقدورٌ على الإنسان أن يكدحَ إلى مصيرِه الذي يَطوِي كلَّ ما كان في غمضة عين ؟

والجواب الديني فيما تدبرنا من آيات كتاب الإسلام في الإنسان ، واضحٌ لا لبس فيه :

يموت المخترعون والرواد والمكتشفون ، من حيث هم أفراد من البشر وتبقى ثمارُ جهودهم الباذلة ، ذخراً للإنسانية في عمومها المطلق .

ومن قبل مات الرسل جميعاً والأنبياء ، كما يموت سائرُ البشر وكل الكائنات الحية .

وبقيتْ رسالاتهم منارات هادية على الطريق .

والدين في ترسيخه للإيمان بالحياة الآخرة ، يُعين الإنسان ، وهو البشر الفاني ، على مجاهدته الباسلة في سبيل الخير العام والقيم الباقية ، بما يمنحه من الأمل في أن كفاحه في رحلته ليس عبثاً ، وأن حياته الدنيوية المؤقتة ليست إلا ابتلاء لطاقته على احتمال تكاليفِ وجودِه وأمانةِ إنسانيته ، فيحميه بذلك من فكرة العدَمِ المدمرة لإرادة الحياة .

* * *

لكن هذه الطمأنينة ، تتعرض لهزّاتٍ عنيفة من أثرِ الصدام بين العلم والدين .

والخصومةُ بينهما قديمة عتيقة ، وكان المفروضُ أن يحسمها الإسلام ، ختام الدين ، منذ نزلت آيةُ الوحي الأولى :

« اقرأ باسم ربِّك الذي خلق . خلَقَ الإنسانَ من علَقٍ . إقرأ وربك الأكرمُ . الذي علم بالقلم . علم الإنسانَ ما لم يعلم ».

والعلم مناط تكريم الإنسان ، بل إنه كذلك ، فيما نتدبر من آيات كتابنا ، من جوهر إنسانية الإنسان .

* * *

أقول ، كان المفروض أن الإسلام حسم الخصومة بين الدين والعلم ، بعد أن كبدت الإنسانية فادح الخسائر ، وعوّقت خطُاها على مراقي تطورها [1] .

ولكن الواقع التاريخي ، يؤكد أن البشرية أعياها أن تصل إلى ما استشرف بها الدين له ، منذ أربعة عشر قرناً ، فتتابعت قرونٌ والصراع بين رجال اللاهوت ورجال العلم يخضب الساحة الكبرى للعالم البشري بدماء الضحايا والشهداء ...

وشهد القرن التاسع عشر توتراً حادّاً في الخصومة بين المذهب المادي وبين الفلسفة المثالية والعقلية الكهنوتية . وقد بلغ التوتر مبلغ الأزمة ، عندما أعلن «ماركس» تفسيره المادي للتاريخ ، وبيانه الشيوعي سنة١٨٤٨. فهز صَرْحَ الكَهَنُوتِ بجحده الأديانَ . ثم لم تمض أعوام حتى نشر «دارون» سنة ١٨٥٩، كتابه «أصل الأنواع» فقدمت نظريتُه في نشوء الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي ، تفسيراً بيولوجيّاً لما كان من اختصاص التأملات الفلسفية والغيبيات اللاهوتية . وقال قائلون بإمكان تفسير كلّ شيء في الكون بالمادةِ والقوة ، فاتسعت الهوةُ الفاصلة بينهم وبين رجال الدين إلى مدى جعل احتمال التفاهم أو التقارب عسيراً ، إن لم يكن متعذراً مستحيلاً ...

وازدادت الأزمة حدة وتعقداً ، ولم يبق من رجاء إلا في أن يتمالك الإنسان رُشدَه واتزانه بعد أن أخذَه دُوارُ الإعصار ...

١- اقرأ في هذا : قصة الاضطهاد الديني ، للدكتور توفيق الطويل .

وَهو رجاء بدا أشبَه بسرابٍ ، لكن الإنسانية تشبثتْ به تحت ضغطِ إدراكها الواثق بأنه إذا كان من المستحيل تصورُ إمكانِ تحقيق وجودِها بغير العلم ، فمن المستحيل عليها كذلك أن تحيا بغير عقيدة !

* * *

وبزغ عصر الفضاء والأملُ لا يزال بعيداً ، بل لعله أمعن موغِلاً فيما يلوحُ منطقةَ سرابٍ :

كثرةٌ من رجال الدين وقفت بمعزل عن ذلك الاقتحام الجريء لملكوت السماء . ويجتاحها رعب غاضب كلما سمعت عن التجارب المعملية لاكتشاف سر الحياة ، أو جاءها نبأ عن سفينة ماردة تنطلق من قاعدتها على الأرض مصعِّدة في عالي الفضاء ، آخذة طريقها إلى القمر أو الزهرة والمريخ ...

وفي الطرف المقابل المضاد ، تقف كثرة من أبناء العصر مبهورةً بذلك الاقتحام الظافر ، وقد ألقت كلَّ سمعِها إلى أنفاسِ ملاحي الفضاء وروّاد القمر ، تسجلها أجهزة علمية على الأرض من صنع الإنسان ، ومدّت بصرها إلى مخابرِ العلماء حيث البحثُ الدائب المضني لكشفِ أخفى أسرارِ الكونِ والحياة .

* * *

فهل بلغ الموقفُ بنا حافةَ اليأس التي يصير التعلقُ فيها بحسمِ الصدام بين العلم والدين ، ضرباً من الغفلة الساذجة والوهم العقيم ؟

هل صارت الإنسانيةُ إلى الحدّ الفاصل الذي يفرض عليها أن ترتد كافرةً بالعلم أو كافرةً بالدين ؟

كلا ...

فاليأسُ في حسابِ الحياة ، هزيمة .
والكفرُ بالعلم أو بالدين ، انتحار...
وقد يبدو الأمل سراباً .

لكن الإنسانية تدرك ببصيرتها المرهفة أن السراب هو الذي يحجب الأملَ .

وبإرادةِ الحياة فيها ، تتطلع إلى أن تَعبُرَ منطقة السراب إلى أملِها المحجوب وراءه ، في اقتحامٍ لا يَقِلُّ جرأةً وبسالةً عن اقتحامِها آفاقَ الفضاء وغيابات المجهول .

وإنها لتعي ، من واقع تجاربها على مسارِ تاريخها الطويل ، أن العداءَ ليس بين الدين والعلم ، وإنما هو في الحقيقة عِداءٌ بين رجالٍ من الفريقين ، ملأ الأفقَ بغبارِ المعركة فتاهت الرؤيةُ في النقع المثار . . .

ذلك أن جوهر الدين ، لا يمكن أن يتصادم مع العلم ، إلا من سوءِ فهمٍ لجوهر الدين أو لطبيعةِ العلم ، ومن وهم خاطىءٍ ربَطَ الإلحادَ بالأمجاد العلمية لروسيا الشيوعية ؛ مع أن البيانَ الشيوعي لكارل ماركس « المانيفستو » ينتمي بشهادة الواقع التاريخي إلى منتصف القرن التاسع عشر ؛ وليس فيه أدنى إشارة طامحة إلى عصر التكنولوجيا أو تطلع إلى الملاحة في الفضاء ولو بمثل « منطاد زبلن » .

والماركسية مذهب اقتصادي واجتماعي ، قام على نظرية التفسير المادي للتاريخ ، واتجه إلى تعميق الصراع الطبقي لسحق الاستغلال اللئيم لجهود العمال الكادحين ، وتدمير معاقل هذا الاستغلال ، سواء أكانت لرجال الكهنوت أم لطواغيت الأباطرة والقياصرة ، وجبابرة الإقطاع والرأسمالية ...

ولم يكن المذهب بحال ما ، دعوة إلى عصر التكنولوجيا أو نضالاً في سبيل شغل العلماء لمراكز السلطة ، بعد انتزاعها من براثن الطواغيت ومخدري الشعوب ومصاصي دماء العمال .

وأقطاب المذهب ، من ماركس وإنجلز ولينين إلى ماوتسي تونج ، لم يكونوا من المشتغلين بالعلم التجريبي ، في البيولوجيا والرياضيات والكهرباء والفلك والذرة ، الذين حقق بهم العصرُ انتصاره الرائع . . .

وإنما هم جميعاً فلاسفةٌ مفكرون وقادة ثوريون لعصرٍ يدعو إلى سحق الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي سادت عصورَ الحكم الاستبدادي والرق الجماعي والإقطاع الباغي والرأسمالية الضارية . وإذا كانت روسيا الملحدة قد حققت — بعد قرنٍ من بيان ماركس — سبقاً مجيداً باهراً في المجال العلمي ، فإن دولةً أمريكية مسيحية مُحدَثة تنافسها في هذا المجال ، ولم يقل أحد إن دولاً شيوعية كألبانيا وبلغاريا والمجر ، أرقى علمياً من دول مسيحية كألمانيا وانجلترا وفرنسا .

واستغلال الدين ضد طبيعته لتعطيل التقدم ، كاستغلال العلم ضد طبيعته لتدمير الحضارة وإهلاك البشر . وليس الدين مسئولاً عن التأويلات الفاسدة والأوهام التي تلابس الفكرَ الديني من الإسرائيليات الأسطورية والعقلية الكهنوتية ، كما أن العلم ليس مسئولاً عن نكبة هيروشيما ومعارك فيتنام والجزائر وكوبا وفلسطين ، التي تؤرق ضمير العصر .

وربطُ الإلحاد بالتقدم العلمي ، وَهْمٌ لا يقل سذاجةً وغفلةً عن ربط الدين بالتخلف الحضاري والجمود العقلي والمخدرات التي سلطتها الكهنوتيةُ على وجدان الجماعات في عصور المحنة بالرق والاستبداد والتخلف .

وفي منطق العقل لا يمكن تصوُّرُ خصومة بين الدين في دعوته إلى الحق والخير ، وبين العلم في سعيه الدائب لتقدم الإنسان ؟

وفيم الكلام عن عداء بينهما ، وقد قال الدين كلمته في ختام رسالاته ، فبَرَّرَ بالعلم سجودَ الملائكة لآدم ، وجعل العلمَ قرين الإيمان ، وقصر خشية الله على العلماء لأنهم بما يتدبرون من عجيب آيات الحياة وسنن الكون ، يؤمنون بأن شيئاً من هذا لا يمكن أن يكون عبثاً باطلاً أو تلقائية عشواء .

« إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأُولي الألباب. الذين يذكرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ... »

وحين كان الغرب الأوروبي يخبط في ظلماتِ عصورِه الوسطى ، ويمتحن باضطهاد الكنيسة للعلماء وإلحاحها في مطاردتهم بالمحاكمات والطرد والحرمان ، كان علماء الإسلام في العصر القيادي للحضارة الإسلامية ، ينطلقون في طمأنينة واثقة من تأييد عقيدتهم للعلم وإكبارها العقل ، فينظرون في الظواهر الكونية بعقلية جديدة متحررة ، ويمارسون التجاربَ العملية في المجال العلمي ، فقدموا جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ودخلوا التاريخ العلمي رُواداً لآفاق لم يستشرف لها أحدٌ قبلهم ، فكانوا هم الذين أصَّلوا المنهج التجريبي الاستقرائي ، وأعطوا الإنسانية أولَيّاتِ الكتب العلمية في الطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والطبيعة والفلك والملاحة والجغرافيا ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة المعملية والرصد الفلكي والخبرة الجغرافية

والملاحية . وبفضلهم تم نقل العلوم الطبيعية إلى مجال البحث التجريبي الذي لم تعرفه الفلسفة اليونانية بمنهجها العقلي النظري .

وكان رصيد خبرة العلماء المسلمين وتجربتهم وتراثهم العلمي ، نقطة الانطلاق إلى عصر العلم الحديث الذي حقق تقدماً باهراً في الغرب الأوربي . بدأت خطواته الأولى من عصر الإحياء « الرينسانس » الذي قام أساساً على ما انتقل إلى الغرب من تراث الحضارة الإسلامية ، المتحررة من عقيدة الخصومة بين الدين والعلم .

وكذلك قال العلم كلمته ، أنقلها عن أستاذنا العالم الكبير « الدكتور محمد كامل حسين »[1] :

« لا محل للخلاف بين العلم والدين أبداً . . .

« ولا محل مطلقاً للحديث في هذا الخلاف ، ويجب أن يُمْحَى مما يتكلم عنه الناس في هذا العصر » .

* * *

ومن حق الإنسانية وهي تستقبل عصرَ ما بعد الوصول إلى القمر ، أن تتساءل عما يقدم العصر لسلامها النفسي بعد أن أرهقتها عقدة الانفصام بين المادية والمعنوية ، وأنهكها الصراع العقيم بين العلم والدين .

من حقها أن تتطلع إلى عصر جديد ، ينسخ ذلك الليل الطويل الذي لفها في دوامة الإعصار ، وترك في كيانها صدعاً غائراً لطول ما انحت عليه المعاول وأوغلت فيه السهام ، بحيث لم تعد المعركة بين فريق من أبنائها وفريق ، وإنما انتقلت إلى صميم الانسان فرداً ، فاذا هو مضغوط بين المادية

١- في محاضرته عن « الإيمان بالعلم » بجامعة عين شمس ، فبراير ١٩٦٣ ، وقد طبعتها مطبعة الجامعة .

بجبروتها العاتي ، وبين معنوياته التي تحتكم فيه بسلطانها القاهر ، وتتحدى كلَّ التفسيراتِ التي يقدمها الماديون ، وتعصّى على كل الحلول التي يصلون إليها . . .

وإن الإنسانية لترفض أن يُظلّها عصر يدعي جديداً ، وفيها هذا الصدْعُ الغائر يمزق أبناءها شيعاً وأحزاباً بعضهم لبعض عدو ، ويمزق كيان الإنسان بالحيرة المضنية والشكِّ المدمر ، إذ تتجاذبه التيارات المضادة ، فبعضُه لبعضٍ عدو !

والعصر الذي يقدم لها عباقرة العلماء ومهرة الأطباء ونوابغ المفكرين ، ويمنيها بالتعايش السلمي والعدالة الاجتماعية ، ويضرب لها موعداً قريباً مع المريخ . . .

لا بد أن يقدم لها مع ذلك كله ، إن لم يكن قبل ذلك كله ، طبَّ النفس والروح ، ويعدها بالبرء من عُقَدِ الانفصام في الشخصية مادية ومعنوية ، ويمنحها الاتزانَ بين جاذبية الأرض التي تمتد فيها جذورُ الإنسانِ موغلةً في أعماق الزمان ، وبين تلك الآفاق العليا لمناطقِ انعدام الجاذبية !

* * *

وإنسان العصر قد يبهره الاقتحام الظافر لملكوت السماء ، وتخايله رؤيا التحرر من جاذبية الأرض ، فيحسب أن المعركة التي طالت ، سوف يحسمها الغدُ بما يحمل من جديد انتصار للعلم ، ومن ثمَّ يتصور أن الإيمان بالعلم هو البديلُ العصري للإيمانِ بالدين . . .

لكن الإنسانية شهدت في ماضيها القريب ، تجربةَ إحلالِ « بديلٍ » خر للدين ، فلم تزدها إلا تصدعاً وتمزقاً .

تلك كانت تجربة الشيوعية في مقاومتها لما سمّته « أفيونَ الشعوب » ومحاولتها أن تحرر الإنسان من سلطان العقيدة ، ليخضع تماماً لسيطرة المذهب .

ومضى على تلك المحاولة قرن وبعض قرن ، فما استطاعت أن تعطي عن العقيدة بديلاً .

واكتشف العصر ، إلى جانب ما اكتشف من أسرار الكون ، وجيولوجيا القمر ، أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في فراغٍ من العقيدة ، وأن أي جديد من النظم والمذاهب مهدد بالخطر ، إذا ظل يتجاهل هذه الحقيقة الإنسانية التي تقرر أن الإنسان ليس مادة فحسب ! وهو قد يعيش في ظل أحدث النظام وأفضل الأوضاع ، وعالمَه النفسي مشحون بعواطف ونوازع لا تستجيب لأي تفسير مادي ، ووجودُه محكوم بأسرارٍ خفية معقدة لا تحلها أدقُّ المعادلاتِ الرياضية .

وقرن كامل ، ليس وقتاً قصيراً في امتحانٍ وتجربة . . .

والقياس الزمني للقرن العشرين ، لا بد أن تدخل فيه الأبعاد المترامية لعصرنا ، في جرأة اقتحامه وسرعة تقدمه وامتداد آفاقه ...

* * *

وعلى الأفق الرحب لعالمنا الجديد ، بدأتْ تلوح بوادرُ الوعي المدرك لعقم أي محاولة لإحلال بديل عن العقيدة الدينية .

إيذاناً بعصر جديد ، يمنح الإنسان سلامتَه النفسي ويرحمُه من ضغطة الانسحاقِ بين العقيدة والمذهب .

والراصد لهذه البوادر ، لا يفوته أن يتتبع ظهورها منذ عام ٩٥٨ ،

حين أوفد « الفاتيكان » بعثة سلام من كبار رجال الدين ، في زيارة رسمية للاتحاد السوفييتي ، حيث اجتمعوا بوزير الخارجية « أندريه جروميكو » وتم الاتفاق على العمل المشترك من أجل السلام .

وفي شهر أبريل من عام ١٩٦٦ ، استقبل « البابا بول السادس » جروميكو ، أثناء زيارته لإيطاليا .

وحملت أنباء شهر سبتمبر من العام نفسه ، خبراً من مفاوضات تجري في براج ، بين « الكاردينال فرانز كوينج » ممثلاً للبابا ، وبين حكومة تشيكوسلوفاكيا ، لإعادة العلاقات الدبلوماسية بعد قطيعة عشرين عاماً . وهذه المفاوضات يحدوها أمل كبير في النجاح ، بعد أن نجحت جهودٌ سابقة مع المجر ويوغوسلافيا ، في قبول حق الكنيسة في التوجيه الديني لرعاياها الكاثوليك في الدول الشيوعية ، دون أن يتعارض ذلك مع السلطة السياسية .

ومثل هذه البوادر لا تعطي دلالتها الحقة ، على تطور الموقف بين الدين والشيوعية ، إلا إذا ربطناها بوصية الزعيم الراحل للحزب الشيوعي الإيطالي « بالميرو تولياتي » وقد ألح فيها على ضرورة تقدير الحزب للواقع الإيطالي الذي يغلب عليه الطابع الديني . ونصح باتقاءِ تعارُضِ الحزب مع الدين ، لكي يستوعب أكبرَ عدد من الإيطاليين !

و « بالميرو » يتكلم عن تجربة وملابسة للواقع .

ومن قبله تكلم « برنارد شو » عن تأمل فكري حينما قدم قصته (البربرية تبحث عن الله) فعجب لسذاجة المحاولة للتخلص من الدين ، وصرح بأنه لم يشعر قط بنفورٍ أو ندمٍ على تربيته الدينية « لكننا نجحد

هذه النعمة فنخلط مُثُل الدين العليا وعطاءه السخي ، بأوهام مفسريه وسخافاتِ دُعاته » . واشتهرت عبارته المأثورة :

« إن دراسة تاريخ الأديان تصف لنا تطورَ الوجود من العبادة الوحشية الخشنة الجافية إلى المعنوية المهذبة المرهَفة . وقد كانت كل مرحلة من مراحل التطور الديني تمضي بالإنسان خطوة إلى تصوُّر الطبيعة في صورةٍ أنبلَ وأعمق . وكان حقّاً على البشرية كلما وصلتْ إلى نبع أنقى ، أن تنظف أوعيتَها تماماً قبلَ ملئها بالماء الصافي . لكننا نُفسدها جميعاً بكَسَلِنا المعهود ، فنصبُّ ماءَ النبع الجديد على ما في دلونا القذر من ماءٍ عكر ، ثم نظل نكرر الحماقةَ فنضيف إلى الدلو أوهام الشراحِ وسخافاتِ المبشرين ، مما يجعل عقولنا وعاءً لخليطٍ قذر يجعلنا عُرضة لسخرية الملحدين الذين لا يشغلون أنفسَهم ، وإن كانوا سُذّجاً ، بمثلِ تلك التعقيدات المربِكة والأوهام السخيفة » .

ومضى « شو » قبل أن يصطدم زعماء الشيوعية بالواقع الصارم ، ويواجهوا أزمة الفراغ العقيدي الذي حاولوا عبثاً أن يملأوه بتعاليم مذهب اقتصادي اجتماعي ، وأفضى بهم اليأس إلى أن يجعلوا من بعضِ قادتهم آلهةً معبودةً على الأرض ، لعلها تُلبي ما في وجدان الجماهير من نزوعٍ فطري راسخ ، إلى التعبد !

ومضى « بالميرو » تاركاً وصيتَه وثيقةً تاريخية تصكُّ سمعَ الملاحدة وتحذرهم من خطرِ اصطدام المذهب بالعقيدة الدينية !

بحيث لا أستبعد أن يكون التطورُ المنتظر للشيوعية ، هو التراجع عن موقفها ضد الدين .

ولْتمضِ في عِدائها لمن يستغلون الدين ضدَّ طبيعته لتعطيل التقدم ، ويزعمون لأنفسهم سلطة كهنوتية يمارسون بها هذا الاستغلالَ ، أو ينتحلون حقّاً إلهياً مزعوماً يتسلطون به على وجدان الجماهير .

* * *

ومن رصيد هذه التجربة الواقعية ، في فشلِ إحلال المذهب بديلاً للعقيدة الدينية ، ترنو الإنسانية إلى عصرها الجديد بمزيد من الوعي المرهف ، والأمل الطامح في أن يعفيها العصر من مكابدة الصدام العقيم بين الدين والعلم ...

ذلك يومَ يدرك رجالُ الدين والعلم ألا تعارض إطلاقاً بين الإيمان بالدين والإيمان بالعلم ، فليس أحدهما بالذي يناقض الآخر أو يجور عليه ، بل يمضيان معاً على الطريق لخير الإنسانية في عمومها المطلق ، ويحدوان خطواتِ البشر الفاني على معبر الدنيا ، كي يحقق كمالَ إنسانيته فيترك للحياةِ من بعده ما ينفع الناس . . .

« إن في ذلك لَذِكرَى لمنْ كان له
قلبٌ أو ألْقَى السمعَ وهو شهيد »
صدق الله العظيم

الإنسان والقمر

« كلاّ والقمرِ * والليلِ إذا أدبَر *
والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكُبَر *
نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدمَ
أو يتأخر »

(سورة المدثر)

قصة الإنسان والقمر لم تبدأ في هذا العصر ، وإنما كان الوصول إلى القمر مرحلة ظافرة ومجيدة ، لرحلة طويلة بدأت من ماض موغل في القدم ، وتتابعتْ مراحلُها على امتداد الزمان والمكان ، من العصر البدائي إلى عصر ارتياد الفضاء وغزو القمر .

في الماضي السحيق ، قبل التاريخ ، تطلع الإنسان البُدائي إلى القمر في أفقه العالي ، مبهوراً بسَنا نوره البهي ، يهديه في متاهة الظلام من قبل أن يعرف ضوء النار .

ودون أن يدري شيئاً ما عن دورة الفلك ، كان القمر مناره الهادي. يطيل النظر إليه فلا يعشى بصره من نوره ، كما يعشى من طول التحديق في ضوء الشمس الساطع . وكأنما خُيِّل إليه أن النهار بطبيعته مضيء ، فليس يحتاج فيه إلى دليل كما يحتاج بعد مغيب الشمس :

الشمس معه دائماً في كل نهار ، من مطلع الصبح إلى المغرب . وليس كذلك القمر : كل شيء في غيابه يطويه الظلام ، حتى تعود الليالي المقمرات . ومهما يتفاوت ضوء النهار ما بين شروق وغروب ، ففيه الكفاية . أما حين يتأخر القمر أو يغيب ، فلا هادي ولا دليل . وعلى الإنسان أن ينتظر مولد هلاله في لهفة وترقب ، ليحميه من غوائل الليل ويؤنسه في دياجير الظلام .

وطاب له السمر على نوره ، كما أمِنَتْ خُطاه في لياليه النيِّرات .

وبهره جمال القمر ، فأخذ اسمه لأجمل الفتيان : « قمر الزمان » الجدير بعشق « ست الحسن والجمال » .

ومن عجَب أن الإنسان في متاهة بدائيته الأسطورية ، تطلع إلى اقتحام الجو ، وتشبثت أحلامه بخاتم سحري يلمسه بإصبعه فيخرج له عفريت من الجن يقول له في خضوع :

« لبيك لبيك : عبدك وملك يديك »

فيسخره في تلبية أمانيه العصية وتحقيق أحلامه المستحيلة . ويحمل قمر الزمان على بساط الريح عبر المسافات الشاسعة ، إلى حبيبته .

ولفرط إعجاب الإنسان البدائي بحُسن القمر وجماله ، تصوَّر أن بنات الحور يعشقنه ويتنافسن عليه فيختنق من إحاطتهن به وأسرِهن إياه . وما يزال تراثنا الشعبي يحمل أثر ذلك التفسير الأسطوري لخسوف القمر ، حيث يخرج صبيْتُنا في الريف والبوادي إلى العراء ، يدقون الطبولَ على إيقاع أغنية ضارعة إلى بنات الحور أن تفك أسر القمر :

* سيِّبيه يا بنات الحور *

* * *

ومن عصر ما قبل الطوفان ، لفتت الرسالات الدينية الأولى إلى أن هذا القمر آية من آيات الخالق جل جلاله ، ونعمة من نعمه على خلقه . وتلا علينا القرآن من دعوة « نوح » لقومه :

« ثم إني دعوتُهم جِهارا * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّارا * يُرسل

السماءُ عليكم مِدرارا * ويُمدِدْكم بأموالٍ وبنين ويجعلْ لكم جناتٍ ويجعلْ لكم أنهاراً . ما لَكم لا تَرجُون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً * ألم تروا كيف خلَق اللهُ سبعَ سماواتٍ طِباقا * وجعلَ القمرَ فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يُعيدكم فيها ويُخرجكم إخراجاً * والله جعل لكم الأرضَ بساطا * لتسلكوا منها سبُلا فِجاجا . قال نوح ربِّ إنهم عَصَوني واتبعوا من لم يَزده مالُه وولدُه إلا خسارا ومكَروا مكراً كُباراً * وقالوا لا تَذرُنَّ آلهتَكم ولا تَذرُنَّ ودّاً ولا سُواعا . ولا يَغوثَ ويَعوقَ ونَسْرا » (نوح ٨ : ٢٣)

ومضى قوم نوح ، وخلّفوا ميراثهم من عبادة الأصنام .

* * *

وفي عصور الوثنية الغابرة ، لم يستطع الإنسان أن يعيش في فراغ من العقيدة ، فظل يلتمس إلهاً يعبده ويُجَسِّدُ فيه ما بقى في الضمير البشري من فكرة غامضة عن الإله الذي دعا إليه الرسل من عهد آدم ونوح . فكان القمر من أقرب الآلهة المعبودة ، وقد رأى فيه اسلافٌ لنا رمزاً لجلالِ الألوهية وفيضِ نورِها وكرم عطائها ، فعبدوا « إلهة القمر » في وديان النيل والرافدين والسِّند ، قبل عصر الأديان الكبرى . كما عُبِدت الشمس والكواكب ، لما بهر عابديها من ضوئها الساطعِ وعلوها الشاهق الذي يقصرُ دونه البصَر ويَعيا الخيال .

وفي ضمير الإنسان ، كان يكمن قبس من الوعي يريبه أن تتعدد الآلهة المعبودة ، فأيها الإله الأكبر ؟

وكما رابه من أمر الأصنام الصماء البكماء ، أنها من صنع عابديها ، ولا يجوز عقلاً أن تكون الأرباب من صنع خالقيها وعابديها ؛ رابه كذلك أن تنطفىء الكواكب وتأفل ، وتُكسَف الشمس وتغرب ، ويُخسف القمر ويغيب في المحاق . ولم يقنعه التفسير الأسطوري بعشق بنات الحور للقمر وأسرهن إياه ، لا يطلقنه إلا بالتوسل والضراعة .

أيكون القمر إلهاً معبوداً وتخنقه بنات الحور وهن من عباده ؟ ثم ، من يأسر الشمس وسائر الكواكب ؟

ذلك أمر مريب ، من حيث لا يجوز على الآلهة الخسوف والكسوف والأفول ، أو أن يأسرها آسر إلا إذا كان أقوى منها !

ومثل هذا القبس من الوعي القلِق المرتاب ، لا يصح عادة لعامة الناس . بل ليس من شأنه كذلك أن يصح لكثرةٍ منهم . وإنما يكفي أن يتوهج في بصيرة فرد منهم ، يمثل الضمير البشري في أرهف حساسيته التي تحتملها ظروف كل عصر ، وعقلية أهله .

وقد كان « إبرهيم » في عصر الوثنية ، هو الذي صح له هذا الوعي الملتهم ، فيما نعرف من تاريخنا الديني ، فمضى يطوف ببصره وبصيرته في آفاق الكون حوله ، قلقاً مرتاباً ، يلتمس إلهاً بمعبده غيرَ تلك التماثيل الخرساء البلهاء التي وجد أباه وقومه لها عابدين .

ويقص علينا القرآن الكريم ، فيما يقص من أمره ، تردده الحائر بين هذه الأجرام النيِّرات العليا ، وطولَ تأمله فيما يعتريها من أفول مريب :

« وإذ قال إبرهيمُ لأبيه آزرَ أتتخذُ أصناماً آلهة إني أراك وقومَك في ضلال مبين * وكذلك نُرِي ابرهيمَ ملكوت السمَواتِ والأرض ولِيكونَ من الموقنين * فلمّا جَنّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفَلَ قال لا أُحِبُّ الآفِلين * فلمّا رأى القَمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفَلَ قال لَئِنْ لم يَهدِني ربي لأكونَنّ من القومِ الضالين * فلما رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربّي هذا أكبرُ ، فلما أفَلَتْ قال يا قومِ إني بريء مما تشركون * إني وجّهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجّه قومُه ، قال أتُحَاجّوني في اللهِ وقد هَدَانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي ، وسِعَ ربي كلَّ شيءٍ علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتهم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأيُّ الفريقين أحَقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون » ؟ (الأنعام ٧٤ : ٨١)

* * *

واهتدى من البشرية إلى حين ، مَن بلغتهم دعوة « ابرهيم » والتفتوا إلى القمر والشمس والكواكب ، من آيات القدرة الإلهية . فاهتدوا بعد طول تأمل ، إلى قياس الزمن وضبط المواقيت والفصول الموسمية ، على علاماتٍ ترشدهم في اتجاه سيرهم ومسراهم ، في البر أو البحر ، من قبل أن تعرف الدنيا أي جهاز للرصد الفلكي أو البوصلة .

* * *

لكن البشرية المتدينة بدين ابراهيم ، ما لبثت بعده في فترة من الرسل ، أن عادت إلى ضلالها القديم . ونعرف من التاريخ الديني أن عبادة الشمس كانت دين سبأ ، من العرب البائدة ، إلى أيام « سليمان بن داود » فيما جاء بالقرآن عنها من نبأ يقين :

« فمكث غيرَ بعيدٍ فقال أحطتُ بما لم تُحِطْ به وجئتُك من سَبأٍ بِنَبأٍ يقين . إني وجدتُ امرأةً تملكهم وأوتيتْ من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم . وجدتُها وقومَها يسجدون للشمسِ من دونِ اللهِ وزين لهم الشيطانُ أعمالَهم فصَدَّهم عن السبيلِ فهم لا يهتدون »

(النمل ٢٢ : ٢٤)

وإلى قريب من مبعث خاتم النبيين ، عليه الصلاة والسلام ، كانت هناك في العرب بقية لا تزال من عبادة الشمس والقمر ، بشاهدٍ من آية « فُصِّلَتْ » :

« ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ ، لا تسجدوا للشمسِ ولا للقمرِ واسجدوا للهِ الذي خلَقهن إن كنتم إياه تعبدون » — ٣٧

ونفهم من نص الآية ، أن بقية من الوعي كانت تكمن أيضاً في ضمير عبَدة الشمس والقمر ، يلمحون فيهما الخالق المعبود ، فيسجدون لهما عن وهمٍ أنهم : « إياه يعبدون » .

كما تشهد بهذه اللمحة المضيئة ، آية « العنكبوت » والخطاب فيها لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :

« ولَئِنْ سألتَهم من خلَق السمواتِ والأرضَ وسخَّر الشمسَ والقمرَ ليَقولُنَّ اللهُ ، فأنّىَ يُؤفَكون » — ٦١

ولقد نسخ نورُ الإسلام عبادة القمر فيما نسخ من ظلمات الوثنية الجاهلية ، لكنه لم يغض من شأن القمر ولا الشمس . تقديراً لنعمة عطائهما من النور والضياء ، وحساب الزمن ومواقيت المواسم . كما أبقى للنجوم تقدير الاهتداء بها ، علاماتٍ للسير والسرى ، في ظلمات البر والبحر :

« هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمرُ نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ، ما خلق اللهُ ذلك إلا بالحقِّ ، يُفَصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمون . »

(يونس : ٥)

« فالقُ الإصباح وجعلَ الليلَ سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسباناً ، ذلك تقديرُ العزيز العليم • وهو الذي جعلَ لكم النجومَ لتهتدوا بها في ظلمات البرِّ والبحرِ ، قد فصَّلنا الآياتِ لقومٍ يعلمون » .

(الأنعام ٩٦ : ٩٧)

* * *

وإذا كان العرب قبل الإسلام ، قد ربطوا بدورة القمر مواسمهم الدينية ومواقيت حَجّهم والأشهر الحُرُم التي لا يحلُّ فيها قتال ، فإن القرآن أضفى على القمر جلالاً وحرمة ، حين جعل منه المقياس الزمني لمواقيت فريضة الصيام (البقرة : ١٨٥) والحج (البقرة : ١٩٧) والأشهر الحُرم : (البقرة ١٩٤ ، والمائدة ٢ ، ٩٧ والتوبة ٥)

كما ضُبِطت به في الشريعة الإسلامية ، كل الأحكام التي تتعلق بوقت وزمن ، مثل حلول عيد الفطر ، ومواعيد الزكاة ،

وحيثما ذُكِر الشهر في آيات الأحكام : كالكفارة بالصيام ، وأشهرُ الإيلاء والعِدّة [1] . فهو الشهر القمري . كما يأتي شهود الشهر في القرآن ، مراداً به شهود الهلال من شهر القمر :

« شهرُ رمضانَ الذي أُنزِل فيه القرآنُ هدىً للناسِ وبيِّناتٍ من الهدى والفرقانِ ، فمن شهِدَ منكم الشهرَ فليَصُمْهُ . »
(البقرة : ١٨٥)

* * *

وأقف هنا لأتدبر ما يُقدم التاريخ الديني ، في ختام الرسالات ، من بيانٍ لتطور البشرية ومدى ما أُتيح لها من إدراكٍ لآية القمر :

في عصر ما قبل الطوفان ، اقتصرت دعوة نوح فيما يتعلق بالقمر : إلى عطاء نوره فحسب ، ولا عهد للبشرية إذ ذاك بالحساب وضبط دورته الزمنية للوقت ، كما لا عهد لها بمعرفة نظام دورة الفصول ، ولا كانت قد ركبت البحر قبل السفينة الأولى ، فُلك نوح ، لتحتاج إلى علاماتٍ من النجم تهدي طريقها في ظلمات البحر . ذلك كله مما لم يُتح للبشرية معرفته ، قبل أن يصنع « نوح » الفلك بأمر ربه ، وينجو ومَن معه من الطوفان الذي اكتسح الكفار الذين « جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم » لا يسمعون ما يلفتهم إليه رسولُ ربهم من آياته تعالى في : السموات طباقاً ، والقمر فيهن نوراً ، والشمس سراجاً ، والأرض بساطاً ...

---

١ أنظر في الكفارة بالصيام ، آيات : النساء ٩٢ والمجادلة ٣ وفي الإيلاء والعدة . آيات البقرة ٢٢٦ : ٢٣٤ ، والطلاق ٤ .

في عصر نزول ختام الرسالات ، كانت البشرية قد تطورت على المدى الطويل ، ما بين قبل الطوفان إلى أوائل القرن السابع لميلاد المسيح عليه السلام ، فتعلمت الحساب ، وضبطت التقويم السنوي ، وحددت مواعيد الفصول الموسمية ، وركبت البحر مهتدية بعلاماتٍ من الأجرام في أفلاكها العليا ...

فصحَّ لها بما تعلمتْ من ذلك كله ، أن تدرك آيات القدرة الإلهية في القمر والشمس والنجم ؛ حسباناً وعلامات هادية في ظلمات البر والبحر : « قد فصلنا الآياتِ لقومٍ يعلمون » .

بل صح لها من رشد الوعي وزاد المعرفة ، أن يلفتها القرآن إلى ما تستطيع أن تدرك بالتفكر والتأمل ، من عجيب آية الشمس والقمر ، في إحكام النظام الكوني ، واطراد قوانينه وثبات سننه :

« اللهُ الذي رفع السموات بغيرِ عَمَدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخّر الشمسَ والقَمرَ كلٌّ يَجري لأجلٍ مُسَمّى ، يدبر الأمرَ يفصل الآياتِ لعلكم بلقاء ربِّكم توقنون * وهو الذي مَدَّ الأرضَ وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً ومن كلِّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشِي الليلَ النهارُ ، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون . »

(الرعد ٢ ، ٣)

« خلق السموات والأرضَ بالحق يُكورُ الليلَ على النهار ويُكورُ النهارَ على الليل وسخر الشمسَ والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مُسَمّى ، ألاَ هو العزيز الغفّار »

(الزمر : ٥)

« وما يستوي البحران هذا عذبٌ فُراتٌ سائغ شرابُه وهذا مِلْحٌ أجاجٌ ومن كل تأكلون لحماً طريّاً وتستخرجون حِليةً تلبسُونها وترى الفُلْكَ فيه مواخِرَ لِتبتغوا من فضلِه ولعلكم تشكرون * يولجُ الليلَ في النهارِ ويولجُ النهارَ في الليلِ وسخّر الشمسَ والقمرَ كلٌ يجري لأجلٍ مُسمى ، ذلكم ربُّكم له المُلْكُ ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . »

(فاطر ١٢ : ١٣)

ومن حيث لا يرتاب متدين في أن الأمر كله للمشيئة الإلهية ، وأن في قدرته تعالى ، لو شاء ، أن يتغير كل هذا النظام الكوني المحكم ، يقرر الدين في ختام رسالاته ، أن مشيئته تعالى لا تتعلق بنقض سننه :

« سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرضُ ومن أنفسِهم ومما لا يعلمون . وآيةٌ لهم الليلُ نَسلَخُ منه النهارَ فإذا هم مُظلمون * والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقديرِ العزيزِ العليم * والقمرَ قدَّرناه منازلَ حتّى عاد كالعُرجونِ القديم * لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدركَ القمرَ ولا الليلُ سابق النهارِ ، وكلٌ في فلَكٍ يَسبحون »

(يس ٣٦ : ٤٠)

وبقي من سر القمر ، ما كان يغيب عن البشرية كلها في عصر نزول القرآن . ولقد بدا لبعضهم أن يسألوا خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، عن كُنْهِ الأهلّة في دورتها العجيبة المطّردة : ما بين بزوغٍ وبدرٍ ومحاق . فلم يرِ القرآنُ لهم أن يتعلقوا بما لا سبيل لهم

إلى إدراكه وعلمه ، من سِرِّ الأهلة وكُنْهِها . ولم يكن عصر العلم التجريبي قد بدأ بعد ، ولا كان في طاقة البشرية أن تدرك أسرارَ الفلك إلا أن ترجم بالظن أو تخوض في غيابة الميتافيزيقا . والعقل الإنساني ، حتى عصر نزول القرآن ، لم يكن يعرف من علم الفلك إلا تصورات ذهنية اختلط فيها السحرُ البابلي بالتأملات الميتافيزيقية لكهنة الفراعنة وفلاسفة اليونان ، والإشراق الصوفي لروحانيي الهند والصين .

والقرآن في ردّه على من سألوا عن الأهلّة ، صرفهم عن التعلق بما لا سبيل لهم إدراكه وعلمه ، إلى ما يُجدى عليهم من ظاهر آيتها :

« يسألونكَ عن الأهلّةِ قُلْ هي مواقيتُ للناس والحج . »
(البقرة : ١٨٩)

فأعفاهم بذلك ، من الرجم بالظن بغير علم .

ونتعلم في دراسة مناهج المعرفة ، أن الإنسان لم يدخل عصر العلم الحديث إلا منذ أن تخلى عقلُه عن غروره القديم ، واتجه إلى دراسة خواص العناصر وقوانين الظواهر الطبيعية ، بدلاً من النظر المبدد فيما لا يدري من كنهها وأسرارها ، على نحو ما غرَّ فلاسفة اليونان من معارفهم الفلكية التي حسبوها علماً ، وليست سوى تصورات ذهنية وفروض عقلية . ومثلها لا يدخل في مجال « العلم الحديث »

كما لم يدخل الظنُّ في الغيبيات ، في حساب العلم ، بكتاب الإسلام الذي جاءتنا آيته منذ أربعة عشر قرناً :

« وما لهم به من علمٍ إنْ يتبعون إلا الظنَّ وإن الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئاً » (النجم : ٢٨)

* * *

لم يكن عطاء القمر للوجدان الإنساني ، دون عطائه لحياته العملية ومنطقه العقلي :

من قديم كانت صحبة الإنسان للقمر ترهف من خياله وتحلق برؤياه في أفق رحب ، وراء المنظور والمحسوس ، وفوق حدود واقعه الأرضي حيث يأخذ القمر ، وكذلك الشمس والكواكب ، معاني رمزية ودلالاتٍ إيحائية ، كالتي نعرفها في رؤيا يوسف إذ قال لأبيه يعقوب :

« يا أبتِ إني رأيت أحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمر رأيتُهم لي ساجدين »

(يوسف : ٤)

وتتحقق الرؤيا بعد أن نال الحظوة لدى ملك مصر فاستخلصه لنفسه واستجاب له فجعله على خزائن الأرض الطيبة ، ومكّن الله بذلك ليوسف فيها ، يتبوأ منها حيث شاء ، فجاء إخوته من البادية يلتمسون الميرة ، ثم جاء أبواه :

« ورفع أبويه على العرش وخَرّوا له سُجّداً وقال يا أبتِ
هذا تأويلُ رؤياي من قبلُ قد جعلها ربي حقاً ... »

(يوسف : ١٠٠)

في هذه الرؤيا ، لم تكن الكواكب والشمس والقمر بدلالتها اللغوية في أصل استعمالها ، بل خرجت عنها إلى دلالة مجازية ، رمزية ملهمة .

مثل هذا الإيحاء الملهم ، كان المنطلَق الرحب الذي أثرى اللغة ، من عصر الجاهلية ، ألفاظاً وبياناً .. وجال فيه الأدب العربي متفنناً في صور التعبير الوجداني بفن الكلمة : تشبيهاً واستعارة وتمثيلاً ومجازاً وكناية ورمزاً .

وقد نقل « ابن هشام » في السيرة النبوية ، من نشيد الأنصار في احتفالهم باستقبال المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في دار هجرته :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوَداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داعِ
أيها المبعوث فينا ... جئتَ بالأمر المطاع

ونقل معه ، رؤيا للسيدة « صفية بنت حُيَيّ » استرجعت ذكراها يوم اصطفاها الرسول عليه الصلاة والسلام لنفسه ، بعد النصر على قومها يهود بني النضير . قالت إنها كانت في مستهل الهجرة ، قد رأت في منامها كأن القمر نزل من السماء ووقع في حِجرها : وقصت رؤياها على زوجها الأول — سلام بن مشكم ، من رءوس يهود نضير — فلطمها على وجهها وقال لها :

« ما أرى إلا أنك تُمنّين ملكَ العرب زوجاً »

* * *

وأرهف التأمل خيال الإنسان ، فرأى نفسه في هذه المرآة الضوئية العجيبة :

في الهلال البازغ ، رأى بدء دورة الحياة حين تتفتح واعدة بالنمو والإشراق والعطاء .

وفي البدر المنير ، رأى ذروة التجلي وقمة الصعود واكتمال التألق ، قبل لحظة التحول إلى هبوط وانحدار .

وفي وحشة المحاق ، رأى أفول الحياة ونهاية دورتها إلى مغيب ..

واتسع الأفق أمام وجدانه الملهم بإيحاء القمر ، فرأى في مولد الهلال إيذاناً بمشرق نورٍ في الظلمة ، ومطلع فجر جديد ينسخ ليلاً قبلـــه .

ومن هذا الملحظ ، كان « الهلال » شعار الأمة الإسلامية على تنائي الديار والأقطار وتباعد الأجيال واختلاف العصور .

كما ربطت الرؤية الوجدانية للقمر ، بين المحاق وتسلط الشر والقبح والباطل ، وعربدة شياطين الظلام .

دون أن يضيع الأمل في دورة تالية ، يبزغ فيها النور فيمنح الإنسان فرصته لاكتشاف دربه في الحياة ، وخوض معركته الباسلة ضد أعداء النور والحياة .

وعلى طول الزمان ، طاب للإنسان السهرُ مع نور القمر وطاب السمر ، فكان مجمع الأحباب وملتقى الأصحاب ، كما كان أنيس المسهدين ورفيق المغتربين وسمير المحبين ، يبثونه مواجعهم ومواجدهم ، ويرفعون إليه نجواهم ويُفضُون إليه بأسرار قلوبهم ، ويُحمّلونه رسائلهم إلى الأحباب كلما نأت بهم الديار وشطّ المزار ...

وأصغت دنيانا في المشرق والمغرب ، إلى نبض قلوب شعرائنا وقد شجاها القمر فذابت وجداً وحنيناً . وطوى الثرى من طوى منهم ، وما

يزال صدى صوتهم يطربنا ويُشجينا عبر الآماد والأبعاد ، فنتغنى بموشح الشاعر الأندلسي :

ما لعيني عَشِيتْ بالنظـــرِ أنكرتْ بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبري عشيتْ عيناي من طول البكا
وبكى بعضي على بعضي معي

ونأسى « لابن زريق » إذ يودع الدنيا في غربته وهو يرنو إلى القمر ويذكر به قمراً ودَّعه في بغداد ، يوم لم يكن يدري أنه الوداع لا لقاء بعده في هذه الدنيا :

لا تعذليـــه فإن العذلَ يُولِعُـــه
قد قلتِ حقاً ولكنْ ليس يسمعه
جاوزتِ في لومِه حداً أضرَّ بـــه
من حيث قدَّرتِ أن اللومَ ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بــدلاً
من عنفِه فهو مضني القلب موجَعُه
أستودع اللهَ في بغدادَ لي قمـــراً
بالكرخ من فلَك الأزرار مطلعه
ودَّعتُه وبودي لو يودعنـــي
صفوُ الحياة وأني لا أودعُـــه
وكم تشبث بي يومَ الرحيل ضحى
وأدمعي مستهـــلات وأدمعُـــه

وكم تشفع أني لا أفارقـــــه
وللضرورات حـــال لا تشفّعُه

وأنشدت محافل الذكر جيلاً بعد جيل ، مواجد الصوفية في رؤاها الملهمة بسنا القمر ، من مثل نجوى شاعرهم « ابن الفارض » :

والتي يعنو لها البدر سَبَتْ
عنــوةً روحي ومـــالي وُحمَيْ
عُدتُ مما كابدتُ من صدهــا
كبدي حِلفُ صدًى ، والجفنُ ريْ
يا ليالي الوصل هل من عـــــودة
ومن التعليل قولُ الصبِّ : أي
وبأيِّ الطُّرْق أرجو رجعهـــــا
ربما أقضي ومـــا أدري بِـــأيْ
ذهب العمر ضياعاً وانقضـــــى
باطـــلا إن لم أفــزْ منك بشي

وثمل الذاكرون من دفق النشوة ، على رجع النشيد الفارضي :

شرِبنا على ذكر الحبيب مُدامـــةً
سكِرنا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمُ
لها البدرُ كأسٌ وهي شمس يديرها
هلال ، وكم يبدو إذا مُزِجتْ نجمُ
ولولا شذاها ما اهتديت لحانِهـــا
ولولا سناها ما تصوَّرها الوهمُ

فإن ذُكِرَتْ في الحيِّ أصبح أهلها
نشاوى ، ولا عار عليهم ولا إثمُ
ولو خُضِبتْ من كأسِها كفُّ لامسٍ
لما ضلَّ في ليلٍ وفي يدِهِ النجمُ
وقالوا شربتَ الإثم ، كلا وإنما
شربتُ التي في تركِها عنديَ الإثمُ

* * *

ورجعّت أغانينا شدو المطربين بنجوى العشاق للقمر : من المواليا :

يا بدر أهلك يقولوا لكْ علَيّا جُورْ
وعلموك التّجافي ، يا بهي النور
فليصنعوا ما أرادوا يا شقيق الحورْ
لأنهم أهل بدرٍ ذنبُهم مغفور

ومن أغنيات القمر ، غنى محمد عبد الوهاب :

كلنا نحب القمَر والقمر بيحب مِيِنْ
حظنا منه النظر والنظر راح يرضي مين

وانشدّت فيروز .

حبيبي بدُّه القمرْ والقمرْ بعيدْ

وغنت أم كلثوم :

هلّت ليالي القمرْ تعال نسهرْ سَوا
يحلَى ما بينّا السمَر ويطيبْ حديث الهوى
سر الحياة

وكذلك رجعت أغانينا الشعبية شدو العشاق للقمر المحبوب ، ففي له الملاّح وقد وقف بقاربِه على شط النهر يُحيي قمره بين الصبايا الملاح :

يسعدْ صباح الحبايبْ دا الهوى أصل المجايب
يا نازلين البحر يِمْلُمْ مستعد ابعت ركايِبْ
واجبْ علينا نصبح يا قمر بين الكواكب

وشدا البدوي في نجوع الصعيد ، بالموال :

يا اللي القمر طلّْعتكْ والبان فيّ عودكْ
توعد وتخلف وامتيَ راح توفي بوعودك
طال البعاد وانكوى القلب بصدودك
ليلي ليلي يا عيَنْ

وفيما كنا ساهرين مع القمر ، ثَمِلين بنشوة الطرب ، كان علماء الفرنجة ساهرين على السعي نحو القمر ، منطلقين من حيث انتهت خطوات سلَفِنا من علماء الإسلام في العصر القيادي للحضارة الإسلامية التي أضاءت للغرب الأوروبي ظلمات عصوره الوسطى ، وقدَّمت له مع أجهزة الرصْد الفلكي ، ذخيرة من علوم الطبيعة والملاحة والطب والرياضيات والفلك .

وغذ الأوربيون السير ، وتتابعت الخطوات تكتشف المجهول وتنتقل من عصر البخار إلى الكهرباء والذرة والإلكترون ، وتقتحم الجو بالطائرة ، وتنتصر على المسافات الكونية الشاسعة ، وتطلق القمر الصناعي وترتاد الفضاء .

ونحن حيث نحن ...

لم نعدُ كلمة ابن البلد وقد قال له قائل : الروس يا أخي أطلقوا القمر الصناعي :

فردَّ عليه ، بالنكتة اللاذعة :

— وإيش يعني ؟ لقد جئنا نحن بالقمر على الباب !

وانطلق يرجِّع أغنية فايزة أحمد :

يامّه القمــر عَ الباب نـــــــوَّر قناديلــه

يامـــــه أَرُدّ البـــاب؟ ولاّ أنادي له ... يامّه

* * *

ووصلت « أبولو » إلى القمر ،

صاعدة إليه على معارج ممتدة من الحلم الأسطوري باجتياز الجو على بساط الريح ، إلى رحلة « جاجارين » التاريخية التي ارتادت غياهب الفضاء وسجّلت انتصار الإنسان بالعلم ، على المسافات الشاسعة بين هذه الأرض ، وأعالي الفضاء ومدار الأجرام العليا في أفلاكها النائية ...

هذه هي قصة الإنسان والقمر ، بغاية الإيجاز ..

فماذا بعد رحلة الوصول التي بدأ بها عصر جديد لا حدود لآماده وأبعاده ؟

كانت صدمةً عنيفة لإنسان العصر ، أن يعقُب رحلةَ الانتصار قلق جائح يؤرقه بما يثار من لغط حول موقف الدين من هذا الحدث الباهر . ويشتد الجدل فيه ، فيكاد يصيب الإنسانَ منه دوار ، لفرط حيرته بين ما لا يستغني عنه من إيمان بالدين وإيمان بالعلم .

فهل كُتب عليه بعد ذلك النضال الطويل الظافر ، أن يواجه أزمة اختيار بين الدين والعلم ؟

وكانت صدمة عنيفة كذلك ، أن تقترن لحظة الانتصار في أفقها العالي ، بتصاعدٍ رهيب في مآسي القرصنة الاستعمارية وويلات التفرقة العنصرية والاضطهاد المذهبي .

فماذا يجدي الوصولُ إلى القمر ، إذا أُهدِرتْ إنسانيةُ الإنسان على هذه الأرض ، أو امتحن بالتمزق بين عقيدته وعقله ، بين إيمانه وعلمه ؟

إن من حق إنسان هذا العصر الذي وصل إلى القمر ، أن يطمئن إلى موقف الدين من ذلك الانتصار العظيم :

ومن حقه كذلك ، أن يتطلع إلى حماية أمـنـه وشرف إنسانيته ..

* * *

فأما عن موقف الدين ،

فلا علم لي بما في التوراة والإنجيل ، ولكني قد أعلم ما في القرآن من موقف الدين في ختام رسالاته ..

وقد تكلم ناسٌ باسم الإسلام :

بعضهم وقف بمعزل عن الرحلة العجيبة ، ووضعوا أصابعهم في آذانهم لا يريدون أن يسمعوا أنباءها ، مُحَوقلين مستغفرين لعصرنا جريمتَه في هذا الاقتحام الجريء لملكوت السماء ...

وآخرون ، من غير علماء الدين ولا التكنولوجيا والفلك : خاضوا في الحديث عن القرآن والقمر ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فروَّجوا في العامة كلاماً ساذجاً عن سبق وصولنا إلى القمر ، ببدعٍ من التأويل لكلمات الله :

فهناك مفسر عصري أخذ مادة سطح القمر وعلم الجيولوجيا القمرية ، من « آية يس » :

« والقمر قدرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم »

وأترك لرواد القمر وعلماء الجيولوجيا ما يتعلق بعلمهم من هذا التأويل ، وأشهد أن الكلمة القرآنية في التفسير العصري ، مبتورة من سياقها في ثبات السنن الكونية واطراد نظامها المحكم .

وأخرى من بدع التأويلات العلمية ، أخذتْ سفن القمر وتكنولوجيا الفضاء من آية الانشقاق : « لتركَبُن طبقاً عن طبق » مبتورة من سياقها في وعيد الكفار بعذاب السعير يوم الحساب :

« فما لهم لا يؤمنون . وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفرور يُكذِبون . والله أعلمُ بما يوعون * فبَشِّرْهم بعذاب أليم »

وثالثـة قرأناها في إحدى الصحف ، يوم وصول الرواد منتصرين إلى سطح القمر : إن هذه الرحلة الصعبة ، الباسلة الظافرة ، عرفناها نحن منذ أربعة عشر قرناً ، بآية « الرحمن » .

« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

وأترك لكلّ مَن له أدنى حظ من عقل ورشد ، رأيه في هذه السذاجة الماسخة للعقل ، وأشهد أن التأويل العصري بتر الآية من سياقها في إحاطــة الله بخلقه من إنس وجن ، فايحاول هؤلاء أو أولئك أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض ، فستردهم حمم من العذاب بيقين الخيبة :

« يُرسَل عليكما شواظ من نار ونحاسٌ فلا تنتصران * فبأي آلاء ربكما تكذبان »

وفِعلُ الأمرِ في الآية « فانفذوا » على سبيل التعجيز لمن يحاول الخروج من سلطان الله المحيط بخلقه في السموات والأرض ، والمحاولة

إن كانت . مقضي عليها بالفشل وعدم الانتصار ، بصريح النص :
« فلا تنتصران »

فهل كانت كذلك رحلات الفضاء والقمر ؟

قصارى ما أعلمه أن كتاب الإسلام يهدي إلى موقفه من رحلة اقتحام الفضاء والوصول إلى القمر ، في نطاق الموقف العام للإنسان والعلم . وقد سبق الحديث عنه في مبحث « هذا الإنسان » وأزيده هنا بياناً ، فيما يتعلق برحلة القمر :

الإنسان خليفة في الأرض ، وأي اقتحام لمجاهل الكون تحقيق لتكليف خلافته فيما سخر الله له من السموات والأرض على الإطلاق الذي لا يتقيد بأرض دون سماء ، بقمرٍ دون مريخ وزهرة وعطارد ...

« اللهُ الذي خلق السمواتِ والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخّر لكم الفُلْكَ لتجريَ في البحر بأمرِه وسخر لكم الشمسَ والقمر دائبين وسخر لكم الليلَ والنهار ... »
(ابراهيم : ٣٢)

« ألم تروا أن اللهَ سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبَغَ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنة . ومن الناس من يُجادل في الله بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدى ولا كتابٍ منير » (لقمان : ٢٠)

« وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون » (الجاثية : ١٣)

ونرى أنه مع دخول الشمس والقمر في عموم ما سخر الله للناس : ما في السموات وما في الأرض جميعاً ،

يخص القرآن الشمس والقمر بالذكر في سبع مرات في آيات هذا التسخير « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » و « يعلمون »

والعقل جوهر الإنسانية الناطقة المفكرة .

وقوله تعالى فيما سخر لنا من الشمس والقمر وسائر ما في السموات والأرض : « بأمره » هو تدبير النظام الكوني بالسنن المحكمة والقوانين الثابتة النافذة ، وسبق القول بأن القرآن الخاتم لرسالات الدين ، قد أبطل الخصومة بين الدين والعقل .

ومن هذا المنطلق ، نستطيع أن نفهم ونقدر موقف الدين من رحلة الوصول إلى القمر . وما بعد القمر : يمضي فيها الإنسان إلى أقصى ما تهيئه له طاقته وتسعف عليه وسائله ، وأن يطمح إلى كشف المجهول من آفاق الكون وأسرار الحياة ، آمناً من ناحية الدين الذي يبارك هذا السعي الطامح ، يرسخ الإيمان بعجيب ما يكشف عنه من آيات القدرة الإلهية في النظام الكوني المحكوم بسنن ثابتة وقوانين مطردة ، وما يهتدي إليه الإنسان من نعم لم تكن ظاهرة ، مما سخر لنا في السموات والأرض.

* * *

ثم لا يفوتنا من موقف القرآن من رحلة الوصول إلى القمر ، أن نسأل:

هل عطّل اكتشاف كثافة مادته ، آيته القرآنية سراجاً منيرا »

وهل اختلت دورته بالوصول إليه وتجول «لونا خود» على سطحه بين صخوره وفوهات براكينه ؟

كلا ، لم ينسخ جديدُ علمنا بالقمر آيته فينا ، فما يزال وسيبقى أبدا سابحاً في فلكه ، يتجلى بنوره فيضيء ظلمات الليل للسارين الضالين والحيارى التائهين . وما تزال البشرية ، وستظل أبدا ، تجد في نظام دورته ما يضبط لها سير الزمن بمواقيت لا تختل ولا تتخلف ، ما بين مولد هلاله وأوج بدره وأفوله في المحاق ...

* * *

إنما تخشى الإنسانية على عطاء القمر من احتكار المستغلين ، بعد أن لبثت من الأزل ، تجد فيه الملاذ من وطأة الاستغلال وبغي الاحتكار ، من حيث ارتفع عالياً بعيداً كل البعد عن أسواق البيع والشراء ، يتدفق نوره فيغمر أكواخ الفقراء وكهوف المشردين ، ممن لم يَدَعْ لهم طاغوت الاستغلال قطرة زيت يوقدون بها مصباحاً .

ويروعها أن يحمل طاغوت العصر أوزاره إلى القمر ، من الأرض التي احتملت وطأته على مر الحقب ، ومنحته من أسرارها وكنوزها وخصبها سخي العطاء ، فجعل منها ساحة يعربد عليها الشيطان ، وتُغص بدماء الضحايا والشهداء ، وتتراكم فوقها الأنقاض والأشلاء ...

* * *

من مدار القمر ، نقلت أجهزة العصر إلى سكان الأرض ، ما اكتشفت «أبولو» من أسرار ذلك الكوكب البعيد الشاهق .

وعلى الأرض ، خالطتْها دمدمةُ صوتٍ قبيح من قاعدة الانطلاق ، يُصِرُّ على أن تكون الرحلة الأولى إلى القمر ، غزواً استعمارياً يسجل تبعية القمر للغزاة ، ويبصم بها على سطحه ..

وشحذ غول الاستغلال أنيابه لاحتكار ما عساه أن يكون في المستعمرة الجديدة من مجهول الكنوز .

وفُتِحَت الخزائن لتكديس ما يتدفق من ثمنٍ فاحش لصخور القمر المعروضة في متاجر الجواهر ، وما يدفع هواةُ السفر إلى القمر من ملايين الدولارات ، عملةً صعبة .

وينتعش الصنم الأصفر وهو يسترد سلطانه الوثني ، من حيث ظنت البشرية أنها تحررت من لعنته .

* * *

هكذا يبدأون رحلة الإنسان إلى القمر ، بتشويه وجه الضياء ، بعد أن فرغوا من تشويه الحياة على الأرض واغتالوا ما تمنح من عطاء .

بل هكذا يمسخون آية العصر ومعجزة العقل الإنساني ، حين آن له أن يجني بالعلم ثمار كفاحه الطويل .

بعد أن مسخوا الإنسان نفسه ، وأهدروا آدميته بالرق والاستعباد ، وساموها ما لا تُسام البَهم والدواب من قهر ومهانة وإذلال ، وإنها للآدمية التي كرمها خالقها الواحد ، وأمر ملائكته أن يسجدوا لأبيها ، الإنسان الأول .

ولقد ناضل الإنسان طويلاً في سبيل كرامته ، ضد أعداء البشر وجنود الشيطان .

وأعطت الأجيال من تصوراتها ورؤاها ، ومن تراثها الحضاري في علم الفلك ومراصد الكواكب وقوانين الطبيعة ، ما مهّد لجيلنا سبيله إلى القمر ، بعد أن سخر الجو وركب الطائرة واكتشف أسرار الذرة والإلكترون وتحكم في موجات الأثير وارتاد الفضاء .

هذا الإنسان ، يرفض بعقله المنتصر وضميره الحي ووجدانه المرهف ، أن يأتي في آخر الشوط من يستغل ، لحسابه الخاص ، كل رصيد الأجيال من البشرية ويمسخ آية القمر ببصمة الاستعمار ، بكل ما يلونها من دماء الضحايا ، وما تبوء به من لعنة جيلٍ معاصر ، يؤرخ عُمرُه بما بين فاجعة هوريشيما ونجازاكي إلى معركة الجزائر وحرب فييتنام والمعركة المحتدمة على مهد الحضارة وأرض الرسالات .

وتروّعه زمجرةُ الوحوش في الشرق الأقصى وفي أحياء الزنوج وبحر الخنازير والمستعمرات العنصرية في افريقية ، وعواء الذئاب في القدس والخليل والطور وسينا وعلى سفوح الجولان وجرزيم والمكبر ، وضفاف السويس والأردن ...

* * *

على الساحة الكبرى من أقصى المشرق إلى أمريكا ، يخوض إنسان العصر معركته النبيلة في سبيل الخلاص من مهانة الإستعباد وطاغوت القرصنة .

ومن الأمم المتحدة ، أذيع نبأ في السادس من نوفمبر سنة ١٩٧١ ، عن : مشروع معاهدة لتدويل القمر والمدار المحيط به وتجريد منطقتـه كلها من السلاح ، وحماية بيئتها وتنظيم عمليات استكشافها .

ويقضي المشروع ، وهو مقدّم من الاتحاد السوفييتي ، بعدم تعويق حرية وصول المركبات أو الأشخاص التابعين لدول أخرى ، إلى القمر . كما يقضي «بعدم السماح لأحدٍ بادعاء مِلكية القمر»

وأنى لأحدٍ أن يدعي ملكيته ، وما كانت رحلة الوصول الأولى سوى

شوط حاسم من مراحل الكفاح الإنساني في تسخير الظواهر الطبيعية واكتشاف مجاهل الكون ، وحصادَ جهودٍ مضنية على مر العصور والأجيال، لم يشارك فيها «غزاة القمر» إلا في مرحلة قطف الثمار وجني الحصاد ؟

«كلا والقمر * والليل إذا أدبر * والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكُبَر * نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر »

* * *

وبعد فما أدري إذا كان علمنا بكثافة مادة القمر ، وما حمل إلينا الرواد من ترابه وصخوره . سيُبقي على تعلُّق وجداننا به ، فيظـــل على العهد به من قديم الزمان ، مجمع الأحباب والخلان ، وسمير المسهدين ، يبثونه مواجدهم ومواجعهم ، ويشدون له بالغناء ويرون فيه وجه الحبيب ، ويلتمسون لديه ما يؤنس وحشتهم في محنة هجر أو اغتراب ، وما يذكرهم بشملٍ اجتمع على نوره في ماض لهم ولى وراح ؟

يا طول ليلنا إن فقدنا هذا العطاءَ من القمر ! أقولها وفي مسمعي ، صدىً يشجيني من شدوِ شاعرنا «ابن زيدون» في ربوع الأندلس :

ودَّع الصبرَ مُحِبٌ ودَّعَكْ ذائعٌ مِن سِرِّه ما استودعكْ
يقرع السِّنَّ على أن لم يكن زاد في تلك الخُطا إذ شيّعك
يـــا أخـــا البدر سنـــاءً وسنى حفظ اللهُ زمانــــاً أطلَعَكْ
إن يطُل بعدَك ليلي فلَكَمْ بتُّ أشكو قصرَ الليل معك !

* * *

القسم الثاني

أمتي والعصر

هذا بلاغ للناس

١ ـ القرآن ومنطق الحتمية التاريخية

٢ ـ القرآن والتفسير العصري

٣ ـ الإيمان والعلم

* الإيمان ، بين الوعي والتحذير
* العلم ، بين الأصالة والادعاء
* العلم ، بين الأصالة والادعاء
* من عطاء الإسلام ، للمنهج العلمي : لا أدري ، والله أعلم

وصل إنسان العصر إلى القمر .

وأمتي في محنتها بفلول العصابات اليهودية التي حطت على أرضنا ، وأنشبت مخالبها في صميم كياننا ووجودنا .

وفي حساب السياسة الدولية المعاصرة ، أنها معركة الشرق الأوسط .

وفي حساب التاريخ الإسلامي ، أنها جولة في معركة أمته ضد أعداء دينها تأخذ دورها هذه المرة ، على أرضنا الطيبة التي تصدت ببسالة للغزو الصليبي وردته مقهوراً عن حماها .

وفي حساب التاريخ العام ، أنها جولة في معركة إنسانية رهيبة ضد أعداء الإنسان : امتدت زماناً من عصر الفراعنة والأشوريين والرومان ...إلى العصر الحديث .

واتسعت مكاناً من الأسر البابلي إلى المانيا والشرق الأوسط .

والتاريخ لا يستطيع أن يجد تفسيراً لتتابع هذه الجولات وامتداد أبعادها ، إلا أن تكون معركة واحدة للبشرية ضد أعداء الإنسان .

ولا يملك أن يقدم تعليلاً ، إلا أن الشعوب والأمم تواصت فيما بينها على مواصلة النضال لإنقاذ البشرية من وباء خبيث .

وأجيال البشرية تتلقى تبعة هذا الجهاد ، دون أن تسجله في وثيقة مدونة أو عهد مكتوب .

لأنه من أمانة أنسانيتها التي تتوارثها تلقائياً ، تحقيقاً لوجودها الإنساني ، وحماية لما ناضلت عنه طويلاً ، من حق وخير وجمال .

ولولا أنها تعي أن العنصرية اليهودية لعنة وشر وقبح ، لانحصرت المعركة في زمن بعينه أو منطقة بذاتها . ولما تتابعت جولاتها من أقدم المعروف من التاريخ ، إلى عصر القمر ! واتسع ميدانها على مسار ذلك الزمن الطويل ، من وديان الرافدين والنيل وفلسطين وشمال الحجاز ، إلى ضفاف الفولجا والتايمز والسين والراين ...

ومن هنا تأخذ القضية ، كما قلت ، في التقديم ، موضعها مع قضايا الإنسان في عصرنا ، وإن كانت أمتي هي التي تحمل عبء هذه الجولة الشرسة ، بكل تكاليفها وضحاياها لحساب شرفنا وشرف الإنسان

وإذ سبق لي عرض هذه القضية بأبعادها التاريخية والفكرية ، في كتابي (أعداء البشر) [1] ،

لا أنظر إليها هنا إلا من حيث هي قضية إيمان وعلم ، تنتصر بهما أمتي في جهادها الأكبر ضد عدوها وعدو الإنسان ، وتواصل مسيرتها لتأخذ المكان الذي عرفه لها تاريخ الحضارة الإنسانية منذ كان . .

***

١ نشر بالقاهرة ، سنة ١٩٦٨ : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

القرآن ومنطق الحتميّة التاريخيّة

« لَقَدْ مَنَّ الله على المؤمنينَ إذ بعث
فيهم رسولاً من أنفسِهم يتلو عليهم آياتِه
ويُزَكّيهم ويُعَلمُهم الكتابَ والحكمة ،
وإن كانوا من قبلُ لَفي ضلالٍ مبين »

(سورة آل عمران)

من عجبٍ أن تفسير تاريخنا ، المادي منه والسياسي والفكري يظل يدور ويحور ليجد هذا القرآن دائماً : أمام الأمة منارَ نهضة ودليلَ مسرى ، وهدفَ كلّ محاولةٍ لبغْي الاستغلال وسيطرة الاحتكار .

* * *

المرحلة الدقيقة الحرجة ، التي تجتازها أمتنا اليوم ، تحتاج إلى رؤية واضحة لتاريخها يضيء لها معالم الطريق وآفاق الطموح .

ونحن أمة عريقة ، مرت بها على مسار تاريخها الطويل عصور ازدهار وانحطاط ، سايرت يقظتها ووعيها ، أو غفوتها وخمولها . وهي لا تستطيع أن تحمي وجودها وتتابع سيرها على مراقي تقدمها ، ما لم تستقرىء ماضي خطواتها على درب الزمن ، وتدرك سر قوتها وبقائها ، وعواملَ ضعفها وذرائع تخلفها ...

والنظرة الثاقبة الشاملة لتاريخنا وموازين القوى فيه ، ترى أول ما ترى كتاب الإسلام .

لأنه الذي يعطي تاريخنا تفسيره

ويعطينا منطق حتميته .

* * *

ولا جدال في أن المذهب المادي لتفسير التاريخ ، كان خطوة هامة في سبيل تحرير الفهم التاريخي من أسْرِ السياسة التي سيطرت عليه أمداً طويلاً ، وحصرته في مدارها .

كما كان خطوة تقدمية في المنهجية التاريخية ، بعد أن كانت كتابة التاريخ في جملتها ، مجرد جمع للأخبار والمرويات والآثار ، وسردٍ زمني لتتابع الأحداث ودورانها في فلك السياسة الحاكمة ، بمعزل عن الجماعات والشعوب ..

ولا يسلم المذهب المادي من أخطاء ، لكن تبقى له هذه القيمة في خطوته التقدمية نحو صيرورة التاريخ علماً ، بالمفهوم العام لمعنى العلم ، تدخل فيه كل العلوم والدراسات الإنسانية .

ومهما نختلف مع الماديين في تفسيرهم للتاريخ ، ويتفاوت تقديرنا لما كان للعامل الديني والوجداني من أثر نافذ في توجيه التاريخ على إطلاقه .

فإن الضمير العلمي الحر ، لا يجحد ما أجدى هذا المذهب على الفهم التاريخي وتطور دراسته .

دون أن نتحجر فكرياً في حدوده الصارمة ، لا نمد البصر إلى ما وراءها من آفاق رحبة ، على نحو ما فعل الذين نظروا إلى الدنيا والتاريخ من الزاوية الحادة للمذهب المادي ، معتقدين أنه نهاية المطاف وآخر الطريق ، وكأن الإنسانية تجمدت عند الموقف الذي أطل منه «ماركس» في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلن تتحرك بعده خطوة على الطريق عَصِيّةً على سنة الارتقاء ، غير مستجيبة لقانون التطور الذي هو دعامة المذهب المادي نفسه ، وجوهر فلسفته .

أو كأنها حُبِست في دائرة مقفلة ، فلن تنطلق منها أبداً .

ولا أتنبأ بغيبٍ لم ينكشف بعد من آفاق ، بل أنظر فيما طرأ من جديد بعد المذهب المادي في تفسير التاريخ ، منذ إعلان بيانه قبيل منتصف القرن الماضي :

• نظرية وحدة المعرفة ، قد ألغت الفواصل الحادة بين دوائرها التي تتماس وتتلاقى وتتداخل ، وإن لم تفقد كل منها معالمها الخاصة المميزة .

وبمنطق وحدة المعرفة ، لا يمكن أن يستقل المذهب المادي بتفسير التاريخ .

• وتقدم علم الإنسان ، فأدرك أن هذا الإنسان ليس فرداً من قطيع ، يخضع لنمط واحد من السلوك وتضبطه قوالب عامة كالتي تضبط سائر الكائنات سواه ، بل كلُّ إنسانٍ عالَمٌ وحده .

• وتقدم علم السياسة فأحل نظرية الوحدة العضوية للمجتمع ، محل نظرية العقد الاجتماعي .

وتطورت مناهج الدرس منتفعة بكل ما استحدث العصر من ضوابط ، يجب أن يعرض عليها أي مذهب وضعي ورثناه من قرن مضى .

وشهد عصرنا أحداثاً ثورية في حياة الشعوب ، وارتاد آفاقاً كتبت التاريخ بقلم لا عهد للقرن التاسع عشر به ، وأضافت إلى القيم الإنسانية موازين لم يعرفها جيل ماركس ولينين ..

• • •

من هذا المنطلق الفكري الحر ، أتأمل في تاريخنا بنظرة مستوعبة ،

فيلقاني كتاب الإسلام حيثما نظرتُ وأنّى اتجهت .

يستقطب العوامل الأخرى في تفاعل مؤثر ، فيعطي تاريخنا تفسيره ومنطقه .

لا يغض من شأن أي عامل آخر : سياسي أو اقتصادي أو ثقافي ، ومن أخذ دور التوجيه والقيادة .

من القرن الهجري الأول ، كان لواء الإسلام يجمع شعوباً اختلفت أصولها وسلالاتها ، وتناكرت قبله عقائدها ومللها ، وتفاوتت نظمها السياسية وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، وتباعدت ألسنتها وعقلياتها وأمزجتها وثقافاتها .

جمعها أمة واحدة .

من بلاد فارس وما وراء النهر ،

إلى المغرب الأقصى والأندلس على حافة بحر الظلمات .

اجتمع الفارسي والعراقي والبدوي النجدي واليمني ، والشامي والمصري والمغربي : أمة واحدة .

وانصهر ميراث الحضارات العريقة لشعوب هذا العالم الإسلامي الرحب ، في البوتقة الواحدة .

والتقى البوذيون المجوس والصابئة والوثنيون المشركون وطوائف الملل الدينية ، على دين واحد .

وتعربت الشعوب ، من العجم والفينيقيين وأبناء الفراعنة والبربر ، لأنها

أسلمت . والعربية لغة القرآن : كتاب عقيدتها الواحدة ، ولواء وجودها المشترك .

أي عامل من العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية واللغوية والإقليمية والعنصرية ...

يمكن أن يحجب هذا القرآن ، أو يزحزحه عن موضعه الذي يعرفه الواقع التاريخي ، ونعرفه به ؟

* * *

ومن القرن الهجري الثاني ، بدأت الحضارة الإسلامية تأخذ دورها القيادي لتضيء للبشرية ظلمات عصورها الوسطى ، وتحدو مسراها إلى فجر النهضة ، وعصر العلم الجديث .

حضارة عربية اللسان والقلم ،

إسلامية الجوهر والروح والفكر والمنهج .

شاركت فيها شعوب الأمة من أقصى المشرق الآسيوي إلى أقصى المغرب الإفريقي .

وتألق ضياء مناراتها ، من نيسابور والري وأصفهان ، وخوارزم وبخاري وسمرقند ، وبغداد والبصرة والكوفة ، والآستانة وبيروت ودمشق وحلب والقدس ، ومكة والمدينة ،

إلى القاهرة والإسكندرية ودمياط ، وطرابلس والقيروان وتلمسان وقسنطينة ووهران ، وفاس ومراكش وطنجة وسبته ، وطلطيلة وقرطبة واشبيلية ومرسية ...

والقرآن دليل هذه الحضارة الإسلامية الرائدة ، ومنارها ولواؤها .

* * *

وعلى نور هداه ، صدت الأمة غزوات الصليبيين وهجمات التتار .

وإن استنفدوا من طاقاتها ما عطل دورها القيادي في بناء الحضارة .

وانطلقت به أوروبا تغذ السير إلى عصرها الحديث ، مزودة برصيد الحضارة الإسلامية وتراثها الذي انتقل إليها على المعابر التاريخية المشهورة : البوسفور والدردنيل ، وصقلية والأندلس ...

* * *

ودخلنا نحن في ليلنا الطويل ،

نمنا ، لكنا لم نمت ..

وغفلنا ، لكنا لم نفقد الوعي ..

وتخلفنا ، لكنا لم نتـهْ ، ولا ضاع منا الطريق ..

كان القرآن معنا ، وفي قلوبنا وضمائرنا ..

يُتلَى في الدور والأكواخ والمساجد والزوايا ، وينفذ إلى نجوع البوادي وقرى الريف ..

منفرداً بالسيطرة الكاملة على ضمير الجماهير من أبناء الأمة الذين لم يصل إليهم ، من أي سبيل ، شعاع ضوء وافد من الغرب .

وإذ فُرِضَتْ الأمية على عامة الجماهير ، وحيل بينهم وبين قراءة أي كتاب أو صحيفة ومجلة ، بقي لهم كتابهم الهادي ، ينسخ أميتهم بمدد

سخي من الوعي ، ويمزق عن بصيرتهم حجب الجهل وغشاوة العمى وغطاء الغفلة ، ويلح على عقولهم وأفئدتهم بكلمات الله في أمانة الإنسان وكرامة الآدميين .

وحين كانت الأمية فاشية ، والمدارس تتجافى عن القرى والنجوع والبوادي والواحات والأحياء الشعبية في المدن ، وتقيد الدخول إليها بلوائح ديوانية ورسوم مالية .

كانت هناك للأميين مدرستهم القرآنية ، تستقبلهم وهم صبية في المهد ، وتسهر على تثقيفهم وهدايتهم طول مراحل العمر ، لا تصدهم عنها لوائح ونظم ، ولا تحتاج ، لكي تؤدي رسالتها إليهم ، إلى مبنى مدرسي أو طلب التحاق أو إجراء كشف طبي ، أو أي قيد آخر من قيود السن والقدرة والمستوى المادي أو العقلي .

كانوا جميعا يسمعون القرآن ويتلونه ويحفظون ما صح لهم من آياته ، وإن كانت جمهرتهم الغالبة أمية لا تفك الخط .

وتجلت آية الله فينا :

« هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين »

• • •

على هدى ذلك النور الذي لا ينطفىء ، سرت شعوب الأمة في لياها البهيم ، يحدوها دعاء الحق والخير والكرامة .

ومن منهله الصافي ارتوت . وهي تستجمع قواها لترفض الطغيان والبغي ؛ وترجم الاستعباد .

وفي هذه المدرسة القرآنية المنتشرة في كل القرى والنجوع والدروب والزنقات ، تلقت الأمة الشحنة الثورية لمعارك التحرير ، بكلمات الله يتلوها أبناؤها الأميون — أو تُتلَى عليهم — مصبحين ومُمسين ، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، تزكيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة ، وترسخ في ضمائرهم فريضة الجهاد للتحرر من أغلال العبودية المهينة ، لغير خالقهم..

• • •

كيف يمكن أن نفهم تاريخنا أو نفسره ، بمعزل عن هذا القرآن بسلطانه الفذ على ضمير الجماهير ووعيهم ؛ وهم يتمردون على أغلال الاستعباد ، ويرجمون صروح الظلم والطغيان ؟

ذلك ما لم يخطئه أعداء الأمة ، من كل جنس وملة ، وفي كل عصر وجيل ...

• • •

على مسار الزمن ، من فجر المبعث إلى اليوم ، لم يعرف التاريخ هدفاً شُدت إليه أبصار أعدائنا ، مثل هذا القرآن .

تغير الأعداء فوجاً من بعد فوج .

وجاءوا من شتى الأقطار ومختلف الجنسيات والعصبيات .

وتفاوتت طبيعة الحرب ومواقعها من جولة إلى أخرى .

وتفاوتت كذلك أنماطها وأسلحتها .

والهدف هو الهدف ، لم يغب قط عن بصر عدو ، ولا حادت عنه نظرته .

وإن تذرعوا إليه بكل ما عرفت دنيانا من حيل وذرائع .

وقصدوه سافرين حيناً ، ومتنكرين أحياناً في عجائب وغرائب من أفانين الأقنعة والأزياء .

ما وراء هذا الهدف ، لم يكن يعنيهم ابتداء ، لأن أي هدف وراءه هين ...

كل القلاع من ورائه والحصون ، ليست عصيّةً إلا بمقدار ما يمنعها هذا الحصن الأول .

ومناطق النفوذ والاستغلال والاحتكار ، وثغور الغزو المعنوي والفكري . لن تكون بعيدة ولا صعبة .

ما لم يبق هذا القرآن حارساً لضمير الأمة ، ساهراً على إيمانها بالحق والكرامة ، ولواء يجمع شعوبها من مشرق ومغرب ...

* * *

من فجر المبعث ، كان هذا القرآن يؤرق ليل المشركين من قريش، وشهدتهم دار الندوة في أم القرى ساهرين يتداولون أمره فيما بينهم ، التماساً لوسيلة يصرفون بها سمع العرب عن هذا القرآن .

ويقول كبير منهم « الوليد بن المغيرة المخزومي » :

— يا معشر قريش ، إن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمِعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً .

ويتخبطون في حيرتهم ، لا يدرون بمَ يصفون هذا القرآن ، وماذا يقولون فيمن جاء به من وحي ربه .

هل يقولون : كاهن ؟

لقد عرفوا وعرفت العربُ الكهان ، فما القرآن بسجع الكاهن ولا زمزمته !

أو يقولون : مجنون ؟

لقد رأوا الجنون وعرفوه وعرفته العرب جميعاً ، فما هو بخَنْقِه ولا تخالُجِه ولا وسوسته ...

أو يقولون : شاعر ؟

إنهم لعلى يقين أنه ليس بشاعر ، وقد عرفوا الشعر كله وعرفته العرب : رجَزَه وقصيده ، وهزجَه وقريضَه ، ومقبوضه ومبسوطه ، فما القرآن بالشعر .

أو يقولون : ساحر ؟

كيف تصدقهم العرب ، وإنهم ليعرفون السحرة وسحرهم ، وليس هذا القرآن بنفثهم ولا عُقَدهم ؟

وغُلبوا على أمرهم ، فسألوا «الوليد بن المغيرة» بما له من خبرة السن والرأي المسموع فيهم ، أن يختار لهم ما يقولون للعرب في هذا القرآن ليصرفوهم عنه . أجاب الوليد :

— والله إن لقوله لَحلاوةً .... وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو السحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ...

وخرجوا بهذا القول مجمعين عليه .

وتوزعوا فيما بينهم مداخل مكة ، يترصدون لوفود القبائل ، وقد أخذوا سبيل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه أن يسمع ما يتلو « محمد بن عبدالله » من كلامٍ هو السحر ..

دفاعاً عن موروث جاههم ودين آبائهم ، وإبقاء على ما هيأ لهم موضعهم بمكة حول الحرم ، من سلطان ديني واقتصادي على القبائل العربية .

والقرآن كان الهدف ،

لأنه الذي ينسخ تلك الأوضاع الجاهلية التي يحاربون للإبقاء عليها ...

* * *

مع حركة التحول التاريخي من دار المبعث إلى دار الهجرة ، كان اليهودُ هناك في مستعمراتهم الناشبة في يثرب وما حولها من شمال الحجاز .

وقد عبأوا أحبارهم للجدل في القرآن إعناتاً لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام .

وتذرع من تذرعوا منهم بالإسلام ، فتنكروا بالقناع الموهم ، وخالطوا المسلمين يدسون إليهم أسطوريات من إسرائيلياتهم ، لينحرفوا بفهم الأمة لكتاب الإسلام ، ويطعموه بعناصر يهودية .

دفاعاً عن وجودهم المغتصب في الأرض الطيبة التي طرأوا عليها من وطأة الرومان الساحقة ، فأنشبوا مخالبهم وأنيابهم فيها ، يستنزفون خيراتها ويحتكرون موارد الرزق فيها ، حتى أثروا ثراء فاحشاً على حساب الوجود العربي لأهلها الأوس والخزرج ، الذين مزقتهم فتنة يهود ، وأوقدت بينهم نار العداوة والبغضاء ، وسهروا عليها يلهبون ضرامها في حروب متتابعة ، خضبت أرض يثرب بدماء القتلى من العرب ، على امتداد خمسة قرون قبل الإسلام ،

والهدف هو القرآن ،

لأنه الذي جمع شمل الأوس والخزرج ، وأطفأ نار الحروب بينهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً في العقيدة وأنصاراً لنبي الإسلام ، عليه الصلاة والسلام ، وجنداً مؤمنين في حزب الله !

وهو الذي أنار للأميين الطريق ، ليحققوا وجودهم الحر وينجوا من مخالب مصاصي الدماء وأكلة الربا وقتلة الأنبياء . ويكشفوا ما زيف يهود على الموسوية ، وما تقولوا على الله وحرفوا من كلمات التوراة ....

* * *

في الحروب الصليبية ، كان الطامعون من الفرنجة في احتكار خيرات أرضنا والسيطرة على مواردها الاقتصادية ، قد ارتدوا قناع التدين ، وزيفوا الصليب شعاراً موهماً .

وتعددت موجات الغزو وجولات الحرب . حتى أعياهم آخر الأمر أن ينفذوا إلى ما أرادوا من مناطق الاستغلال والاحتكار والسلطة .

لأن القرآن كان هنا ، لواءَ الجهاد ونور البصائر ، والمدد الذي لا ينقطع من ذخيرة الإيمان للمجاهدين ، فوجاً في إثر فوج ، وجيلاً من بعد جيل ...

* * *

وتغيرت الأقنعة وتغيرت الذرائع ،

عادت الحملات الصليبية متنكرة في رداء الرهبان والعلماء ، وأقنعة الخدمة التجارية لتبادل المنفعة ، والتطوع للتبشير بثقافة الفرنجة وحضارة الغرب : توطىء للاستعمار هذه الأرض ، وتدرس له عقلية شعوبها ، وترتاد له الطريق المأمونة لغزوها ، وتكتشف له المداخل والثغور التي ينفذ منها أو يتسلل .

فكان هذا القرآن هو المدخل الذي حددوه . والهدف الذي قصدوه ..

الجنود المدربة من علماء الاستشراق والمبشرين الذين وجهتهم الكنيسة ومراكز الاستعمار ، والتجار الذين جاسوا خلال الديار ، أكدوا لقومهم ألا سبيل إلى غزو الأقطار الإسلامية واللواء الواحد يجمع بينها ، والمدرسة القرآنية الإسلامية توحد المنهج والتربية والتعليم . فيدرس الطالب المشرقي على ضفاف السند والرافدين ، ما يدرسه الطالب المغربي على مشارف الأندلس : يبدأ بحفظ القرآن كتاباً أول ، قبل أن يتصل بأي كتاب آخر . ويتعلم تجويده على متون مشتركة ، ثم يتلقى مبادىء علوم العربية والإسلام في كتب موحدة ، بعدها يأخذ طريقه حيث تختار مواهبه وتعين ظروفه . فيدرس الطب أو الكيمياء أو الطبيعة أو الجغرافيا أو الرياضيات والفلك ...

بعد أن تزود بثقافته القومية التي لا تختلف في المرحلة الأساسية ، في مشرق عنها في مغرب ..

ورحلات العلماء تعبر العالم الإسلامي بغير حدود ، والتبادل الثقافي والفكري والعلمي . يتم على أوسع نطاق .

وألقى الاستعمار بكل ثقله في معركة التمزيق السياسي والثقافي لأقطار الأمة الواحدة ، وعبأ له كل الأسلحة المادية والمعنوية ، وانتشرت إرساليات التبشير والبعثات العلمانية . تبتر من استطاعت من أبنائنا ، من جذور أصالتهم . وترسخ فيهم عقدة الشعور بأن قديمهم سبب تخلفهم وعلة ضعفهم . وتلح عليهم بفتنة «الخواجة» ليكونوا في أوطانهم ، وبين أهليهم غرباء !

وكشفت معارك التحرير التي امتد ميدانها على الساحة الكبرى

لوطننا الكبير ، أن ضمير الأمة بقي سليماً مرهف الوعي بما رسّخ فيه القرآن من إيمان بحقه المغتصب وغضب لحرماته التي لا يحل أن تستباح ، وما حمّلته عقيدته من تكاليف إنسانيته ، رفضاً للعبودية وجهاداً لسحق الشر والمنكر ..

* * *

وجاء الاستعمار الحديث بأقنعته الجديدة وأسلحته العصرية ، يشغلنا بصراع المذاهب ومعترك النظم والأوضاع ، ويمزقنا أحزاباً وشيعاً بعد أن مزقنا أقاليم وقوميات وثقافات .

دون أن يغفل عن الهدف غمضة عين :

انتعشت الإسرائيليات ، وراجت بدع التأويل العصري منحرفة بشباب الأمة عن فهم القرآن كما فهمته مدرسة النبوة ، ومتسلطة على وجدانهم بالفتنة التي تأخذ حيناً اسم القاديانية ، وأحياناً اسم العصرية وسمة العلمانية .

وحوربت اللغة العربية لأنها لغة هذا القرآن ، ولسان الملايين من أمته.

وضُيّع تراثُ الإسلام . وشوه تاريخ الإسلام ، وزُيّفت حضارة الإسلام .

سداً للذرائع التي تشد الأمة إلى منار وعيها وجذور أصالتها ، منذ تلقت كلمة «اقرأ» من غار حراء ...

* * *

وتفرض الحتمية التاريخية أن يظل هذا القرآن نوراً لبصيرة الأمة ، يهدي خطاها نحو الوحدة ، ويرهف وعيها لظاهرة الغربة الثقافية بين أبنائها ، ويقود جهادها الباسل لتطهير حماها من رجس الصهيونية ودنس القراصنة .

ويؤمن مسعاها الطامح إلى تحقيق وجودها الكريم الحر ..

القرآن والتفسير العصري

« هذا بلاغٌ للناس »

* بيان
* مدخل تاريخي
* القرآن بين الفهم والتفسير
* لكيلا تضل المقاييس
* دفاعاً عن منطق عصرنا وكرامة عقولنا
* بيت العنكبوت
* بين الدراسة القرآنية ، والتفسير العصري.
* اللهم فاشهد

---

* هذا الفصل مستخلص من كتاب بهذا العنوان ، نشرته لي دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٧٠ .

« وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا بيِّنات قال الذين لا يرْجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بَدِّله ، قُلْ ما يكون لي أن أبدله من تِلقاءِ نفسي ، إنْ أتَّبع إلا ما يوحى إليَّ .. »

• • •

فجأة ، من حيث لا نتوقع ، ظهر تفسير عصري لكاتب صحفي ، مع ضجة إعلامية وحملة إعلانية عن حاجة الناس إلى تفسير جديد يلائم العصر ، ويُخرج للناس ما غاب عن النبي الأمي وقومه البدو ، من عصريات التكنولوجيا وحديثِ الطبيعيات والرياضيات وملاحة الفضاء .

وهذا كلام يبدو في ظاهره معقولاً ، يلقي إليه الناس أسماعهم ويبلغ منهم غاية الإقناع ، دون أن يتنبهوا إلى مزالقهِ الخطرة التي تختلط فيها المرامي وتتشابه السبل . فتفضي إلى ضلالٍ بعيد .

وأول ما يشغلني من هذه القضية ، هو أن الدعوة إلى فهم القرآن بغير ما فهمه المبعوث به عليه الصلاة والسلام ، تسوق إلى الإقناع بالفكرة السامّة التي تنأى بأبناء العصر عن مدرسة النبوة ،

ونتورط من هذا إلى المزلق الخطر ، يتسلل إلى عقول أبناء الأمة وضمائرهم ، فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم (ما لم يفهمه النبي الأمي من بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجِنّة وتشريح وأنثروبولوجيا ..) فليس صالحاً لزماننا ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية أو يقبله منطقنا العصري .

هكذا باسم العصرية ، نغريهم بأن يرفضوا فهم كتاب الإسلام ،

بعقلية نبي الإسلام وصحابته ، ليفهموه في تفسير عصري من بدع هذا الزمان .

وباسم العلم ، نخايلهم بتأويلات مُحدَثة . تلوك ألفاظاً ساذجة صماء عن الذرة والإلكترون وتكنولوجيا السدود وبيولوجيا الحشرات وديناميكا الصلب وجيولوجيا القمر ...

وفي ضجيج هذه الألفاظ الطنانة وخلابة ما يقدمه التفسير العصرى من عطاء مَن كُشِفَتْ له حُجُبُ الغيب وأوتي من كل شيء علماً . تتعذر الرؤية الثاقبة التي تميز حقاً من باطل ، وعلماً من دجَل ، وإيماناً من زخرف قولٍ وبهرج بدعة ، ويفوتها أن تفصل بين منطقِ تفكيرٍ علمي وجرأة ادعاء وطبول إعلان ....

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ به عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ، وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

والعلم فريضة ، والشهادة أمانة ، وكلمة الحق مسئولية وتكليف .

وفي مواجهة التيار الجائح ، أؤدي فريضة العلم وأمانة الشهادة ، لكيلا أبوء بلعنة إثم القلب .

* * *

في وعيي ومسمعي ، أصداء مماثلة من دعوة سابقة ، بَشَّر بها في

أعقاب إحباط الثورة العرابية دعاةٌ أجانب ، لم يجرؤوا على التصدّي للقرآن مباشرةً ، فاتجهوا إلى لغةِ القرآن ليعزلوا الأمة عنه .

وخرجوا على الناس في أقنعة العصرية والعلمية والتقدمية ، ينادون بأن « هذه اللغة البدوية هي المسئولة عن تخلفنا العلمي والحضاري ، لأنها التي قتلت فينا موهبة الاختراع ، وقضت علينا بالجمود والعقم ، إذ نفكر بلغة أسلاف لنا عاشوا في عصر البداوة » .

وتصدّى ضمير الأمة لمواجهة تلك الدعوة الأجنبية بالتحدّي والرفض ، فكادت تذهب مع الريح ، لو لا أن حَمَلَ لواءها دعاةٌ من مثقفينا العصريين ، أنكروا هذه اللغة التي أورثتنا عقليتها القديمة المتحجرة المتبلدة . واشتدت حملة «الأستاذ سلامة موسى» على « الأحافير اللغوية التي ورثناها من مجتمع ديني زراعي إقطاعي ، فلغتنا الرسمية ليست لغة الديمقراطية والأوتومبيل والتليفزيون ، بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب ، فلا أمل لنا في حياة صحيحة مع لغة خرساء تجهل نحو مائة علم وفن ، لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا إلى لغة أخرى » .

ولم تجد الدعوةُ إلى نبذ (لغة القرآن) صداها ، فكان أن عمد داعيةُ العصرية إلى محاولة جديدة لتطوير معجم لغتنا وأساليبها البدوية ، وقدم نماذجَ من (اللغة والبلاغة العصرية) المقترحة لا تبعد كثيراً عن المحاولة العصرية لتفسير القرآن . فتصوّر ، أو صوّر لنا ، أننا ندخل سباقَ العصر العلمي ، بمجرد أن نستعمل ألفاظ (التناقل الروماتيزمي ، والطاقة الموطرية للكلمات . ومذهب التطور من أعظم الحمائر الاجتماعية ، والحرب قاطرة التاريخ . وتجرثمت الفكرة عندي ...)

وكما اشتدت حملته على حُماة الفصحى (لغـة القرآن الموروثة من مجتمع ديني زراعي). ورأى فيهم أعداء التطور وكهان العصر (وهم تخصصوا في درس اللغة العربية ، فإن تخصُّصَهم ضيّق آفاقَهم . فصاروا ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة في المعابد . زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادي ووجدان طبقي ، ينهضان على استبقاء العربية على جمودها الحاضر ، ولذلك يخشون التغيير ، ويرون فيه هجوماً على مصالحهم الاقتصادية ، ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تعلو على مصالح أية طبقة فيها)[1]

أقول : كما اشتدت حملته على حماة الفصحى والمتخصصين في العربية . تشتد الحملة اليوم على احتكار أصحاب التخصص في الدراسات القرآنية . وتنشر مجلة (صباح الخير القاهرية) نداء لزميل من محرريها ، يدافع بنفس المنطق ، وأكاد أقول بنص الكلمات ، عن التفسير العصري الذي قدمه أحد زملائه الصحفيين في المجلة . ويرجو لي حين تصديت لرفض هذه الجرأة : (أن أفكر في هذه القضية بعقلية المفكر الحريص على مصلحة الأمة ، لا بعمامة المحترف الذي يحرص على مستقبله الخاص، ويدافع عن اختصاصاته الرسمية التي يأكل منها خبزه).

* * *

والسؤال الخطير الذي تواجهنا به القضية هو :

---

١ القضية معروضة بمزيد تفصيل ، في كتابي (لغتنا والحياة) ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٩ ، ودار المعارف ١٩٧٠ وفيه مراجع كل النصوص المنقولة ، في سياق هذا العرض .

هل نفهم القرآن كما بينه نبيُّ الإسلام ، أو كما يفهمه مفسر عصري من الصحفيين .. ندب نفسه لمنصب الفتيا في العقيدة وجعل من المجلة داراً عصرية لإفتاء المسلمين في الحلال والحرام . وأذاع أنه فهم من القرآن (أن جبريل يمكن أن ينزل في أي زمان ومكان ، على أي نبي من أي عصر وبأية لغة)؟

فلننظر في هذا التفسير العصري ، من حيث هو نموذج ومثال لما يخوض فيه من يتكلمون في القرآن بغير علم ، وما يتعرض له الفهم الإسلامي من بدع التأويل بالرأي والهوى :

« مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ ، إنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِباً »

صدق الله العظيم

مدخل تاريخي

« إنّا نحنُ نزّلنا الذِكْرَ
وإنا له لحافظون »

القرآن الكريم ختام رسالات الدين ،

وهو كتاب الإسلام عقيدة وشريعة ، ومنهاجاً وسلوكا .

والسنة تفصيل لما أجمل منه ، وبيان لأحكامه وكلماته ، كما فهمها المصطفىٰ المبعوث به .

وسائر أصول الشريعة الإسلامية ترجع إليه أصلاً أوّل .

والمذاهب الفقهية تتعدد والأصلُ واحد .

والفرق الإسلامية تختلف ، محتكمة دائماً إلى نصوص من الكتاب والسنة.

ويتفاوت الناس في فهمهم للدين ،

وتتفاوت الأمم والأجيال والمذاهب في موقفها من الإسلام أو من التدين بوجه عام .

ويبقى القرآن ثابتاً لا يتغير ، موثّقاً لا يمسه أدنى تبديل ، ولا تتعلق به أدنى شبهة من تحريف .

* * *

من فجر المبعث بدأ توثيق القرآن الكريم :

يتلوه المصطفى على صحابته ، ويقرأونه عليه ، ويكتبه كُتّابٌ

منهم ، على ما تيسر من مواد الكتابة ، بإشراف المصطفى عليه الصلاة والسلام وتوجيهه .

كان هناك تنبه مرهف ، إلى ما لحق التوراة من تزييف يهود ، وما لحق الإنجيل من اختلافِ الطوائف المسيحية عليه ، نصاً وفهماً وتأويلا .

وإذ كان القرآن الكتابَ الخاتم للرسالات الدينية ، المصدق لما سبقه من كتُبها ، والمستصفى لما فيهـا من جوهر الدين الواحـد الحق ، فرضتْ الحاجةُ إليه ضرورةَ توثيقِ نصّه ، لتجد فيه البشرية الكلمةَ الأخيرة للدين ، آمنةً من شبهة أي تحريف له أو تبديل .

لم يكتف المصطفى عليه الصلاة والسلام بأن يحفظه الصحابة في صدورهم ، بل ندب لكتابته عدداً من كُتابهم ، وكان هو الذي يحدد موضع كل آية من سورتها ، بتوجيه الوحي .

وتوفي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، والقرآن كله محفوظ في صدور الصحابة ، مدون على ما تيسر من الرقاع والعسب وألواح الأكتاف ورِقاق الحجارة ، وإن لم يجمعه كتاب واحد .

* * *

في عهد أبي بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، كانت عملية جمع القرآن من صُحُفه المتفرقة ، بعد أن استشهد في حروبِ الردّة عددٌ غير قليل من الصحابة حفظة القرآن ، بلغ في « يوم اليمامة » وحده نحو أربعمائة وخمسين صحابياً (١) .

---

١ صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن = مع تاريخ الطبري ، حوادث سنة ١١ هـ .

وكان «عمر بن الخطاب» هو الذي سعى سعيه لهذا الجمع : تحدث فيه إلى أمير المؤمنين أبي بكر الصديق ، فتردد رضى الله عنه ، تحرجاً من أن يفعل شيئاً لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل «عمر» يراجعه في الأمر حتى شرح الله صدره لذلك .

وتمّت عملية الجمع والعهد بالمصطفى قريب ، ونُدب لها «زيد بن ثابت» أحد كُتاب الوحي للرسول ، وحُفّاظ القرآن الثقات . وأمر كلٌ من لديه شيء من الصحف والرقاع أن يقدّمها إلى «زيد» فبلغ من حرصه وتحرجه ، أن كان لا يكتفي بمراجعة ما يتلقى من صحُف القرآن على حفظه ، بل بالغ في الاحتياط فلم يقبل من أحدٍ آية إلا أن يأتي بشاهدين على أنها كُتبت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأودِع القرآن مجموعاً في مصحف ، لدى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر»

* * *

في عهد الخليفة الثالث «عثمان بن عفان» وُحّدت قراءة المصحفِ على حرفٍ واحد . ونُسِختْ منه نسخٌ وُزّعتْ على الأمصار الإسلامية ، مع الأمر بأن يُحرَقَ ما عداها من مصاحف ، بإقرار الصحابةومشورتهم .

قضت بذلك ضرورةٌ طارئة لفتتْ إلى خطرٍ لم يكن في الحساب :

كان المسلمون من قبائل العرب قد أذن لهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، في قراءة القرآن على عدة وجوه ، تعرف في المصطلح القرآني بالأحرف السبعة ، يختلف فيها منطوقُ ألفاظٍ من القرآن دون معانيها ودلالتها ، تبعاً لاختلاف لهجات العرب أو لغاتهم ، على وجه التيسير لهم بالقراءة على ما تَطُوعُ به ألسنتُهم ، كأن يقرأ بعضهم :« كلما

أضاء لهم مشوا فيه » [1] ويقرؤها آخرون : سعوا فيه ، أو : مضوا فيه.

ولم يكن اختلاف الأحرف السبعة في كلمات من القرآن ، يثير أي قلق أو شبهة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفتيه أبي بكر وعمر . إذ كان المسلمون العرب يعلمون علم اليقين أن الأمر فيه لايعدو اختلاف لهجات القبائل في هذا اللفظ أو ذاك ، للمعنى الواحد .

لكن بوادر القلق لاحت بعد أن خرج العرب من جزيرتهم يحملون لواء الإسلام ، وكان أن فتحوا مصر والشام والعراق قبل أن يمضي ربع قرن على الهجرة ، وخالطوا شعوبها التي وجدت في سماحة الإسلام ويسره وإقراره حرية التدين ، ملاذاً من وطأة الفرس والرومان .

عندئذ خيف على الإسلام أن تسمع هذه الشعوب الطارئة على العربية ، قراءة المسلمين العرب للقرآن ، فيظنوا أنهم يختلفون فيه ، باختلاف هذه الأحرف المباح لهم قراءته بها ..

ثم اشتد القلق حين خرج مسلمو الشام والعراق ، مع كتائب الفاتحين ، إلى ما وراء النهر . وقد كان هؤلاء وهؤلاء ، تلقوا القرآن من صحابة تختلف قبائلهم . فحدث أن أهل الشام خطّأوا أهل العراق ، وكذلك خطّأ العراقيون أهلَ الشام ، على مرأى ومسمع من شعوب البلاد التي امتدت إليها راية الإسلام .

روى «البخاري» في (صحيحه) أن الصحابي «حذيفة بن اليمان»

---

١ آية البقرة : ٢٠ — وأنظر مختلف الأقوال في الأحرف السبعة ، في (البرهان في علوم القرآن) للزركشي ٢١٣/١ ط الحلبي ٩٥٧ . و (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي : ٥١/١ ط مصر ١٢٨٧ ﻫ .

خرج من جند الشام والعراق في فتح أرمينية وأذربيجان ، فأفزعه اختلافهم على قراءة القرآن ، فلما رجع قدم على الخليفة عثمان فقال له : « أدرك الأمة قبل أن يختلفوا على القرآن اختلاف اليهود والنصارى ».

وتتابعت النذر بأصداء هذا الاختلاف ووقْعهِ ، فكان أن استقر الرأي على ضرورة حسمه :

أرسل «عثمان» إلى أم المؤمنين «حفصة» يستأذنها في أن تُخرج إليه المصحفَ المجموعَ المودعَ لديها ، لينسخ منه نسخاً ثم يعيده إليها .

وندب أربعة من الصحابة برياسة «زيد بن ثابت» لكتابة المصحف بلغته القرشية التي قرأها بها المصطفى في العَرْضةِ الأخيرة للقرآن ، فلما فرغوا من كتابة المصحف الإمام ، نُسخت منه أربع نسخ — على المشهور — بقيت إحداها في المدينة ، وأرسلت الثلاث إلى الكوفة والبصرة والشام .

وسوَّغ هذا الإجراءَ ، تفاقمُ الخطر من اختلاف المسلمين على قراءته ، وقد زالت الحاجة التي سوّغت التيسير ، بإلف العرب للغة النبي القرشي ، لسان الدين والدولة ..

ويحتمل أن يكون بعض المسلمين قد تحرجوا من هذا الإجراء . لكن أولي الرأي والمشورة من الصحابة ، كانوا مع «عثمان» في ضرورة حسم الفتنة .

نقل «الزركشي» ما روي عن «الإمام علي» أنه قال :

« رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع المصحف بين اللوحين .

ولم يحتج الصحابة في أيامه وأيام عمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان ، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان . ولقد وفق لأمر عظيم : رفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة » [1] .

* * *

بالمصحف الإمام ، لم يعد هناك أي خلاف إلا في طريقة القراءة للمصحف الواحد ، من حيث المسلك الصوتي وكيفية الأداء لما يحتمله رسم الكلمة . وهذه أيضاً ، لم تترك بغير ضابط ، بل عرفت الأمصار الإسلامية من ذلك الزمن المبكر أئمة من جيل التابعين يرجع إليهم الناس في إقراء القرآن ، على ما تلقوه من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الناس على رأس المائة الثانية للهجرة ، على قراءة «أبي عمرو بن العلاء» بالبصرة ، «وحمزة وعاصم» بالكوفة ، «وابن عامر» بالشام ، «وابن كثير» بمكة ، «ونافع» بالمدينة : كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم في الإقراء ، وارتحل الناس إليهم من البلدان .

وعلى رأس المائة الثالثة ، اقتصر «أبو بكر بن مجاهد» — شيخ القراء في بغداد ، ت سنة ٣٢٤ هـ — على القراءات السبع المشهورة ، المنقولة عن الأئمة السبعة :

— عبدالله بن كثير المكي ، مولي القرشيين ، التابعي : توفي بمكة حوالى سنة ١٢٠ هـ .

---

١ البرهان في علوم القرآن : ١/٢٣٩ .

– نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني ، توفي بالمدينة سنة١٦٩هـ.

– عبدالله بن عامر بن يزيد اليحصبي ، قاضي دمشق : من كبار التابعين ، توفي حوالى سنة ١١٨ هـ .

– أبو عمرو بن العلاء البصري ، توفي سنة ١٥٤ هـ .

– عاصم بن أبي النّجود ، أبو بكر الأسدي الكوفي ، توفي بالكوفة سنة سبع أو ثمان وعشرين ومائة .

– حمزة بن حبيب الزيات الكوفي ، مولى بنّي تيم ، توفي حوالى سنة ١٥٦ هـ .

– أبو علي بن حمزة الكسائي الكوفي ، مولي بني أسد [1] .

* * *

وتنقلت القراءات السبع المتفق عليها مع الزمن بالتواتر ، متصلة الإسناد طبقة عن طبقة ، ومهما تختلف في طرق الأداء فإنها تلتقي في : اتصال اسنادها ، وموافقتها لغة العرب ، ورسمَ المصحف العثماني الإمام .

وتتابعت أجيال من المحققين على خدمة القراءات ، وصُنفت كتب في نقط المصاحف ، وفي ضوابط الوقف وسائر قواعد التجويد ، على القراءات السبع التي يُقرأ بها القرآنُ اليومَ في البلاد الإسلامية ، على النحو الذي قرأه به الأئمة السبعة بالإسنادِ المتصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام

---

١ راجع تراجم القراء السبعة الأئمة ، في كتاب طبقات القراء لابن الأثير الجزري .

وبهذا التوثيق الذي لا يعرف له التاريخ مثيلا ، سُدَّت كلُّ الذرائع التي يحتمل أن يصل إلى القرآن منها أي تغيير أو تحريف : نصاً ورسماً وقراءة وتجويدا .

* * *

لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى التفسير ، من حيث كان مجالاً لاختلاف الفهم باختلاف الظروف والأحوال .

فعلى المدى الطويل ، خضع فهم المسلمين للقرآن لمؤثرات شتى منها ما قضت به طبيعة الحياة مع اتساع العالم الإسلامي وظروف شعوبه وأوضاع مجتمعاته .

ومؤثرات أخرى فرضتها عوامل سياسية ومذهبية لم تجد سبيلاً إلى السيطرة على المسلمين ، غير توجيه فهمهم لكتاب دينهم ، وإخضاعه للأهواء والعصبيات . فكان أن تسللت إلى التفسير القرآني عناصر دخيلة وشوائب مقحمة ، أخذت قوتها حيناً من إلحاح التسلط على الوجدان الديني للجماهير ، وحيناً من فتنة الاستهواء وخلابة البدع وسحر التمويه . وتترك للزمن ، يعطيها من سلطان الإلف وحماسة الوجدان العام ، حرمةً تتحدى كلَّ محاولة لتحرير الفهم القرآني من تلك الشوائب الدخيلة والبدع المقحمة والمدسوسات الخبيثة .

وما كان بالأمس بدعة منكرة ، يمكن أن يصير مع الزمن أشبه بالعقيدة .

وما يتريبنا اليوم من شطط التأويل ومحدثات البدع ، يمكن أن يتسلط

على الوجدان الشعبي بالسحر والتخييل ، فلا يلبث أن يرسخ ويتأصل ، ويغدو التصدي لتصحيحه مجازفة خطرة ...

* * *

وجذور المأساة غائرة بعيدة ، لا يخطىء التاريخ أن يلمح بذرتها الخبيثة فيما أقحم اليهود على التفسير القرآني من عناصر إسرائيلية :

مع التحول التاريخي لحركة الدعوة الإسلامية من أم القرى إلى المدينة ، واجه الإسلام عصاباتِ يهود الناشبة في مستعمراتها بشمال الحجاز .

ومن عام الهجرة بدأ الجدل في القرآن ، يتولاه أحبار يهود الذين تمت تعبئتهم لإعنات نبي الإسلام والدخول معه في جدل عقيم دون أن يواجهوه بحرب معلنة ، وقد أمنّهم على دينهم وعباداتهم وأموالهم وأنفسهم .

ثم كان أن تعوذ نفر منهم بالإسلام ، ودخلوا فيه ليكيدوا له [1] وأخذ الذين أسلموا منهم ، مكانهم في المجتمع الإسلامي ، لا يستطيع أحد أن ينفيهم عنه وقد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

والذين أدركوا منهم نبي الإسلام وبايعوه ، عُدُّوا من الصحابة الذين ترجع إليهم الأمة في أمور دينها ، فهم تراجمة القرآن للأجيال التي لم تدرك عصر المبعث ، وهم رُواة السنة : المصدر الثاني للشريعة الإسلامية.

* * *

---

١ ابن هشام : السيرة النبوية ، ١٧٤/٢ ط الحلبي .

ومن الجيل الأول للذين أسلموا من يهود ، بدأت تدخل الفهمَ الإسلامي عناصرُ من تأويلاتهم وشروحهم ، عُرِفت في المصطلح باسم « الإسرائيليات » .

وكانت الثغرة التي تسللت منها هذه العناصر ، أن القرآن يُجمل غالباً : قصصَ القرون الخالية ، تركيزاً على موضع العبرة منها وجوهر الحادث .

وفيه كذلك آياتٌ عن غيبيات ، ما كان المسلمون الأولون ليخوضوا فيها ، ولا علم لهم بشيء منها إلا ما جاء في القرآن عنها .

وهؤلاء اليهود أهل كتاب ...

وقد تضخم تراثهم من المقولات الدينية .

وإذ كان الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، لم يسترب عامة المسلمين فيمن أسلموا من يهود ، وألقوا إليهم أسماعهم وهم يتفننون في سرد حكايات جذابة وتفصيلات مثيرة ، تفسيراً لما اكتفى القرآن بالإشارة إليه . وغلب الوهم ، بأنها من المرويات لأهل الكتاب ، دون تنبه إلى ما دُسّ عليها من أسطوريات شُحنت بها العقلية الإسرائيلية في تيهها القديم وتشردها الطويل .

ولم يحل دون رواج الإسرائيليات ، أن القرآن شهد على يهود بتقولهم على الله وتحريفهم كلماته تعالى عن مواضعها .

ومن أوائل العهد المدني ، حيث خالط اليهودُ المهاجرين والأنصار ، تتابعت آيات القرآن تحذر المؤمنين من شر هؤلاء المزيفين الأشرار :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » (١)

(البقرة : ٧٨)

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدَ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(آل عمران : ٧٨)

كما لم يَحلُ دون رواج هذه الإسرائيليات ، ما روُي عن المصطفى صلى الله عليه وسلم من حديثٍ في أقوال أهل الكتاب وموقف المسلمين منها : يسمعونها ولا يعملون بها . كما حذر عليه الصلاة والسلام أمته من قوم « يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل ، يتأولونه على غير وجهه»

وعُذر العامة أن الإسلام فرض عليهم الإيمان بالرسالات الدينية قبله ، وأكد القرآن أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل . وحديث

---

(١) أنظر معها آيات : النساء ٤٦ ، والمائدة ١٣ ، ٤١

الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه نهيٌ عن سماع أقوال أهل الكتاب ، وإنما النهي عن العمل بها .

وهيهات أن يميز عامة المسلمين ، فيما يسمعون من إسرائيليات ، بين ما هو أصل التوراة وما هو من تحريف يهود وأسطوريات ميراثهم من التيه والتشرد والحقد والشر .

ودخلت هذه الإسرائيليات في كتب التفسير ، مرويةً عن صحابة يتحرج المسلم من اتهامهم .

وكان لها من موضعها مع الآيات القرآنية ، في كتب التفسير ، حرمة ومهابة . وبمضي الزمن ، نشبت في فهم المسلمين للقرآن ، فما استطاعوا أن يتحرروا منها حتى اليوم .

* * *

هنا وقفة لا بد منها عند هذه الإسرائيليات :

فلقد يبدو لكثير منا أنه يكفي عرضُها على ما نجد من نسخ التوراة ، لنميز ما نأخذ منها وما ندع .

يَعنون : أن نقبل تفسير القرآن بالإسرائيليات التي نجدها في التوراة ، ونتخلص مما عداها من مدسوسات .

وحجتهم في هذا ، أن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل ، بصريح آياته المحكمات .

وأقول : إنه مع الفرض جدلاً بأن التوراة وصلت إلينا دون تحريف ، فقد بقي أن الإسلام في تصديقه للأديان قبله ، استصفى منها ما رأى

للبشرية المتدينة أن تصير إليه ، فيما هو من جوهر العقيدة ومناط الاعتبار.

والذي استبقاه منها موجود في القرآن .

والذي نسخه مما جاء فيه ، لا يحل أن ندخله على تفسير القرآن ، وإنما يُعنى به من يشتغلون بتاريخ الأديان والدرس المقارن بينها .

ولمن شاء أن يقرأ أقوال أهل الكتاب في شروحهم للتوراة ، ولكن ليس لأحد أن يفسر بها القرآن ، لأنه بهذا يقحم عليه ما لم يتعلق بذكره .

فإذا شق علينا أن نفهم أن الدين في ختام رسالاته قد خاطب البشرية بأسلوب غير الذي كان يلائمها في عصور خلتْ ، فإن لنا أن نقرر أن المنهج العلمي ينكر أن نفسر النص بما لا يحتمله لفظه وسياقه .

ومهما يختلف إدراكنا للحكمة العليا في العدول عن شيء ورد في كتاب نزل قبل القرآن بقرون ذات عدد ، فما ينبغي أن نقحم على كتاب الإسلام ما لم يأت فيه ، وكأننا بذلك نفرط في أمانة نصه المحكَم ، ونهدر الجهود التاريخية التي بذلت لصيانته بالتوثيق من أي تحريف أو تغيير .

وذلك ما غاب عن أجيال منا ، ظلت تتلقى الإسرائيليات المقحمة على التفسير ، وتفهم بها كتاب الإسلام .

* * *

هذه فكرة موجزة عن الإسرائيليات التي دسها يهود على الفهم الإسلامي للقرآن ، من عصر مبكر .

بعدها جاءت العصبيات السياسية والمذهبية ، فتدخلت في فهم المسلمين للقرآن بما يساير أهواءها .

كما جاءت الفرق الكلامية فأضافت إلى كتب التفسير تأويلها لما تحتج به من آيات القرآن ، في الخصومة الجدلية العنيفة التي احتدمت بين المتكلمين ...

إلى جانب ما داخل الفهمَ الإسلامي للقرآن ، من تأويلاتٍ لمفسرين من الأعاجم المسلمين ، صحَّ لهم علمُ العربية ، لغة القرآن ، وفاتهم ذوقها النقي وبيانها الأصيل .

والمتصلون بالدراسات القرآنية ، يعرفون ما حُشيت به كتب التفسير من سرائيليات حاول بها اليهود ، ممن دخلوا في الإسلام طوعاً أو كرهاً ، تطعيمَ الفهم الإسلامي للقرآن بعناصر إسرائيلية . ويعرفون كذلك ما أقحم عليه من تأويلات جاءت بها الظروفُ الدينية والسياسية والتاريخية التي تعرض لها المجتمع الإسلامي ، وتفاوت بها المفسرون تبعاً لتباينِ أذواقهم واختلاف عقلياتهم وأوضاع مجتمعاتهم وأنماط شخصياتهم ، في ذلك العالم الإسلامي الواسع الذي امتدّ من أقصى المشرق ، إلى أقصى المغرب ، وتقاسمته ألوان من عصبيات مذهبية وسياسية وإقليمية ، فاقتضى هذا بطبيعة الحال ، أن يتوارد على القرآن مُفسرون من أنماطٍ شتى وعصبيات مختلفة ...

وألّف في التفسير — كما قال الجلال السيوطي :« خلائق اختصروا الأسانيدَ — التي ترفع المروياتِ فيه إلى الأئمة — ونقلوا الأقوال تترى . فدخل من هنا الدخيلُ والتبس الصحيح بالعليل . ثم صار كل من يصح له قولٌ يورده ، ومن يخطر بباله شيء يعتمده . ثم يَنْقلُ ذلك عنه مَن

يجيء بعده ، ظاناً أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومَن يُرجَع إليهم في التفسير »[1] .

* * *

١ الإتقان في علوم القرآن : ٢/٢٢٦ .

هل يفهم من هذا ، أن تفسير القرآن كان مباحاً لكل هؤلاء ، من غير قيد أو شرط ؟

كلا ، بل كانت هناك شروط ملتزمة ، لا يتهاون العلماء في ضرورتها للمفسر . ولا يجرؤ أحد على التصدي للتفسير دون استيفائها .

الدراية بعلوم العربية ، كانت الشرط الأول !

وهو شرط لم تكن هناك حاجة إلى تقريره في العصر الأول ، والقرآن في بيئة العربية الفصحى .

ثم مع الفتوح الكبرى ، خرج المسلمون من بلاد العرب ، واستقروا في الأقطار التي فتحها الإسلام ، وخالطوا شعوبها ، فبعدت الفصحى عن بيئتها الأولى وتعرضت لما قضت به طبيعة الظروف وسنن الاجتماع اللغوي ، من شوائب العجمة واختلاط الألسن . وظهرت آثار من ذلك كله على جيل المولّدين من العرب الذين ولدوا في الأقطار المفتوحة .

وتعربت الشعوب الداخلة في الإسلام ، فاتسع المجال اللغوي للعربية ، في القرن الأول للهجرة ، من المشرق الآسيوي في خراسان وما وراء النهر ، إلى المغرب الإفريقي حتى ساحل المحيط الأطلسي .

ومن حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد حركة التحول اللغوي لهذه

الشعوب ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التي عصيت من قبل على الغزو اللغوي للفرس واليونان والرومان ، وقف حملةُ القرآن يشفقون على لغته من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم لالتقاط ما لم يكن منه بد ، من شوائب العجمة وعثرات اللحن .

واتجهت الجهود ، لحماية لغة الإسلام ديناً ودولة ، إلى جمع تراث الفصحى الأصيل وتدوينه ، وعكف عليه العلماء ، من القرن الثاني للهجرة ، يستخلصون منه للفصحى معجم ألفاظها ، ويستنبطون بالاستقراء والقياس ، قواعد نحوها وتصرفها واشتقاقها ، وخصائص أساليبها في التعبير والبيان [1] .

وكانت علوم العربية صعبة حتى على أهلها .

وعلى مرّ القرون ، تضخم رصيدُها من القواعد والمذاهب والمتون والشروح ، وصار الفقهُ بها أمراً عسيراً لا يُدرك إلا بالدراسة المتخصصة الطويلة ، والجهد المضني .

وكانت العاميات إلى جانبها ، تقوم بحاجات الحياة اليومية ، فتغني العامة عن طلبِ علوم الفصحى ، وهي العلوم التي وضعت أساساً لخدمة القرآن ، وفهمِه بها .

من هنا ، كانت الدراية بهذه العلوم لغة وبياناً ، من أول ما اشترطه علماؤنا في المفسر .

---

١ تفصيل هذا ، في كتابي (لغتنا والحياة) : العربية في أقطارها الجديدة ، ص ٥٣ : ٨٣ ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٩ .

ما من كتاب في علوم القرآن ، لم ينص على أن يكون المفسر عالماً بالعربية .

بل إنهم أدخلوا علومَ العربية أصالة ، في علوم القرآن ،على نحو ما تجده في كتابَي « البرهان في علوم القرآن ، والإتقان في علوم القرآن ».

وكل الذين عرضوا لقضية الإعجاز ، أجمعوا على أن فقه العربية لغة وبياناً . هو أداة النظر في الإعجاز .

ويمكن القول بأن جمهرة الكتب المؤلفة في مفردات القرآن ، وأقسامه، وإعرابه ، ومجازه ، وبديعه ، ودلائل إعجازه . تأخذ مكانَها في المكتبة اللغوية والبلاغية .

وتأتي مع علوم العربية ، سائرُ علوم القرآن مما لا يُتصور أن يَتصدى مفسرٌ لتأويله ، وهو يجهل مثلاً أسباب نزوله ، والمحكم والمتشابه ، وقراءاته ، ورسم المصحف ...

ثم هو في حاجة كذلك إلى دراية بعلوم الحديث من حيث كانت السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجميل منه ، مع دراية كذلك بعلم التوحيد وأصول الدين ، وأحكام الفقه المستنبطة من الكتاب والسنة .

ولا يستغني المفسر بعد هذا كله عن معرفة بالفرق الإسلامية واتصال بكتبِ الكلام ، وعلمٍ بتاريخ الإسلام .

* * *

والمفسرون من السلف ، كانوا من علماء العربية والإسلام ، تجد

أسماءهم في طبقات المفسرين ، وتجدها كذلك في طبقات اللغويين والنحاة ، أو المحدثين والفقهاء ، أو المؤرخين والمتكلمين .

وما تصدى للتفسير من أصحاب المذاهب والفرق الإسلامية ، إلا أرسخهم قدماً في علوم العربية والإسلام ، وأبرعهم في تخريج الأقوال ومناظرة خصوم المذهب . حتى ليشق على غير الخاصة أن يهتدوا إلى مسارب التأويل المشتط في تفاسيرهم ، فيقول شيخ الإسلام (الإمام البلقيني) إنه استخرج الاعتزال من (تفسير الكشاف للزمخشري)، بالمناقيش !

وليسوا مع ذلك سواء ، منهم من اعتسف التأويل عن حسن قصد ، ومنهم من تورط في التعصب لمذهبه .

* * *

كيف احتمل الإسلام كلّ هاتيك الشوائب التي شابت فهمَ أمته لكتاب دينها ، دون أن يخبو فيها نوره ؟

الواقع أن الوجدان الديني للأمة ، ظل يقاوم هذه المدسوسات والمقحمات ، بصفاء الإيمان وإلهام البصيرة .

تهديها فطرتها المتصلة بالقرآن الكريم اتصالاً مباشراً ، تتلوه أو يتلى عليها مصبحة ممسية ، في الحضر والبادية ، فتجد فيه عاصماً من الزيغ والضلال ..

ومهما تكن العصور المتطاولة قد باعدت بين القرآن وتفسيره ، لم يخلُ أيُّ عصر من صوتٍ يحذر الأمة من مدسوسات الإسرائيليات ومقحمات البدع والأهواء .

وكما شهد التاريخ محاولات الكيد للإسلام بعزل أمته عن نوره هداه ، شهد الأئمةَ الأبرارَ ساهرين على حراسة لواء الأمة .

وتتابعوا على حمل اللواء جيلاً بعد جيل ، عن يقين بأن هذا القرآن هو مناط وجود الأمة ودليل سيرها وسُراها .

* * *

وقد تلقى عصرنا هذا التراث ، بكلّ ما فيه من شوائب مقحمة وبذور خبيثة ، وكل ما فيه من رصيد قادة الفكر الإسلامي وحملة لواء القرآن .

وكان عليه أن يميز الخبيثَ من الطيب ، وأن يحرر الفهم الإسلامي مما داخلَه من مدسوسات ، ويحرره كذلك من سموم طائفة من متعصبي

المستشرقين أضلهم الحقد فخانوا المنهج العلمي الذي ادعوا فينا أنهم حمَلته، وجعلوا من خدمة تراث الإسلام ذريعة لاستهوائنا ، فتسلطوا على فئة منا بفتنة العلمية ، فكانوا هم الذين نقلوا سمومهم إلى مناخنا الفكري [1].

---

١ اقرأ في هذا الموضوع : (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث) للمفكر الجزائري مالك بن نبي – مكتبة عمار بالقاهرة .
ومعه كتابي (تراثنا بين ماض وحاضر) ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٨ ، ودار المعارف ١٩٦٩ .

مع الغزو الاستعماري في مطلع العصر الحديث . غشينا من صدمة التفوق المادي للحضارة الغربية ما يشبه الدوار .

وفي أخذة الصدمة ، أرهقتْنا عقدةُ الشعور بالنقص التي سهر الاستعمار على ترسيخها فينا ، فتصور بعضُنا ألا شفاءَ منها إلابالانسلاخ من جذور أصالتنا والانتماء إلى الغرب المتفوق الظافر .

وفي الطرف المقابل ، كان فريق منا يتشبث بكل مخلفات الماضي ، في رجعية ذاهلة عن سير الزمن وتحديات العصر . ووجد هؤلاء وهؤلاء ، ما يرهف إحساسهم بالعقدة ، في مخدرات الغزو الفكري :

المستغربون وجدوا ملاذهم فيما تسلط عليهم من إلحاح فكري وثقافي ، أقنعهم بأن شرقيتنا هي سر تخلفنا ، وأن ميراثنا الروحي هو المسئول عن جمودنا ومحنتنا .

والآخرون وجدوا مخدر عقدتهم في اجترار أمجاد ماضينا التي تغنى بها بعض المستشرقين ، فاطمأنوا إلى أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان !

وحين كانت القضية الكبرى المطروحة على الأمة في صدمتها بالتفوق المادي لحضارة الغرب الحديث ، هي أن تأخذ بأسباب العلم لتستأنف خطاها من حيث وصلت إليه في العصر القيادي للحضارة الإسلامية ، ظهرت محاولة ساذجة لتفسير القرآن تفسيراً علمانياً نطمئن به إلى أننا سبقنا عصرنا إلى كلِّ ما يتطاول به الغرب علينا من علوم حديثة !

وقدم «الشيخ طنطاوي جوهري» تفسيره (الجواهر) فوجدت فيه الجماهير

ما يريحها من مهانة الإحساس الباهظ بالتخلف [1]

ثم لم تكد تفيق من أثر هذا المخدر بجهود رواد اليقظة لإصلاح الحياة بالدين ، حتى بغتتها إثر معارك التحرير من مهانة الاستعمار ، صدمةُ الاجتياح الصهيوني لأقدس حرماتنا ، فكشفت عن ثغرات الخلل والتصدع في منطقِ تفكيرنا ومنهج حياتنا .

وصارت القضية المطروحة علينـــا ، هي قضية وجود ومصير ... والذئاب الصهيونية تسرح في حمانا بوطأة قرصان وخيلاء مستعمر .

والوجه القبيح يسفر عن قناعه ، ويتمادى في قحته وطغيانه ، متكئاً على تفوقه التكنولوجي وأجهزته الجهنمية .

وخطوات التجول على سطح القمر توقظ النيام .

و «مارينر» محلقة في مدارها حول المرّيخ ،

وإذ تحاول الأمة أن تستوعب أبعاد الموقف ، وصولاً إلى طريق النجاة ، ظهر أن الموقع الفكري ، من أخطر مواقع الميدان .

وكان على قادة الفكر الإسلامي أن يأخذوا أماكنهم في هذا الموقع الخطر ، ليضيئوا مسراها بنور الكتاب الذي حققت به وجودها وحمت بقاءها ، ويقدموا لها من قيَمه الخالدة ما تواجه به تحديات العصر العلمي ، دون أن يمزقها صراع مفتعل بين العقيدة والعلم ، ودون أن يشغلها جدل عقيم في قيمةِ الكتاب الذي جعل الإيمان بالعلم عقيدة

---

١ لمزيد بيان ، اقرأ : (إنتاج المستشرقين) لمالك بن نبي .

ودينا ، وكان لواءَ الحضارة الإسلامية في دورها القيادي بالعصر الوسيط.

وكان الظن ألا مجال لمخدرٍ في هدير العصر ودوامة المعركة ، وإذا بمفسرين عصريين لا درايـــة لهم بعلوم العربيـــة والقرآن ، ولا بعلوم العصر ، يتسللون بالمخدر إلى الميدان ، فيتسلطون على الجماهير بتفاسير عصرية تجذب أسماعهم بكلام خلاب عن سبق القرآن إلى نظريات الرياضيات وعلوم البيولوجيـــا والجيولوجيا وارتيـــاد الفضاء وغزو القمر ، فما علينا مثلاً أن ترتاد روسيا مجاهل الفضاء ، وأن تتجول «لوناخود» على سطح القمر ، وأن تنطلق « سيوز » في رحلتها الجريئة واقتحامها الظافر ، وعندنا مفسر عصري يقدم لنا من القرآن ، كلَّ علوم الدنيا ، ويضيف إليها علم الغيب والحياة الآخرة !

* * *

إن تحديات عصرنا ، قومية وحضارية ، هي التي تضعنا أمام ما يروج فينا من تأويلات عصرية للقرآن ، لنحدد موقف الدين والعلم من هذه التأويلات التي تقتحم الغيب وتفتي الناس في العلم والدين بغير علم ، وتلهيهم بأنباء الجن والشياطين والملائكة ، وتشدهم من صميم معركة البقاء والمصير ، إلى هذه المعركة الجانبية بجدلها المثار حول فهم القرآن وتفسيره .

وبقدر ما تقسو هذه التحديات ، تشتدّ حاجتنا إلى تأمين هذا الموقع الفكري الخطر ، من حيث لا نستطيع أن نسير مع حركة الزمن ودفع التقدم وحتمية التطور ، إذا ظل تأويل كتابنا الأكبر مباحاً لكل ذي هوى أو رأي ، يلوي نصوصه لياً ، لكي تلبي حاجة في نفسه .

ومن حيث لا يُتصور ، وموجةُ الإلحاد في مدّها الجامح ، والصراع

المذهبي في ذروة احتدامه : أن يُترك تفسيرُ كتاب الإسلام بغير ضوابط مقررة ملتزمة ، يعرف بها إنسانُ العصر كلمة الدين في ختام رسالاته ، ويطمئن قلبه وعقله وضميره إلى حقيقة هذا الدين وقيمة عطائه ، فينجو من الحيرة التي تنهكه وتضنيه ؛ إذ يرى تأويل القرآن في مهب أعاصير الأهواء وخضم الفتنة : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحون . ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » صدق الله العظيم .

القرآن الكريم
بين الفهم والتفسير

« لا أوتى برجلٍ غير عالم بلغة العرب ،
يُفسِّر كتابَ اللهِ ، إلا جعلتُهُ نكالاً »

الإمام مالك بن أنس

---

* هذا المقال وما يليه ، نشرت خلاصة منه بأهرام الجمعة في شهري مارس وابريل من سنة ١٩٧٠ ، ردآ لما نشر في مجلة صباح الخير من مقالات بعنوان محاولة « تفسير عصري للقرآن » .

وقد تصور الدكتور الصحفي المفسر ، أنه يعفي نفسه من مؤاخذته على التصدي للتفسير بغير علم ، بمجرد تغيير العنوان ، فجمع مقالات تفسيره في كتاب مطبوع بعنوان : «القرآن ، محاولة لفهم عصري للقرآن » .

وغاب عنه أن العبرة بالموضوع الذي تناوله تناول مفسر عالم ، يؤول النصوص ويفتي في الدين ، وليس تناول صحافي من كتاب القصص ، يعرض تصوراته الدينية ويتخيل ما وراء الغيب .

يبدو أننا في حاجة إلى أننا نضع الحدود الفاصلة بين ما يباح وما لا يباح من تأويل كلمات الله في كتاب الإسلام ...

بين حقّ كل إنسان في أن يفهم القرآن لنفسه ، وبين حرمة تفسيره للناس لا تبيحه لغير ذوي الدراية به ...

بعد أن شُغلت الأمةُ بهذا الخلاف الطارىء ، وقيل فيما قيل إن التفسير مباح لكل من يشاء .

والقرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، يسمعه كل مسلم فيتمثل معانيه ومراميه ، على قدر استطاعته ، وفي حدود فهمه .

بل هو وراء ذلك كتاب الناس جميعاً ، المتدينين والملحدين ، من حيث يجدون فيه الكلمة الأخيرة للرسالات الدينية . ومن حيث لا يعرف التاريخ كتاباً مثله ، غيّر من حياة البشرية ووجّه تاريخها . فمن حق كلّ إنسان أن يلتمس منه ما يلبي حاجته إلى المعرفة ، ويقدم له عطاء الدين في ختام رسالاته .

وإذا كان المستشرقون ، من المسيحيين واليهود والملاحدة ، قد عكفوا على فهم هذا القرآن وقدموا منه لقومهم ما فهموه من كتاب العقيدة الإسلامية ، ومناط الوحدة الجامعة لأمتها في دينها وعقليتها المشتركة ومزاجها العـــــام .

وإذا كانوا كذلك ما يزالون حتّى اليوم يعكفون على دراسة كل تفسير جديد ليتبينوا متّجه الفهم الإسلامي للقرآن ،

فالمسلمون أوْلى بأن يتقرر حقهم ، بل واجبهم ، في أن يفهموه على قدر استطاعتهم ، وأن يعرضوا عليه ما يشغلهم من قضايا الزمان .

وليس من الضروري أن يكونوا على دراية بعلوم الإسلام وأسرار لغة القرآن ، بل إن عامة المسلمين لهم مثل هذا الحق ، حين يصغون إلى ما يتلى عليهم من آيات القرآن الكريم ، فيفهمها كل منهم في حدود إدراكه ومعارفه « وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً »

ومحاولة فهم القرآن ، لا يمكن أن تتعرض لإنكارٍ أو رفضٍ ، إذا كانت من قبيل التماس عطائه المباح لخلق الله .

على أن تبقى في نطاقها الخاص المحدود ، فلا تُتخذ ذريعة إلى انتحال تفسيره للناس ، والجرأة عليه ، بغير ضابط ولا قيد .

ومنذ بدأ تاريخ الإسلام ، كان المسلمون يفهمون من كتاب دينهم ، ما يلبي حاجات وجودهم ويهدي مسراهم حيثما اعتكر الليل وادلهمّ الظلام .

وبقدر ما فهموا منه ووعوا ، قاوموا عوادي الضلال وذرائع الضياع . ومهما يكن مستوى فهمهم ، فما أعوزهم أن يدركوا منه ما يحفظ عليهم كرامة إنسانيتهم ، وما يرفضون به البغي والطغيان ، والعبودية لغير خالقهم وحده .

وتتابع الأجيال ، كلُّ جيل خُلق لزمان غيرِ زمان سلفه وخلفه ، وعطاءُ القرآن غير محظور ولا مقطوع ، وتظل قيمه ومثله العليا مطمح الإنسانية على تفاوت الأجيال ومرّ الزمان ، تعرج إليها على مراقي تطورهـا وطموحها .

* * *

لكن الأمر يختلف تماماً إذا اختلط فهمُ القرآن بتفسيره ، فيتصور بعضهم أن إباحة فهمـه لكل الناس ، تعني إباحة تفسيره دون قيد أو شرط..

لأن التفسير يقدم للناس فهم المفسِّر للنص القرآني . وغير متصور أن يتصدى لتفسير أي نص ، مَن لا دراية له بأسرار لغته وفقه سياقه ودلالاته .

وهذا من المسلّمات البديهية في النصوص بوجه عام : يفهمها من شاء كيفما شاء ، لكن تفسيرها للناس والفتيا بها ، مقصور على ذوي الفقه بها والاختصاص .

وهؤلاء أنفسهم ، يتفاوتون بقدر درايتهم بأسرار النص .

نحن المثقفين مثلاً ، نستطيع أن نقرأ أي نص قانوني ، وأن نفهمه بالقدر الذي تتيحه لنا عقليتنا ومستوى ثقافتنا ، ولكن دوائر القضاء والتشريع ، لا تعترف بغير المتخصصين في القانون ، ولا تجيز لأي مثقف منا ، غير قانوني ، أن يتصدّى لإفتاء الناس في نصٍّ منه ، أو الدفاع به أو الحكم بمقتضاه .

ولا نعلم أن العمل القضائي في أي مجال ، نيابة ومحاماة وقضاء ،

أو تشريعاً وصياغة ورأياً وفتيا ، يُباح لغير المجازين في القانون .

ويتفاوت القانونيون بمقدار فقههم لأسرار نصوص القوانين ، إلى المدى الذي تقضي فيه محكمة عليا بالبراءة في قضيةٍ سبق الحكم فيها بالإعدام ، مستندة في نقض هذا الحكم على ملحظ دقيق في نص القانون ، فات القضاةَ الذين نظروا في القضية من قبل ، وأصدروا حكمهم فيها ...

ومن القضايا ما يحتاج إلى خبرةٍ طبية أو اقتصادية أو فنية لا عِلْمَ للقضاة بها ، فينتدب الخبراء لفحصها وتقديم تقاريرهم عنها ، ويظل الحكمُ في القضية لرجال القضاء وحدَهم ، دون الخبراء من الأطباء أو المحاسبين أو المهندسين أو الزراعيين أو .. أو ....

* * *

والأمر أدق من هذا في القرآن الكريم ..

من حيث لا تصح قراءته ابتداءً ، لمن يتصدى لتلاوته أو تفسيره ، من المصحف مباشرة ، دون التلقي من شيوخ القراءة .

لأن القراءة في المصحف ، غير متروكة للاجتهاد كما يتصور عامة المثقفين ، وإنما هي علم دقيق له قواعده في الضبط والأداء . والمعنى يختل تماماً ، لا بخطأ في الضبط اللغوي أو الإعرابي فحسب ، بل بالوقف حيث ينبغي الوصل ، وبالوصل حيث ينبغي الوقف ، وقد يضيع سِرُّ التعبير بالتفخيم أو الإشباع أو المد أو القصر في غير مواضعه .

من هنا كان الحظر التقليدي على طلاب حفظ القرآن : « أن يأخذوه من مصحفي» بمعنى النهي عن أخذ القرآن ممن قرأه في المصحف ، ولم

يتلقه تلقيناً بالقراءة المشافهة على شيوخ القراءة ، فيغيب عنه وجه الصواب في التلاوة والأداء .

ولا أحدَ يحجُر على أي إنسان أن يقرأ من المصحف ، ولكن الحجْرَ أن يتصدى بهذه القراءة المصحفية لتلاوته في الناس ، فضلاً عن أن يتصدى لتفسيره وتأويل كلماته !

وقد نعلم أن نظم الدولة ، في أي بلد إسلامي ، لا تجيز لقارىء مصحفي أن يتلو القرآن في الناس ، في مسجد أو إذاعة أو مكتب لتحفيظ القرآن أو أي محفل عام ، فكيف بالتفسير لمن لم يصح قراءته ، فيسوق الآيات — في مقالات صباح الخير ثمّ في الكتاب المطبوع — سرداً متتابعاً بغير فواصل ضابطة للسياق محددة للمعنى ؟

وكيف يجوز في عاصمة إسلامية أن تنشر هذه القراءة المصحفية ، وفيها خللُ الوقف حيث ينبغي الوصل ، وفيها إفساد للدلالة بضياع ضوابط الابتداء والانتهاء للآيات ، تختلط به العبارات فلا يدري القارىء ماذا فهم المفسر الصحفي المصحفي من مقاطع الآيات وفواصلها ؟

* * *

وأخرى من وجوه الدقة في النص القرآن ، أن الكلمة لا تعطي دلالتها القرآنية بمجرد الرجوع إلى دلالتها المعجمية التي تتسع لمعان عدة لا يقبلها النص .

ومعروف لدارسي اللغة ، أن الألفاظ يختلف استعمالها من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى ، ولا وجهَ لأن نُحمّل كلمة في أي نص ، دلالة لا يعرفها عصره ولا مجتمعه .

وإلا جاز لنا مثلا أن نفسر لفظ «قرية» في آية «وَمَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ» بدلالة عصرية على أبسط وحدة في التقسيم الإداري للمحافظات والمدن والقرى ، وهي دلالة يرفضها اللفظ القرآني رفضاً باتاً ؛ وأن نفسر لفظ « ساعة » في قوله تعالى : « يُقْسِمُ المجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » بدلالتها الاصطلاحية على ستين دقيقة . أو كما قال المفسر الصحفي : (مجرد ساعة زمان ، وكأنهم كانوا في غفوة أو نومة عصارى بعد أكلة ثقيلة).

إن نفهم كل الأعداد في القرآن بدلالتها الرقمية المحددة في علم الحساب ، فتكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر على التحديد ، لا تزيد عليها شهراً أو بعض شهر ؛ ويكون للمصطفى أن يستغفر إحدى وسبعين مرة ، لمن نزلت فيهم آية التوبة ، خطاباً له عليه الصلاة والسلام :

« اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ».

والمفسر العصري لا يرى بأساً في أن يفسر لنا لفظ «يعشو» مثلا بلفظ (ينصرف) في آية الزخرف :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ».

حين ندري من لغة القرآن ، فرقاً بعيداً أقصى البعد ، بين الأعشى والمنصرف ، فتفسير أحدهما بالآخر ، ليس إلا خبط عشواء !

ويفسر قوله تعالى لنبيه موسى عليه السلام :

«فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوىً»

بأن (المقصود بالنعلين هما النفس والجسد فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين : نفسه وجسده ، بالموت أو بالزهد ، والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح في عالم المادة !) ص ١٠٤ .

وذلك ما لا تعرفه لغة القرآن ، ولا لغة العلم ، من أي سبيل !

* * *

وثالثة من وجوه الدقة في النص القرآني ، هي استحالة تفسير صيغةمن صيغه أو عبارة من عباراته ، مبتورة من سياقها الخاص في الآية والسورة ، ومن سياقها العام في المصحف كله .

على نحو ما فعل المفسر العصري ، في استشهاده ببعض كلمات مبتورة من سياقها ، ليأخذ منها دليلاً فاسداً وشاهداً يحيله السياق .

كمثل عبارته في ص ٤٩ ، وقد تكررت في ص ١٤٥ :

(والله يقول عن كلامه،عن القرآن ، : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ »)

بتر الجملة من سياقها ، فحملها على كلام الله ، وإنما هي في المتشابه منه فحسب ، بنص الآية :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أم الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدَ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ »

ومثل استشهاده بقوله تعالى : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » لدكّ الجبال يوم القيامة ، مبتورة من سياقها في قوم موسى :

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

ولا علاقة لها إطلاقاً بدكّ الجبال يوم القيامة .

وكثيراً ما يتورّط المفسر العصري ، فيحمل آيتين أو أكثر على معنى واحد ، ويستشهد بها لأمر بعينه ، وتكون إحدى الآيات في سياق غير سياق الآية أو الآيات الأخرى .

كمثل سرده ثلاث آيات متتابعة — ص ٨٠ — في شواهد لما يبدو نعمة ، وقد يكون في الحقيقة نقمة .

وإحدى الآيات — التوبة ٥٥ — في منافقي المدينة الذين قعدوا عن الجهاد مع المصطفى في غزوة تبوك .

والثانية — المؤمنون ٥٥ — في سياق الحديث عن قوم موسى .

والثالثة ـــ آل عمران ١٧٨ ـ سياقها في الكفار من قريش !

ويستشهد ـ في ص ٩٠ ـ لتحرير النفس من الشهوات بآيتي : التوبة ١١١ ، والبقرة ٥٤ :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » .

فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ » ..

باتراً سياق الأولى في وعد الله للمجاهدين ، والأخرى في زجر عبَدة العجل من بني إسرائيل .

ولا يمكن أن يجتمع المؤمنون المجاهدون ، والكافرون الظالمون ، في سياق واحد ، إلا عند من لا يفقهون .

وهذا الجهل بالسياق ، يتفاقم خطره إذا ما انتحل المفسر الصحفي لنفسه صفة المفتي ، فأفتى الناس في (الحلال والحرام) بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

كمثل فتواه بتعطيل حدود الله في السرقة إذا أعلن السارق توبته أو إذا سرق محتاجاً ، وفتواه المشهورة لمن ينظر إلى الجميلات العاريات في شوارع القاهرة ، (ويهتف بالقلب إعجاباً : الله ! ويقصد الخالق الذي صور ، فلا تكون هذه النظرة حلالاً فقط ، وإنما تُكتب لنا حسنة !) ص ٨٧ : :

ومثل هذه الجرأة على الفتيا ، بالحلال والحرام بتحريف كلمات الله

عن مواضعها ، ما نشره في (بوسطجي صباح الخير : العدد ٧٤٤) ٩/٤/١٩٧٠) رداً على قارىء استفتاه في إباحة تعدد الزوجات » :

(الواقع أن تعدد الزوجات للمسلم مشروط بشرط صعب ، بل مستحيل ، هو العدل ..... إنه الأمر الممكن الذي لا يقدر عليه أحد . إننا ما زلنا في منطقة الزوجة الواحدة ، والإباحة هي إباحة في الظاهر فقط) .

وجاز عند المفتي العصري ، اجتماع النقيضين ، في الأمر : الممكن ، الذي لا يقدر عليه أحد .

وتورط ، كعادته ، في بتر الكلمات من سياقها الذي يلفت إلى تعذر العدل بين النساء ، وينهى الرجال عن الميل كل الميل مع الهوى ، ترفقاً بالمجفوة من النساء :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً » — ١٢٩ ، ١٣٠

* * *

ورابعة من دقة النص القرآني ، تتصل بما يبيحه المفسر العصري لنفسه ، من وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ، فيقول مثلاً : المعماري العظيم ، والمهندس الأعظم للكون ، (والله هو سائق القطار الذي تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع السائقين) — ص ١٨٨ .

حين نتعلم ، نحن تلاميذ المدرسة القرآنية ، من مبادىء علم أصول الدين : « أنه لا يجوز أن يوصف الله سبحانه بغير ما وصف به نفسه » فإذا جاء في القرآن الكريم أنه تعالى : الغني والعليم ، لم يجز لنا أن نقول مثلاً : الثري المليونير ، والأستاذ العلامة العبقري ....

وإذا سمى الله تعالى نفسَه بالملك ، فليس لنا أن نسميه بالقيصر أو الامبراطور أو الزعيم والقائد والرئيس !

وإذا قال تعالى إنه « ذُو العَرْشِ العَظِيم » لم يجز لنا أن نقول : ذو التاج والصولجان .

ويقول سبحانه : « يَدُ اللهِ فَوْقَ أيدِيهِمْ » فلا يجوز لنا أن نقيس عليه فنقول مثلاً : ذراع الله مع أذرعهم أو فوقها ...

وهذا ما يغيب عن العصريين فيما يتصدونَ له من الكتابة في القرآن والإسلام بغير علم ، فتجري أقلامهم بألفاظ وصفات لله تعالى ، ينبو عنها الحِسُّ القرآني ، كسائق القطار ، والمهندس فضلاً عن عدم جوازها بتاتاً في علم الأصول .

وشبيه بهذا ، تورُّطُ المفسر العصري في حديثه عن (المعمار القرآني ، وسيمفونية سورة الفاتحة) — ص ٧ ، ٨

ومن قبله تورط الزميل الشاعر « نزار قباني » في مثل هذا حين بدا له أن يكتب إحدى قصار السور القرآنية على نسق الشعر .

وفاته أن القرآن قد أصرَّ على نفي وصفه بالشعر ، رداً على زعم

المشركين أن محمداً شاعر ، وأن القرآن شعر . والله تعالى يقول :

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

« فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ * إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَا تُؤمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ » .

* * *

وأخطر من هذا كله ، أن يُفسر الدكتور العصري للمسلمين كتابَ دينهم ، بشحنة من الإسرائيليات ، جاهد علماؤنا طويلاً لتحرير فهمنا الديني منها مما دَسّه اليهود علينا ، حين تعذر عليهم أن يحرفوا القرآن كما حرفوا التوراة .

وبعد أن تأصل منهجنا العلمي ، في رفض تفسير القرآن بنصوص من إسرائيليات لم يتعلق كتاب الإسلام بذكرها ، يقول التفسير العصري ؛ رجماً بالغيب :

(« إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال ، وألوان من الرمز . وفي العهد القديم يصف أشعيا يوم الرضوان قائلاً : يضع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمائن ووليمة خمر ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه » . وفي تراتيل القديس أفرايم : « ورأيت مساكن الصالحين . رأيتهم تقطر منهم العطور وتزينهم ضفائر الفاكهة والرياحين . وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان في صدر طهور ») — ٦٧ .

ويفسر آية الدخان :

« فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاس هذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ »

برؤيا يوحنا اللاهوتي :

(« ففتح بئر الهاوية فصعد دُخَان من البئر كدخان أتون عظيم . فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر . وهذا الدخان لا يقتل الناس وإنما يعذبهم خمسة أشهر ، وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » إنها ظاهرة طبيعية ، يقول عنها القرآن كما يقول يوحنا اللاهوتي) — ص ١٤٢ .

ويفسر الدكتور الصحفي آية الكهف في يأجوج ومأجوج ، تخميناً ، بحوار بين المارشال مونتجمري وماوتسي تونج ، عن المخاوف من غزو الصين للعالم ، بعد أن يصبح سكانها ألف مليون . ثم يستطرد من هذا التخمين فيقول :

(ومع هذا فإنا لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتي عن يأجوج ومأجوج ، فإنا نراه يقول نفس المعاني ويشير نفس الإشارات : متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض . يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب ، وعددهم مثل رمل البحر) — ص ١٤٥

ويفسر آيات القيامة في القرآن فيقول :

(ونجد في رؤيا يوحنا اللاهوتي صورة مشابهة للقيامة — في القرآن — يقول : ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس

صارت سوداء كمسح من شعر ، والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف . وكل جبل وجزيرة تزحزحا عن موضعهما) — ١٤٧ .

ويفسر قوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ » بما نصه :

(وفي ذلك يقول يوحنا اللاهوتي : ثم رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة . لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد ...) — ١٥٠ .

* * *

فهل يتصور الدكتور المفسر ، أن فهمه للقرآن يكون عصرياً ، حين يفسره برؤيا يوحنا اللاهوتي وترانيم أفرايم ؟

فليعلم إذن ، أن يهود القرن الهجري الأول قد سبقوه إلى هذه العصرية منذ بضعة عشر قرناً ، ودسوا على الفهم القرآني شحنة من هذه الإسرائيليات التي يراها الدكتور مظهر عصرية ، ويراها المنهج العلمي رواسب مما أقحم على الفهم القرآني ، ما تزال ناشبة في عقلية من يتصورون أنهم علميون ، من أبناء عصرنا الذي اقتحم مجاهل الفضاء !

* * *

ووجد المفسر العصري سبيلَ الاقتحام لميدان التفسير سهلاً بالعدول

عن ظاهر النصوص القرآنية ، إلى مجـــازيات عصرية لم يسمع بها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ، ولا عهد لنا بها في لسان العرب ولغة القرآن .

حين يعلم فقهاء النصوص ، أن تأويل الحقيقة بالمجاز لا يصح بغير قرينةٍ دالّة على قصدِ العدول عن ظاهرِ النصّ وأصلِ المعنى !

لِكَيْلا تَضِلَّ المَقَايِيسُ

« فاسألوا أهلَ الذكرِ إن كنتم لا تعلمون »

(قرآن كريم)

« مَن تكلم في القرآن برأيه فأصاب ، فقد أخطأ »

(حديث شريف)

حرص المفسر العصري على أن ينشر مع مقالات تفسيره بمجلة «صباح الخير» ، كلّ ما تلقى من رسائل الترحيب والتأييد .

وعذره واضح ، في أن يلتمس من نشر هذه الرسائل ، ما يواجه به موقفي من قضية التفسير العصرى ، فيما نشرتْ لي صحيفة الأهرام .
وكذلك يُعذَرَ الذين خلبهم هذا الأسلوب الجديد ، لا يدرون مزالق التعثر فيه والضلال .

ولا أرى أن أشغل أمتي بجدلٍ عقيم حول هذا الخلاف ، بين من يريدون لها أن تفهم القرآن كما يبينه لها مفسر صحفي مُحدَث ، ومن يشغلهم فهمُه كما بينه نبيٌّ الإسلام وفهمتْه مدرسة النبوة .

لكني لا أملك حقّ السكوت على شبهة خطيرة تضل بها المقاييس وتختل الموازين ، فأدع الناس يقرءون ما نشرته المجلة لأستاذ جامعي — كان يشغل من بضع سنين ، كرسي الأستاذية للفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة — وأترك مقاله يمضي في الناس ، دون تعليق .

لقد تطوع الأستاذ الدكتور عثمان أمين ، فأفتى بحق الاجتهاد في تفسير القرآن ، لأيٍّ عصري دون دراسة أو مؤهل . بل إنه بارك كل خطأ يحتمل أن يتورط فيه مثل هذا المفسر ، وقرر له الأجر من الثواب ، على أي خطأ .

وأنقل نص عبارته – من عدد المجلة رقم ٧٣٦ بتاريخ ١٩٧٠/٢/١٢– بعنوان « الاجتهاد في القرآن واجب على كل مفكر »

(فرأيي أن القرآن لم ينزل للمتخصصين ، وإنما نزل للعالمين . وأن « ابن عباس » ، وهو حجة التفسير في زمانه ، لم يدرس الدينَ في معهد ، ولم يكن يملك من المؤهلات إلا الفطرةَ السليمة ، والله يقول في كتابه : « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ » والدكتور – الصحفي المفسر – كما يتبين لكل قارىء منصف ، يملك هذه الفطرةَ السليمة ، وهو مشكور على هذه المحاولة ، فإن أخطأ كان له أجرُ المجتهد ، وإن أصاب كان له أجران) .

قرأتها ، فشعرت بأسى عميق :

القضية التي نحن بصددها ، تتعلق بتفسير القرآن ، فكيف ساغ الخلط بين التفسير ، وبين نزول القرآن للعالمين ؟

وكيف تصور ، أن الاجتهاد في التفسير مباح للعالمين ! كأنه لا يدري أن الاجتهاد في أي مجال ، إنما يباح لذوي الخبرة به والدراية ، أو « أهل الجهة » بتعبير سلفنا الصالح .

وعصرنا يؤمن بأن أصحاب التخصص ، هم الذين يجوز لهم الاجتهاد ، فهل كان الاجتهاد مباحاً لعامة الناس في تفسير القرآن والفتيا في أحكامه وشريعته ؟

الذي أجمع عليه الأئمة ، أن الاجتهاد في ذلك محظور على غير العلماء .

ويسري الحظر عليهم ، فيما هو من الغيبيات ، أو المتشابه . ويحظر عليهم التفسيرُ بمجرد الرأي ، دون استنادٍ إلى شاهد ، من صريح النصِّ أو دليل القياس .

ونص عبارة الجلال السيوطي :

« أما ما يجري مجرى الغيوب ، كقيام الساعة ... وكل متشابه في القرآن ، فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره ، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن والحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

« وأما ما يعلمه العلماءُ ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذي يغلب عليه إطلاقُ التأويل . وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً ، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهادُ فيه . وعليهم اعتمادُ الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي » [1] .

وسبق القولُ فيما اشترطوا في المفسر من شروط الأهلية ، فلم يتصوروا قط أن يتصدى للتفسير من أعوزته أدواته ، وجعلوا علوم العربية من علوم القرآن التي لا يجوز أن يجهلها مفسر . ونقلوا في ذلك كلمة الإمام مالك :

« لا أُوتَى برجلٍ غير عالم بلغة العرب يُفسر كلامَ اللهِ إلا جعلتُه نكالاً » .

ومن أئمة السلف ، من تشددوا في موقفهم من إباحة الاجتهاد في

---

١ الإتقان في علوم القرآن : ٢ – ٢١٦ .

غير الغيبي والمتشابه ، للعلماء أنفسهم . فألزموا المجتهدَ باعتماد الشواهد والدلائل ، حتّى يتقى التفسير بمجرد الرأي ؛ وهو عندهم غير جائز . قالوا :

« ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي . والاجتهاد من غير أصل . قال تعالى : « وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » وقال : « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ » . وقال صلى الله عليه وسلم : «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » [1] .

بمعنى أنه أخطأ الطريقَ إليه .

قال تعالى « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »

« فما ورد بيانه عن صاحب الشرع ففيه كفاية عن فكرة مَن بعده . وما لم يرد عنه بيانه ، ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده ، ليستدلوا بما ورد بيانُه على ما لم يَرِد » [2] .

وخلاصة أقوالهم في النهي عن التفسير بالرأي : أنه التفسيرُ من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير ؛ وتفسيرُ المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ؛ والتفسيرُ المقرِّر للمذهب الفاسد ، بأن يُجعَلَ المذهبُ أصلاً والتفسيرُ تابعاً ، فيُردّ إليه بأي طريق ؛ والتفسيرُ بالاستحسان والهوى...[3]

بل إنهم لفتوا ، مع ذلك ، إلى خطر التفسير بالرأي ، مع صحة الطريق إليه . فقد يحتمل اللفظ معنيين ، فيحتاج حملُه على أحدهما

---

١ أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي .
٢ و ٣ الاتقان : ٢ / ٢١٦ .

« الى معرفة أنواع من العلوم : التبحر في العربية واللغة ؛ ومن الأصول ما يدرك به حدودَ الأشياء وصيغ الأمر والنهي والخبر ، والمجملَ والمبين ، والعمومَ والخصوص ، والمقيد والمحكم ، والمتشابه والظاهر والمؤول ، والحقيقة والمجازَ والصريحَ والكناية ؛ ومن الفروع مَا يدرك به الاستنباط .

« هذا أقل ما يحتاج إليه ، ومع ذلك فهو على خطَر ، فعليه أن يقول : يحتمل كذا ؛ ولا يجزم ، إلا في مُحكَمٍ اضطُرَّ إلى الفتوى به ، فأدّى اجتهادُه إليه » .

* * *

وأكاد أسمع من يرفض أن نحتج بهذه المبادىء المنهجية ، ننقلها من تراث أئمة السلف ، لنأخذ بمبدأ الأستاذ الجامعي في إباحة الاجتهاد لمن شاء وله أجره ، أخطأ أو أصاب !

وأقول : إن عصرنا لا يمكن أن يزدري مبدأ من مبادىء المنهج لأن عصوراً غابرة سبقت إليه . والدكتور عثمان أمين فيما أعلم . قد شغل بمنهج ديكارت ، وبما فهمه من منهج الشيخ محمد عبده ، وليسا من أبناء هذا الزمان ! ..

«وابن عباس» الذي احتج به لإباحة التفسير دون دراسة أو مؤهل ، هو ابن عم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وصاحبه ، وأحد كُتّاب الوحي .

فهل صحيح أنه كما قال الأستاذ (لم يدرس الدينَ في معهد ، ولم

يكن يحمل من المؤهلات للتفسير إلا الفطرة السليمة) ؟

الذي أعلمه ويعلمه تاريخنا ، أن ابن عباسٍ درسَ الدين الإسلامي في «مدرسة النبوة» وكان نبيُّ الإسلام نفسه ، هو معلمه في هذه المدرسة !

وكان يملك مؤهلَ الصحبةِ للمصطفى المبعوث بدين الإسلام ، ويملك معها : أهلية كتابة الوحي ، ونقاءَ عربيته ، وأصالةَ فصاحته ! فلم يكن بحيث يفوته العلم بالقرآن ، أو تغيب عنه أسرارُ لغته وبيانه ، أو يخلط بين المحكم منه والمتشابه ، ولا بين المطلق والمقيد ، والعموم والخصوص والصريح والمؤول ، والحقيقة والمجاز ...

وكذلك كان السابقون الأولون من الصحابة رضي الله عنهم :

تلقوا القرآن مباشرة من المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، ودرسوا الدين الإسلامي في مدرسة النبوة ، والتحقوا بأول معهد عرفه تاريخ الإسلام : المسجد النبوي في دار الهجرة .

وبصحبتهم للمصطفى ، كانوا المرجعَ الأول بعده ، عليه الصلاة والسلام ، في قراءة القرآن ، وترتيبه ، وسائر علومه ، كما أخذوها مباشرة عن مبلّغ هذا القرآن .

وبالدروس التي تعلموها من المصطفى ، وحضروها في مسجد المدينة ، كانوا المراجعَ الأصيلة للسنة النبوية من : قول ، وعمل ، وتقرير ...

وبأصالتهم في الفصحى وعراقتهم في العربية ، كانوا معلمي جيل التابعين ، ومصدرَ توثيقٍ لنصوص الفصحى من عصر صدر الإسلام وأواخر الجاهلية ، حين احتاجت الأمة إلى جمع تراث العربية وتدوينه ،

كي يستنبط منه علماؤها معجم ألفاظ الفصحى وقواعد نحوها واشتقاقها ، وأساليب تعبيرها وبيانها .

ولم يكن الصحابة ، مع ذلك ، على مستوى متماثل من الدراية والفقه ، بل تفاوتت منازلهم وطبقاتهم .

في عملية جمع القرآن ، كانت صفوة من حُفاظهم وكُتاب الوحي منهم ، هي التي نُدِبت للعمل الجليل مع التفرغ والاختصاص .

وفي جمع أحاديث المصطفى — عليه الصلاة والسلام — كان علماء الحديث يشترطون لصحته : اتصال إسناده برواية العدل الضابط عن العدل الضابط إلى أن يصل الإسناد إلى التابعين ، فالصحابة ، عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكانوا مع ذلك يميزون بين الأسانيد ، ولم نسمع قط أنهم سووا بين رواة الحديث ، بل الذي نعرفه من مبادىء علوم الحديث ، أنهم أنزلوهم منازلهم من العدالة والضبط ، بأدق الموازين للجرح والتعديل .

فكيف تختل مقاييسنا العصرية ، فنحتج لإباحة التفسير ، بأن «ابن عباس» لم يدرس الدين في معهد ، ولم تكن لديه مؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

كأن «مدرسة النبوة» ليست معهداً نعترف به لدرس الدين !

وكأن «المسجدَ النبوي» لم يعرفه التاريخ ، المعهدَ الإسلامي الأول ! وكأن صحبة المصطفى ، وكتابة الوحي ، وأصالة العربية ، لا تدخل في مؤهلات « ابن عباس » لتفسير القرآن !

* * *

القرآن نزل للعالمين ، ولم ينزل للمتخصصين .

لكن تفسيره ليس مباحاً لكل الناس ، والاجتهاد فيه محظورٌ على غير العلماء .

بل إن قراءته ليست مباحةً للعالمين ، يقرؤه كل فرد باجتهاده ، وإنما أجمعت الأمة على قراءات سبع ، لأئمة من المتخصصين يفصلنا عنهم بضعةَ عشر قرناً .

وعلى تتابع الأجيال ، يلتزم المسلمون هذه القراءات ، لا يحيدون عنها باسم الحرية ، ولا يرفضونها بشعار (يسقط الجمود والاحتكار) !

* * *

والأمر كذلك في الفقه الإسلامي المستمد من نصوص القرآن والسنة وما يقاس عليهما :

الإسلام ديننا جميعاً ، والقرآن نزل للناس جميعاً .

لكن باب الفقه لم يكن قط ، ولن يكون أبداً ، مفتوحاً لكل الذين نزل لهم القرآن !

ولم يُترك الأمر فيه مباحاً لاجتهادِ غير الفقهاء ، ولا عليهم أن يخطئوا فيما لا يفقهون !

وإنما انعقدت الإمامة لأئمة أربعة من المسلمين : مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل .

جائزٌ أن يقول فيهم أستاذ جامعي محدَث ، مثل الذي قاله في ابن عباس :

(لم يدرسوا الدينَ في معهد : ولم يكونوا يملكون من المؤهلات إلا الفطرة السليمة)

فاسمعوا أيها الناس :

الإمام مالك بن أنس ، الذي أجمع المسلمون على إمامته فما كان لأحد أن يفتي ومالكٌ في المدينة ، لم يصل إلى هذه المنزلة العليا من التخصص الفقهي — أو الاحتكار بمفهومه العصري الغريب — بغير دراسة مؤهلة .

ولم يجلس للفتيا والتدريس من تلقاء نفسه ، دون إجازة علمية من فقهاء زمانه !

بل تعلم في مدرسة ، وسار على منهج .

وتلقى من شيوخ انقطع لبعضهم سنين دأباً .

ثم لم يجلس من تلقاء نفسه للفتيا بما فهم من القرآن وحفظ من صحيح الحديث والسنة ، دون إجازة علمية من فقهاء زمانه : أهل العلم والفضل وجهة الاختصاص .

أما مدرسته ، فكانت «المسجد النبوي بالمدينة» وفي مكان منه حدده المؤرخون : الروضة الشريفة ، ما بين القبر والمنبر .

وفي هذه المدرسة يقول «ابنُ شهاب الزهري» أحد شيوخ مالك :
« جمعْنا هذا العلمَ من رجال في الروضة»

وعدَّ من هؤلاء الرجال سبعة من فقهاء أهل المدينة المنورة .

على أن «مالكاً» لم يدخل هذه المدرسة إلا بعد أن تأهل لها في « مكتب تحفيظ القرآن » فأتم حفظه ثم أتقن تجويده ، قراءةً على «نافع ابن عبد الرحمن» إمام أهل المدينة في القراءة وأحد القراء السبعة الأئمة !

وأما عن منهج دراسة مالك ، فكان فيما حدده مؤرخوه : يستوعب «كل ما يستعان به على فهم القرآن . من علوم العربية ، وسنن الرسول — عليه الصلاة والسلام — وأحكام القرآن ، وعلومه ، والسيَر والمغازي ، مع قدرٍ من الحساب والرياضيات ».

وأما شيوخه الذين أخذ العلم منهم : فمنهم :

« ربيعة بن أبي عبد الرحمن» الذي اشتهر بربيعة الرأي وقيل فيه : ذهبتْ حلاوةُ الفقه منذ مات ربيعة .

و «ابن هُرمز الأصم» الذي انقطع إليه مالكٌ سبعَ سنين لم يخلطه بغيره . وفيه يقول ربيعةُ الرأي : « ما رأيتَ عالماً قط بعينك إلا ذاك الأصمَّ ، ابنَ هرمز ».

واشتهرت في بيئتنا العلمية الإسلامية ، وصية ابن هرمز لتلميذه مالك :

« ينبغي أن يورِّث العالم جلساءه قولَ (لا أدري) فإن العالم إذا أخطأ (لا أدري) أصيبت مقاتله » .

ومن شيوخ مالك : « ابنُ شهاب الزهري» أعلمُ الحفاظ بالحديث .

و «نافع» مولى عبدالله بن عمر ، الملقب بالإمام العلَم ، وأحد رجال الإسناد في السلسلة التي تُعرَفُ في علوم الحديث بسلسلة الذهب .

وفيه قال تلميذه مالك : « كنتُ إذا سمعتُ حديث نافع عن ابن عمر ، لا أبالي ألا أسمعه من أحد غيره».

والإمامُ «جعفر الصادق» الذي تخصه الشيعة بأسرار التفسير ، وتنسب إليه كتاباً فيه كلُّ ما يحتاجون إليه من علم القرآن .

وغيرُهم كثير ، لا أحصيهم هنا عدّاً .

ونال «مالك بن أنس» إجازته العامية من أهل الجهة ، أي أصحاب الاختصاص ، فكانت شهادتهم له مؤهلاً لأن يجلس في مدرسة «مسجد المدينة» للحديث والفتيا .

قال رضي الله عنه : « ليس كلُّ مَن أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهلَ الصلاح والفضل والجهة ، فإن رأوه لذلك أهلاً ، جلس .

« وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم ، أني موضع لذلك »

* * *

هل يكفي هذا المثَلُ ، إقناعاً بحرمة التخصص وكرامة العلم ، وإنصافاً لأئمة السلف الذين توهم الدكتور عثمان أمين أنهم لم يدرسوا الدينَ في معهد ، ولم يحملوا من المؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

أخشى أن يكون الأستاذ الدكتور مندفعاً في حماسه للتفسير العصري ، بسابق موقفي من كتابه في (الجوانية) حين أنكرتُ منه بدعة «التفسير الجواني للقرآن» في مقالٍ لي نشره الأهرام عقب ظهور الكتاب .

وأستغفر الله لي وله .

* * *

دِفاعًا عَنْ مَنْطِقِ عَصْرِنا
وَكَرامَةِ عُقُولِنا

« وما لهم به من علم إنْ يتّبعون إلاّ الظنّ وإن الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً . فأعرِضْ عمّنْ تولّى عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلاّ الحياةَ الدنيا »

(سورة النجم)

نشرت « صباح الخير » كلمة لكاتب زميل من محرريها ، – وتعنيني هنا القضايا لا الأشخاص – يرجو فيها أن أغير موقفي من التفسير العصري ، (إذا أنا استلهمت في هذه القضية ضمير المفكر المشغول بمستقبل الإنسان ، لا عمامة المحترف المشغول بحماية مستقبله الشخصي ، واختصاصاته التي يأكل منها خبزه) .

وكأنما تصور السيد الزميل ، غفر الله لي وله ، أنني أحمي كرسي الأستاذية الذي أشرُف به في الجامعة ، من منافسة زميله المفسر الصحفي.

أو كأنه وهم أنني أخشى تنحيتي عن اختصاصي في الدراسات القرآنية وقضايا الفكر الإسلامي ، ليُندب لها المفسر الصحفي مكاني ...

ما علينا ...

ولننظر معاً في فتنة هذه العصرية المُدّعاة والعلمية المغلوطة .

* * *

باسم العصرية ، أقول إن كرامة إنسان العصر تأبى عليه أن يأخذ العلم ، أي علم ، من غير أهله . وتنكر أن تروج فينا دعوة إلى إهدار قيمة التخصص ، وإنا لنعلم علم اليقين أن عصرنا ما حقق شيئاً من تقدمه العلمي الرائع إلا بإيمانه بالتخصص . وإصراره على وضع الحدود التي تحول دون استباحة أيٍّ مجال للمعرفة ، لغير ذوي الخبرة والاختصاص .

وإذا جاز لطبيب أو فلكي أو زراعي ، أن يفسر للناس القرآن بما تيسر له فهمُه منه ، جاز لمن يستطيع من علماء العربية وفقهاء الدين قراءةَ كتاب في الطب أو الفلك أو الزراعة ، أن يفتي الناس بما تيسر له فهمه منها .

وإذا استباح كل عصري أن يفسر القرآن للناس برأيه واجتهاده دون علم أو مؤهل ، بدعوى أن القرآن نزل للعالمين ولم ينزل للمتخصصين ، ساغ أن نعطل وظيفة المفتي وقضاة الشريعة ، فلا يحتكروا فقهَ الإسلام وهو ديننا جميعاً !

وساغ بالمنطق نفسه ، أن نوفر على الأمة ، وهي مثقلة بأعباء التنمية وتكاليف معركة البقاء والمصير ، أعباءَ كليات : اللغة العربية والشريعة والحديث وأصول الدين والدراسات الإسلامية ، من حيث لا حاجة لنا إلى من يحتكرون التخصص في هذه العلوم أو يحترفون الفقه بها والفتيا فيها ، والعربية لغتنا جميعاً ، والإسلام دين الأمة كلها ، والقرآن نزل للعالمين !

بل يجوز أن نسد ذرائع الاحتكار والاحتراف ، فلا نسمح لفئة من علماء القانون أن يحتكروا القانون المدني ، وآخرين القانون الجنائي ، أو القانون الدولي ، أو الشريعة الإسلامية ، كيلا يحجروا على غيرهم من حملة إجازة القانون ، ويصادروا حقهم في حرية الحركة ، ويضيقوا في وجوههم مجال العمل .

ولكي نأخذهم بمنطق «عمومية الثقافة ، واشتراكية العلم ، وحرية العصر ، فلا يفكروا بعقلية من يدافع عن اختصاصاته الرسمية !

أي تزييف للعصرية يسمح بمثل هذا الإهدار لقيمة التخصص والمسخ لمفهوم الحرية والتقدم ؟

وهل ترانا نحقق عصريتنا ونأمن على مسيرتنا مع رواد الفضاء وغزاة القمر . إذا نحن تحررنا من منطق زمن مضى لم يكن يسمح لأي مسلم « أن يفتي » ومالك في المدينة ، وناديناً بسقوط هذا الجمود والاحتكار ، فأبحنا لمن شاء من العالمين الذين نزل لهم القرآن ، أن يفتح في إحدى المجلات العصرية داراً للإفتاء في الحلال والحرام ، تغني الناس عن استفتاء فقهاء الإسلام ، والاتجاه إلى دور الإفتاء الرسمية في الدول الإسلامية ؟!

باسم العلم أعلن رفضه لمن يتصدون للفتيا بغير علم ولا مؤهل ويخوضون في تفسير القرآن بعلوم عصرنا ، وليسوا من دارسيها ؛ ولا أقول من علمائها .

فإن قيل إن المفسر العصري يتحدث في هذه العلوم بمعارفه العامة ، قلنا إن أي طالب بالمدرسة الثانوية ، له مثل هذا الإلمام العام بعلوم العصر . ولا يعوز فقهاء العربية والقرآن ، هذا القدرُ من المعارف المتاحة لعامة المثقفين ، وليسوا مع ذلك بحيث يكتبون في التشريح مثلاً بمعارفهم العامة ، وبدعوى عمومية الجسم البشري الذي هو للناس جميعاً على سواء !

ولا أتردد في الجهر بأنه لا حرمة فينا لمن لا يحترم العلم ، بل تسقط كل حرمة له بمجرد خوضه فيما لا يعلم ، وجرأته على أن يقول : (أدري) فيما لا يدري !

قد أفهم أن يتكلم طبيب فيما يفهمه من آيات قرآنية يمكن أن

تتصل بالطب ، وأن يكتب خبير زراعي فيما يفهمه من آيات القرآن في النبات والفاكهة والزرع ولواقح الرياح .

وأن يلتفت خبير كيميائي إلى آية القدرة الإلهية في تسوية بنان الإنسان لا يشتبه ببنان غيره من ملايين البشر .

وأن يقف عالم جغرافي عند آية القدرة في البحرين يلتقيان : هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وبينهما برزخ لا يبغيان .

وأن يقف عالم فلكي عند آية القدرة في السماء رفعها الله بغير عمد ترونها ، وما في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من آيات لأولي الألباب .

قد أفهم هذا ومثله .

ولكن الذي لا أفهمه ، وما ينبغي لي أن أفهمه ، هو أن يجرؤ مفسرون محدثون على أن يخوضوا في كل هذا ، فيخرج أحدهم على الناس بتفاسير قرآنية فيها طب وصيدلة وطبيعة وكيمياء ، وجغرافيا وهندسة وفلك وزراعة وحيوان وحشرات وجيولوجيا وبيولوجيا وفسيولوجيا وأنثربولوجيا .

إلا أن أتخلى عن منطق عصري وكرامة عقلي ، فآخذ في المجال العلمي بضاعة ألفِ صنفٍ معروضة في الأسواق !

وإلا أن أتخلى عن كبرياء علمي وعزة أصالتي ، فأعيش في عصر العلم بمنطق قريتي حين يفد عليها الباعة الجائلون بألف صنف ، يروج لها ضجيجٌ إعلاني بالطبل والزمر ، عن كل شيء لكل شيء ، أو « بتاع كله» في فكاهتنا الشعبية الساخرة بالادعاء !

باسم العلم أرفض هذه الرِّدَّةَ العقلية التي ترجع بنا القهقرى إلى دهور غابرة، فتزين لنا أن نفكر بالمنطق الأسطوري الذي يتلقى فيه إنسانٌ عن ساحرٍ من الجن، كلمةَ السر التي تفتح له أبواب الخزائن الموصدة وتبيح له كنوزها الخفية، فنتصور أن من العصريين مَن يستأثر بكلمة السر، من مثل: «افتح يا سمسم» فتفتح له خزائن علوم الدنيا والدين، وتبيح له خفايا الغيب وأسرار الحكمة، فلا يلبث أن يخرج على الناس وفي جرابه طرائف وغرائب من كل علوم العصر، ومعها مكتشفَات من مجاهل الميتافيزيقا، وما استأثر الله به من علم الغيب والساعة واليوم الآخر!

أرفض أن يسخر مفسرون عصريون بمنطقنا العلمي — نحن الذين تعلمنا أن نقول: «لا ندري» حين لا ندري — فيزينوا لنا أن نقبل تأويلات لهم يزيفونها بقناع العلم، وأول ما يعيه تلاميذنا من مبادىء العلم، رفضُه الرجم بالظن. وأول ما نلقنهم في منهج المعرفة، هو أن القرآن حرر العقل الإنساني من غرور الخوض في الغيبيات بغير علم، وإنما حسب المؤمنين منا أن يتوقفوا فيها عند الذي جاءهم به الدين الذي آمنوا به؛ أما غير المتدينين، فحسبهم أن يؤمنوا بالعلم الذي لا يبيح لأحد أن يخوض فيما لا يعلم، ويحظر القطع بنفيٍ أو إثبات في مجاهل ميتافيزيقية لم يصل العلم إليها.

وأرانا اليوم نُواجَهُ في عصر العلم، بمن ينتحلون الدراية بكل علوم الدين والدنيا، ومن يخوضون في الغيب فيفسرون لنا آيات القرآن في البعث والقيامة بما لم يأت فيه نص، ولا كشَفَ عن غيبه علم!

وتبلغ بهم الاستهانة بعقليتنا العلمية ، ومنطقنا العصري ، أن يتصوروا أن هذا مما يجوز في عصر العلم :

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً . فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى » .

* * *

بَيْتُ العَنْكَبُوت

« مَثَلُ الذين اتخذوا من دونِ اللهِ
أولياءَ كمثَلِ العنكبوتِ اتخذتْ بيتاً وإن
أوْهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوت لو كانوا
يعلمون ٭ إن اللهَ يعلم ما يدعون من دونه
من شيءٍ وهو العزيزُ الحكيم ٭ وتلك الأمثالُ
نضربها للناس وما يعقِلُها إلا العالمِون »

(قرآن كريم)

أستأنف القول من حيث انتهى بي المقال السابق إلى رفض الامتهان لكرامة عقولنا ومنطق عصرنا ، بهذه الردّة العقلية التي ترجع بنا القهقرى إلى منطق العصر الأسطوري ، فتخايلنا بكشف المحجوب عن عالم الغيب ، وتدّعي امتلاكَ مفتاح السر لكل علوم الدين والدنيا والآخرة !

أو «بتاع كله» كما تقول العامة بفطرتها السليمة التي لم يفسدها غرور ادعاء العلم بكل شيء !

وأفرغ اليوم لبيان المزلق الخطر ، الذي يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان بالفكرة السامة ، تنأى بهم عن فهم مدرسة النبوة للقرآن ، وتحملهم على الاقتناع بأن القرآن إذا لم يقدم إليهم أسرار التكنولوجيا والبيولوجيا والأنثربولوجيا ، والذرة والكمبيوتر والإلكترون ... فليس صالحاً لزماننا ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية ، ويقبله منطقنا العصري .

فماذا اكتشف المفسر العصري ، من أسرار علمية لما (جاء على لسان ذلك النبي الأمي الذي لم يكن يعرف ، لا هو ولا قومه ولا عصره ، كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثروبولوجيا) ؟

(ص ٤٨)

ماذا يقدم لعصرنا من تفسير علمي لذلك (القرآن المذهل ، أتى به رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة ... بدوي راعي غنم في بيئة بدوية من أجلاف البدو في صحراء جرداء مقطوعة الصلة بالحضارات والعلوم)؟

(ص ٢١٣)

ماذا يمن به على أبناء هذا الزمان ، من عجائب (أسرار هذه العلوم التي غابت حتى عن «دارون» لمجرد أنه لم يرَ يدَ الصانع الخالق المهندس وهي تهندس وتخلق)؟

(ص ٤٧)

اكتشف لغزاة القمر ، في آية يس :

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »

أنها (تشبيه حرفي للقمر الذي لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة) .

(ص ٥٠)

لنسمع بعد شهرين من نشره لهذا الاكتشاف ، أن العلماء السوفييت ما يزالون يدرسون ما يبدو لهم في الصور التي التقطتها «لونا» معالِمَ عمرانٍ وآثارَ حياة !

واهتدى إلى (شفرة فواتح السور ، مثل كهيعص ، طسم ، حم ، عسق ؛ مما لم يقل لنا النبي إنه يعلم له تفسيراً) .

(ص ١٩)

فكان تفسيره العصري لها : (أنها حروف لها معنى في ذاتها ، وكلمات لها سرها ومدلولها وإن غاب عنا فهمها . وهي علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد) !

(ص ١٩٥)

وكشف عن سر الخلق من « حمإ مسنون » : (أنه اتفاق غريب ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربعمائة سنة)

(ص ٥١)

ثم ترك للناس أن يفهموا ما شاءوا ، من اكتشافات العلم عن خلقنا من حمإ مسنون !!

واكتشف لما يشغل العصر من نظرية التطور ، تأويلاً لكلمات الله :

« الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » : أنه (هدى إلى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها في آدم)

(ص ٥٣)

وفي قوله تعالى في الإنسان : « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِين » :

(أن ما حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية في الأرض ، كان ردة وكان انتكاساً وعقاباً لخطيئة — حمل الأمانة — وقد جرى في الأزل قبل المرحلة الأرضية للوجود الآدمي)

(ص ٥٧)

وقدّم إلى عصرنا من قوله تعالى : « أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً »

أنه (لا تفسير لها إلا أن تكون الأرض كروية دوارة ، نصفها ليل ونصفها نهار ، فإذا جاءت الساعة فإن نصف سكانها يكونون في ليل والنصف الآخر في نهار) .

(ص ١٤٦)

تصحيحاً منه لفهم النبوة ، وقد جرى لسان العرب على القول : آتيك ليلاً أو نهاراً ، فلا يفهم منه إلا التوقيت الزمني الذي لا يتعلق بكروية الأرض الدوارة !

واكتشف لعصرنا من أسرار الرياضيات وقوانين الطبيعة في القرآن ، ما لم يهتد إليه أحد من عصر النبوة إلى ما قبل ظهور التفسير العصري :

(فمن التوحيد ، نشأت كل أعداد العلوم والمعارف)

(ص ١٩٣)

أما فلسفة العدد ، التي غابت عن مدرسة النبوة ، فيقدمها لنا من تأويل آية المعارج : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ».

بأن (معنى هذا أن أيام الله هي كما يشاء الله ، فإذا شاء يكون اليوم بألف سنة وإذا شاء يكون بخمسين ألف سنة . فهو ليس خاضعاً لزمنه مثلما نحن خاضعون ، وإنما هو يخلق زمنه . وهذا شرح فلسفي رفيع لمعنى الأبدية أو زمن من لا زمن له)

(ص ١٣٨)

ومن آية آل عمران :

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وإليهِ يُرْجَعُونَ »

استنبط المفسر العصري ما لم يخطر على بال أحد قبله ،

(من القوانين الإلهية التي نعرف الآن الكثير منها مثل :

قانون الضغط الأزموزي ، وقانون التوتر السطحي ، وتماسك العمود المائي ، والتوازن الكهربائي والأيوني في المحاليل ، وقانون التفاضل الكيميائي بين هورمون وهورمون فيكون أحدهما حاكماً على الآخر ، وقانون رفض الفراغ ، وقانون الفعل وردّ الفعل)

(ص ٩٨)

فأنّى للنّبي الأميّ أن يعرف هذه القوانين ، فضلاً عن أن يبينها للناس ، كما بينها هذا المفسر العالم ؟

وماذا تبغي الأمة من العصر العلمي ، أكثر من هذا السرد لقوانين الطبيعة والكيمياء ، من الذرة إلى الفلك ؟

وأضاف إلى علم عصرنا بأسرار الإلكترون :

(إنه محاسَب في حركاته ، فما بال الإنسان العاقل وهو بالنسبة للإلكترون كالمجرة والفلك بالنسبة للإنسان ، وقد نفخ الله فيه من روحه فهو شيء عظيم وليس في هوان الذرة ولا الإلكترون).

(ص ٦٩)

وأضاف إلى فهمنا لرحلة الحياة تفسيراً عصرياً يلائم عقلية جيل التليفزيون :

(أنا وأنت وهو وهم ونحن ، كلنا مجرد صور تبرق وتختفي على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون ثم تتبدد وتزول عند انقطاع

التيار ... ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء ، ثم تعود فتزول هي الأخرى) .

(ص ١٨٣)

وقدَّم إلى علم الجراثيم والحشرات ، ما رآه يليق بعصرنا من رفض السببية بالتوكل : فإذا توكلنا عليه ، تعالى ، (فلن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض ، لأننا أدركنا وحدة الفاعل ، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله . الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع ...

(ص ١٨٧)

وكان تفسيره العصري لآية النمل :

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ »

(أن إدراك نملة لسليمان أمر ممكن ، مثل إدراك سليمان لله)

(ص ١٣٣)

ولم يخطر على بالنا من قبل ، إلا أن النملة تحس بغريزتها موضع الخطر ، وتحاول تلقائياً أن تتقيه ، بهدى الغريزة وإلهام الفطرة !

واكتشف المفسر العصري لبيولوجيا الحيوان وديناميكا الصلب ، أن القرآن إذ يقول : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً »، فذلك من الإعجاز العلمي (لأن العلم كشف مؤخراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر . وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن) .

(ص ٢١١)

ويعرف المبتدئون من طلاب العربية ، أن القرآن جرى هنا على لغة

العرب الذين أنثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية ، كما أنثوا مفرد النمل والنحل والدود ، فلم يقولوا في الواحد منها ، إلا نملة ونحلة ودودة ، وهو تأنيث لغوي لا علاقة له بالتأنيث البيولوجي كما وهم المفسر العصري ، والنملة أو الدودة أو العنكبوت ، قد تكون ذكراً كما قد تكون أنثى ! ...

وجرى لسانهم كذلك على تأنيث الشمس والأرض والسماء والدار والسوق ، وكل ما يعرف في المصطلح اللغوي بالتأنيث المجازي ، دون أن يتصور من له أدنى اتصال بالعربية ، أن التأنيث هنا يحمل على التأنيث البيولوجي !

وقبل أن ينزل القرآن بآيات :

« وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً »

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » .

« كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً » ،

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » .

كان أي عربي وثني « من أجلاف البادية » ينطق بها على التأنيث ، فلا نتصور أن في ذلك إشارة علمية إلى ما اكتشفه عصرنا من بيولوجيا الحيوان !

ثم تورط المفسر العصري من هذا الوهم ، إلى وهم أشنع ، فأضاع كلَّ السر البياني للآية تضرب المثل لأوهن البيوت ببيت العنكبوت ، حين قرر ما وصفه بالحقيقة العلمية :

(وهي أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات ، وأقوى من بيت الحرير وأكثر مرونة)

(ص ٢١١)

وعلى هذا التفسير العصري ، لا يصلح بيت العنكبوت مضرباً للمثل على الوهَن ِ ، لأنه ليس أهونَ من بيت الصلب ، أو من بيت الحرير اتخذته دودة القز !

وقريب من هذا ، تورطه في تشبيه صلة الإنسان بخالقه بالحبل السري :

(والشرك في الحقيقة أشبه بانقطاع الحبل السري الذي يفصل الصلة بين الجنين ومصدر حياته ... بين الإنسان والله)

(ص ٩١)

وقد يعلم الأميون منا أن الحبل السري يقطع عقب الولادة ، إيذاناً بانفصال الجنين عن رحم أمه ، وبدء حياته مستقلاً عنها . فهل يكون لنا بأميَّتنا العلمية في التشريح ، أن نفهم بهذا التفسير العصري ، أن قطع الحبل السري يبت صلتنا بخالقنا ؟ وهل يكون لأبنائنا في كليات الطب ، أن يروا في انقطاع الحبل السري إيذاناً بالموت وبتٌ مصدر الحياة ؟

* * *

نحن علماء النصوص وأساتذة التخصص ، نرفض هذا العبث بحرمة كتاب لا يحل لنا أن نفهمه إلا كما بيّنه الرسول المبعوث به ، عليه الصلاة والسلام .

فهل يقبل علماء الكونيات والطبيعيات هذه الرِّدة العقلية التي تهيم في كل واد ؟

وهل يقبل علماء العصر ، أن يلغوا قانون السببية ، ويقولوا لأبناء هذا

الزمان لا تخافوا الميكروب والسم فالميكروب لا يضر والسم لا يؤذي ؟ ذلك ما لا أتصوره ...

ولا يتصوره معي أبناء أسرتي المتخصصون في الطب والهندسة والقانون والموسيقى والرياضيات والعلوم السياسية !

* * *

ثم ماذا عن الغيبيات ؟

المتدينون منا ، يؤمنون بها كما جاءت في الكتاب الذي آمنوا به .

وفي دراستنا المنهجية ، نلفت الطلاب إل أن العلم يرفض كذلك أن نخوض فيما لا علم لنا به .

ويأتي تفسير عصري ، يخايلنا نحن أبناءَ عصرٍ ما بعد القمر ، بعجائب وغرائب من علمه بالغيب ، وكشفه الحجب عما استأثر الله بعلمه ، وليس لدى العلم التجريبي مجال لأي قول فيه .

ومن دار الإفتاء العصرية في مجلة صباح الخير القاهرية ، صدرت بتاريخ ٧٠/٤/٩ ، فتوى المفسر الصحفي العصري بأن (كرسي الله هو قلب المؤمن ، والعقل هو العرش ، والجسد هو اللوح المحفوظ الذي يكتب الله عليه ، على الجينات الوراثية في خلية الجنين ، يكتب قدر المولود وحياته) !

والعالم العصري المفسر يقول لأبناء هذا الزمان : إن (في هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً) .

(ص ١٢٢)

وأن النذير للضالين بعذاب جهنم : (مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له : إذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فإن الفيران سوف تأكل أسنانك ... وبالطبع لن تأكل الفئران أسنانه) .

(ص٦٨)

وأن جنة الآخرة (هي درجة ومقام ، فيها كل ما نعرف على الأرض ولكن مع تفاوت هائل في الرتبة ، مثل التفاوت بين الزمن والأبد ، ومثل التفاوت الذي ذكرناه بين طعم قطعة سكر ، وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ) .

(ص ٦٣)

وأن ناموس القيامة باختصار (هو تجلي الله بذاته) .

(ص ١٥١)

(وكل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال ، والتقريب والرمز) .

(ص ٦٦)

وأن ملائكة العرش الثمانية في آية الحاقة :

« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »

(لعلها قوى كهرمغنطيسية هائلة ، ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم في فضاء الكون ؟) .

(ص ١٢٩)

وأن العلامة الأخيرة من علامات الساعة هي يأجوج ومأجوج . يرجم المفسر العصري فيها بالغيب ، فيربط حواراً بين الماريشال مونتجومري وماوتسي تونج ، عن تكاثر الصين واحتمال غزوها للعالم ، برؤيا يوحنا اللاهوتي ، ثم يعقب تخميناً :

(ما هذه الأمة التي عددها كرمل البحر ، والتي سوف تحتشد لتحارب العالم عندما تتم السنة الألف ؟ ولعله يقصد الألف الثانية ميلادية ، وباقٍ عليها الآن أقل من ثلاثين سنة) .

(ص ١٤٥)

فيا من قرأتم آية يأجوج ومأجوج ، أو سمعتموها تتلى عليكم من الكهف ، هل فهمتم من قريب أو بعيد احتمالَ كونها من أشراط الساعة ، مع صريح نصها أنها من خبر قوم غابرين ، في قصة ذي القرنين ؟

ويا علماء الرياضيات والطبيعيات ، هل يعني رقمُ ثمانية عندكم ، قُوىً كهرمغنطيسية ؟

وهل تُعلِّمون طلاب التشريح في عصرنا ، أن قلب المؤمن كرسي الله، وعقل الإنسان عرش خالقه ، وجسمه اللوح المحفوظ الذي يكتب على الجينات الوراثية في خلية الجنين ، قدر المولود وحياته ، ليقتنعوا بأن القرآن صالح لهذا الزمان ؟

أما نحن أساتذة العربية والإسلام ، فلا نجرؤ على أن نلقّى الطلاب أبناء هذا الزمان ، بمثل ذلك التفسير العصري لغيبيات يفرض علينا إيماننا والعلم ألا نخوض فيها بغير علم ، حتى لا يكون مثلنا « كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ »

بين الدراسة القرآنية والتفسير العصري

لن يفرغ للناس عجب إذا كشفت لهم عن وجوه التدليس في التفسير العصري للقرآن ، وبينت لهم ما فيه من ضلال الاقتباس بجهالة ، وعثرات النقل الغافل عن سياق النصوص المقتبسة ، وقيودها ودلالاتها .

في الفصل الأول من كتابي هذا ، خلاصة كتاب لي نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٩ بعنوان : «مقال في الإنسان» دراسة قرآنية .

بعده ، في سنة ١٩٧٠ ، ظهر التفسير العصري مقالاتٍ في (صباح الخير) ثم فصولاً في كتابٍ مطبوع .

ولفتني من أول وهلة ، ما بين الكتابين من صلة مريبة ، على التفاوت البعيد بين دراسة قرآنية تخضع لأدق الضوابط المنهجية ، وبين تفسير عصري يهيم في كل واد .

وأستأذن القراء في أن أعرض هنا ما في هذا التفسير العصري على

دراستي القرآنية ، استكمالاً لوثائق هذه القضية الخطيرة .

* * *

وأبدأ المنهج :

في تفسير الألفاظ ، يردد الدكتور كلاماً مما قررناه من تعذرتفسير كلمة قرآنية بأخرى .

وهذا الأصل المنهجي الذي نلتزمه في الدراسات القرآنية ونازم بـه طلابنا في الجامعة ، لا ندري له موضعاً في تفسير عصري ، جرى صاحبه على أن يقحم على الآيات القرآنية تفسيراً لألفاظها في نص الآية ، فيأتي بها على هذا النحو ، مثلاً :

« إنا جعلنا الشياطين أولياء (أنصاراً) للذين لا يؤمنون» ص — ١٢٦

« ومن يعشُ (ومن ينصرف) عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين (مصاحب وملازم) » — ص ١٢٦

« قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري (عهدي) قالوا أقررنا» — ص ٦٠

« فلولا (فلو أنهم) إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (يائسون تماماً) »

« قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً (أجراً) على أن تجعل بيننا وبينهم سداً»

« آتوني زبر الحديد (كتل الحديد الكبيرة) حتّى إذا ساوى بيْنَ

الصَّدَفَيْنِ (جانبي الجبل) قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (نحاس مذاب) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً »

« إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (أي انشقت) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ

« وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (أي فجرت نارا)»

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا (لا تدفعكم الكراهية إلى تحامل) اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »

« وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ (ولا يشق عليه حِفْظُهُمَا)

وذلك الخلط بين كلام الله وكلام البشر لم يجرؤ عليه أحد فيما أعلم . ولا عهد لنا بمثله في أي كتاب إسلامي . وقد كان علماؤنا يتشددون في إنكار مثله في رواية الحديث ، حفظاً لمتنه من أن يختلط بكلام للراوي ، ولم يخطر لهم على بال ، أن ذلك مما يمكن أن يقع في آيات القرآن .

* * *

وفي التأويل :

وأرى المفسر يردد بين حين وآخر ، كلمات متناثرة من ضوابط منهجنا الملتزم بصريح النص وحكم السياق ، فتبدو غريبة على أسلوبه العصري وطريقة تناوله .

من ذلك مثلاً ، أنه يردد ما لفتنا إليه من خطر التفسير الباطني والعدول عن ظاهر النص ، وما أوجبنا من ضرورة الالتزام بدلالات

الألفاظ القرآنية كما يعطيها الاستقراء الكامل لكل مواضع ورود اللفظ في المصحف ، والاحتكام إلى توجيه صريح السياق .

فيقول مثلاً في إنكار تأويل البهائية : (... وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطني للقرآن ، وخطورة إغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات ، وكيف يمكن أن تؤدي أمثال هذه التفاسير إلى اقتلاع الدين من أساسه ... وهذا ينتهي بنا إلى موقف في التفسير لا بد من التزامه ، وهو الارتباط بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر).

(ص ١٢٢)

على حين يوغل بنا في التأويل ، إلى أبعد مما ذهبت إليه البهائية والباطنية : لقد أنكر على صاحب البهائية مثلاً أن يؤول غنم موسى بشعبه ؛ في الآية :« هِيَ عَصَايَ أتوكأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي » .

فهل يكون تأويل الغنم بالشعب ، أبعد شططاً من تأويل آية طه : « فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى » بما نصه في التفسير العصري (إن المقصود بالنعلين هما النفس والجسد ... والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح في عالم المادة)

(ص ١٠٤)

ويفسر بشرية الرسول عليه الصلاة والسلام في آية الفرقان : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ».

بما نسبه إلى الصوفية من تأويل هذه البشرية (بأنه السر الإلهي ستر به سر النبوة في ثوب بشري عادي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، حتى لا يبتذل السر بالاظهار والاستهار)

(ص ١٠٢)

وفسر آية الزمر :« إنك ميت وإنهم ميتون »

بما نصه :(أفق إلى نفسك فأنت غير موجود ! أنت ظل ، شأنك شأن الظل . موجود على الأرض ما دامت الشمس في كبد السماء ، فإذا غربت لم يعد لك وجود . واختفت معك كل الظلال التي كانت تتطاول بأعناقها إلى جوارك)

(ص ١٨٤)

ويقول في تفسير «كلمة التقوى» من آية الفتح :

(وهي كلمة النذير بأن كل شيء إلى فناء ، وبأن كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها أن تفك وتعاد إلى علبتها...)

(ص ١٨٦)

ويفسر (شفرة) فواتح السور بقوله :

(وهي علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد)

(ص ١٩٥)

ويفسر آية العنكبوت :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »

فيقول فيما يقول :

(ولهذا السبب نفسه ، لعدم القهر والجبر أخفى الله نفسه في الإنجيل ، وأخفى نفسه في القرآن (؟!) ، لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلي القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قهرا)

(ص ٣٧)

* * *

على أن ذلك كله ، ومثله معه ، لا يقاس بما جاءنا به التفسير العصري من عجيب التأويل لغيبيات عن حياة لنا سابقة قبل النزول في

الأرحام ، وعن شهود الجن والشياطين والملائكة ، وعن غيب الساعة والحياة الآخرة ...

وهي تأويلات نعرضها على ما يقابلها من دراستي القرآنية ، ونحتكم فيها إلى الكتاب المحكم ، لنرى مبلغ التزام المفسر العصري بما ردده من قاعدتنا المنهجية في (الوقوف عند حرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر).

وفي الموضوع :

كنت بحيث لا أشق على القراء بعرض مقارنة موضوعية بين عطاء هذه الدراسة القرآنية المنهجية ، وما يقابلها في التفسير العصري ، اكتفاء بأن أشير إلى مواضع المقارنة .

غير أن ما يأتي في دراستي مباحث مستقلة متميزة ، يتناثر في فصول الكتاب العصري مبعثراً مشتتاً :

فما كتبته عن الحرية والرق مثلاً ، جاء به الدكتور في فصل (لا كهنوت) .

والذي قدمته في «حرية العقيدة» جاء به موزعاً على ثلاثة فصول : (لا كهنوت ، رب واحد ، لا إله إلا الله)

وما قلته في مبحث « جدل في البعث » جاء بعضه في فصل (البعث) وبعضه في (إعجاز القرآن)...

وإذ لا سبيل لسواي ، مع هذا التشتت ، إلى أن يهتدي إلى مواضع الأخذ والمقارنة ، أجدني مضطرة إلى أن أستخلصها بنفسي ، بقدر ما يحتمله ضيق المجال المحدود لهذه المقارنة .

١ ــ الغيب :

حظر القرآنُ الخوض في الغيبيات بغير علم .

وحين أباح الأئمة من علماء السلف الاجتهاد في التفسير لأهل الفقه والدراية ، أخرجوا الغيبيات من نطاق الإباحة ونصوا على منع الاجتهاد في تأويلها ، وإنما حسبنا ــ كما بينتُ في الدراسة القرآنية ــ أن نتوقف فيها على ما جاءنا به الدين الذي نؤمن به .

وبينتُ معه أن العلم كذلك لا يجيز لنا الخوض في الغيبيات بغير علم ، فكل ما يقال فيها لا يعدو أن يكون حدْساً افتراضياً أو رجماً بالظن ، لا مجال فيه لنفي أو إثبات .

وتقرأ مثل هذا الكلام في التفسير العصري . عما في القرآن من (طلاسم من الغيب المحجب يحار فيها عقلنا ولا يملك لها نفياً ولا تأييداً)

(ص ١٢٥)

(والاجتهاد مباح في أمور الدنيا ، لكن القطع في أمر غيبي أكبر خطأ يتورط فيه قارىء القرآن ، فضلاً عن أنه ليس في مقدورنا) .

(ص ١٤٥)

(ولا نملك فيه إلا ذلك الخبر الذي أتانا به نبينا الكريم من لدن عالم الغيب) .

(ص ١٦٥)

وتراه مع ذلك التكرار لنص كلماتي في حظر الخوض في الغيبيات، والاقتصار فيها على ما أتانا به القرآن، يقتحم الغيب ويأتي بعجائب وغرائب من بدع التأويلات، توغل بنا من حياة كانت لنا قبل النزول في الأرحام، وتؤكد أن في هذه البشرية مَن كُشف له علم الغيب. وتقرر أن المفسر العصري (يكاد يضع يده عـلى الحقيقة) من غيب الساعة والآخرة.

* * *

وأبدأ بقصة الخلق، وخلاصة ما أعطته دراستي القرآنية:

« تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم، أبي البشرية.

« ولا مجال هنا لجدل حول نظرية التطور وخلق آدم، فآدم في النص القرآني هو الإنسان الأول الذي بدأ منه طور البشرية. والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد ﴿ خَلَقَكُمْ أطواراً ﴾ ويلفت إلى مرحلة زمنية، لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾

« كما لا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو طين: فحسب الإنسان منا، لكي يؤمن بالقدرة الخالقة، أن يلتفت إلى الأرض: ندفن جثث موتانا في ترابها، فتتحلل عناصرها ذائبة في التراب الذي يتغذى الأحياء من نباته ومعادنه وسائر عناصره... ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات، ليدرك أننا خلقنا من تراب، وإلى التراب نعود، على المشهود المنظور والواقع الحسي المدرَك ».

وفي التفسير العصري :

(فإذا قال الله : خلقناكم ثم صورناكم ... ثم اكتملت الصورة بتخليق آدم فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... فمعنى هذا أن آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا ، وأياماً بزمن الله الأبدي . «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً» ، ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها : «هَلْ أَتى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» إشارة إلى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الإنسان يساوي فيها شيئاً يذكر) .

(ص ٥٢)

لكن هذه الخلاصة ، التي لا تبعد كثيراً عما قلتُ آنفاً ، تتوه في حشد من التأويلات لغيب مجهول ، كنا نعيش فيه قبل الآدمية ، وتفصل الحديث عن خروج آدم من طين المستنقعات ، ردة وانتكاساً وعقاباً على خطيئة !

وقصة الخلق عنده ، تبدأ بصفحات عن نظرية «داروين» في أصل الأنواع ختمها المفسر العالم باكتشاف (الخطأ الذي وقع فيه داروين في نظريته عن النشوء والارتقاء ..... لمجرد أنه لا يرى يد الصانع الخالق المهندس وهي تهندس وتخلق) .

(ص ٤٧)

ثم قدم لنا ، تأويله العلمي لقصة الخلق التي غابت عن داروين ، وغابت عن عصر النبوة ، وفهم النبي الأمي ، عليه الصلاة والسلام قال : (إن القرآن يزودنا بما هو أكثر من كل ما قاله العلم . فيطلعنا على

بعض الغيب . على ما حدث في الملكوت في الملأ الأعلى قبل الخلق الأرضي لآدم ، فيروي لنا مرحلة سابقة لهذا الخلق : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

(إن ما حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية في الأرض ، كان ردة وكان انتكاساً وعقاباً لخطيئة سوف نفهم تفاصيلها)...

(ص ٥٥)

(وكان العقاب هو الطرد والإهباط من تلك الجنة إلى الأرض . والنزول إلى « أسفل سافلين » ، وهي هاوية التيه المادي ، إلى طين المستنقعات . هذه المرة إلى مجرد جرثومة في طين الأرض ، إلى نقطة بدء أولى ، من الصفر . وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادي في انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا ، وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا ، صعداً إلى الإسفنج والرخويات والقشريات ... إلخ إلخ ، في رحلة قاسية وعبر صراعات دامية ...

(وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه في رحلته الدامية وأخذ بيده خارجاً من رحم الأرض ومن طين المستنقعات حتى وقف منتصباً على قدميه محاكياً آدم الأول) .

(ص ٥٧)

هذا هو التصحيح العصري لنظرية «دارون» يردنا باسم القرآن إلى الأميبا والرخويات والقشريات ... تفسيراً لأسفل سافلين ، ثم يقرر بعدها في تأويل آية الانشقاق : « يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ » :

(هناك إذن مرحلتان من خلق آدم ، آدم المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم ليكون إلى جواره في الملكوت ، وآدم الأرضي الذي انبثق من ظلام المادة ومن رحم الأرض ومن أسفل سافلين ، حيث ألقى به مبعداً مطروحاً . وكان على آدم الأرضي أن يكافح ليحقق لنفسه التكامل الأول وأن يعود إلى أحسن تقويم .

(إن كلاً منا نحن ذرية آدم قد عاش هاتين المرحلتين) .

(ص ٥٩)

(وهي آيات كواشف ، تشير إلى مرحلة روحية عشناها في الملكوت قبل النزول في الأرحام ، وإلى أنه كان لنا ثمة وجود قبل الميلاد (!) شأننا في ذلك شأن آدم الذي بدأ حياته في أحسن تقويم ثم أنزل إلى أسفل سافلين) .

(ص ٦٠)

* * *

وأعترف مع المفسر العصري البيولوجي ، بأن هذا كله (مما لم يزودنا به أي علم) فهل هو مما قاله القرآن ؟

وهل هذا من (الالتزام بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهرة ، والتحرج من القول في الغيب بغير ما جاءنا به القرآن) ؟

إنه على أي حال ، ليس بأعجب من التأويل البيولوجي للشجرة المحرمة ، كما جاءت في قصة الخلق من الفهم العصري للقرآن :

(فإذا عدنا إلى الشجرة لنسأل ما هي ؟ أهي رمز أم حقيقة ، وجدنا أمامنا اختلافاً كبيراً ... وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا حينما أخذت الكائنات الحية بطريقة التلاقح

الجنسي لتتكاثر فكتبت على نفسها طارىء الموت .

(كان التلاقح الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة فهوت من الخلود إلى العدم ؛ وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين في الجنة . وفي مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح الجنسي ، فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لاستمرار الحياة ...

(ويقال إن شريعة الطهارة وقطع القلفة الزائدة من العضو التناسلي ، كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخصاء ، تقززاً مما فعل ، ثم أصبحت تقليداً دينياً من يومها . ولا مانع من أن تكون الشجرة هي شجرة تؤكل بالفعل فتؤدي إلى إطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ، ومن ثم تلقي بآدم إلى المخالطة الجنسية ، وتكون الآية صادقة حرفياً ومجازياً) .

(ص ٦٣)

الغريب حقاً ، أن المفسر العصري ختم هذه التأويلات القطعية لقصة الخلق وبيولوجيا الشجرة وكفارة الخصاء بقوله :

(ولا يمكننا القطع في هذه المسائل ، ويجب أن نقول إن الشجرة مازالت لغزاً ، وإن قصة الخلق مازالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد) .

(ص ٦٣)

وفي تأويل الجن والشياطين والملائكة :

لا موضع لمقارنة بين عطاء دراستي القرآنية ، وبين جديد التأويل العصري . فهما مختلفان تماماً . على أن المقارنة تجدي على بيان جوهر الفرق بين عقليتنا ومنطقنا نحن تلاميذ المدرسة القرآنية ، وبين عقلية صحفي علمي ومنطقه العصري في فهم القرآن وتأويله .

في دراستي القرآنية ، لم أزد على قولي في الجن :

« لفظ الإنس يأتي دائماً مع الجن على وجه التقابل »

وملحظ الإنسية هنا ، بما تعني من عدم التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلتها بالجن ، في دلالتها أصلاً على الخفاء الذي هو قرين التوحش .

« وبهذه الإنسية يتميز جنسنا عن أجناس أخرى خفية مجهولة لا تنتمي إلينا ولا تحيا حياتنا . وليس من الضروري أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التي لا تظهر لنا إلا في تهاويل الظلمة وتصورات الوهم ، وإنما يتسع اللفظ — بدلالته الأصيلة على الخفاء ، ومقابلته للإنس — لأي جنس غير بشري يعيش في عوالم غير منظورة ولا مدركة ، وراء حدود عالمنا الذي نعيش فيه ، ولا يخضع للسنن المعروفة التي توجه حياتنا وتحكمها .

« وبهذا المدلول الرحب ، تنتفي شبهة الخرافة التي تدفع كثيراً منا إلى رفض الاعتقاد في وجود الجن ، إذا قدرنا أن الكشوف العلمية الحديثة لا تنفي احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش في عوالم خفية كالكواكب ، لا نزال نجهلها وإن لم نكف عن السعي إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها » .

* * *

أما الملائكة ، فقصارى ما قلته فيها ، يجده القارىء في مبحث : خليفة في الأرض .

وقد نجد منه في التأويل العصري ملتقطات مبعثرة بين (مخير أو مسير) و (قصة الخلق) عن تسخير الملائكة ، وتمرد إبليس وأمانة الإنسان ومهالك الغرور وابتلاء الآدمية بالخير والشر .

لكنك تجد معه الجديد المبتدع ، من مثل هذه التأويلات الغيبية التي لم تجُزْ على عقليتنا :

والحقيقة أن الإيمان بالجن والملائكة ، قلباً ، هو دليل كاشف على نوع من التذكر الغامض لعالم القدس والملكوت ، وأنه إيمان دال على شيء وليس مجرد تسليم خاو . ثم يروي لنا الله في القرآن أن الإنسان لا يُترك لقرين الشر من الجن ، وإنما له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه بالخير ، ويظهر هذا القرين الملائكي ليشهد يوم القيامة ويخبر عن صاحبه :

« وَقَالَ قَرِينُهُ هذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ »

* * *

فليتدبر القارىء سياق الآية التي استشهد بها للقرين الملائكي :

« لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ »

هل في هذا السياق ، شهادة من قرين ملائكي لصاحبه الذي لازمه وألهمه الخير ؟

* * *

ويتابع المفسر العصري اجتهاده في تأويل الغيب : (ثم هناك ملائكة للعرش « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »

(كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله ؟ أم هي ثمانية صفوف كل صف فيه ما لا نهاية من الملائكة ؟ أم هي ثمانية قوانين فيزيقية وميتافيزيقية ؟ ثم ما هو العرش ؟ أم هو رمز ؟ وما هو الكرسي ؟ إنه يوصف في آية الكرسي بأنه وسع السماوات والأرض ، فما بال العرش بأسره ؟ وكيف تحمله مخلوقات ؟ أم هي مخلوقات غير ما نعرف على الإطلاق ولعلها قوى كهرمغنطيسية هائلة ؟ ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم في فضاء الكون) .

(ص ١٢٨)

على أنه ما لبث أن كُشف له الحجاب عن ذلك الغيب كله ، فنشر في فتاويه بالمجلة ردّاً على بريد القراء ، أن العرش الإلهي هو قلب المؤمن ، وأن الكرسي هو العقل ، أما اللوح المحفوظ فهو جسد

الإنسان يكتب فيه الله أو ملائكته أقدارنا على الجينات الوراثية ! ويقدم معه تأويلاً لقوله تعالى :

« يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله مثلنا يكتب ويشطب ويراجع النفس . وهو غير صحيح ، والتفسير الأصح أن الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل إلى اللامعقول إلى محو القدر المقدور)

(ص ١٣٧)

* * *

ويقول في إعجاز القرآن :

(وهو معجزة لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ، ويتنبأ بمستقبل لم يأت ولم تقم عليه الشواهد ، ويدلك على علوم لم تعلم بعد ، وعن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف) (ص ٢٠٦ .)

فنفهم أن الدكتور عدل عما قرره من استئثار الله تعالى بعالم الغيب ، فلا مجال للاجتهاد فيه . ولعله كذلك وضع نفسه في هذه القلة من الصفوة التي كشف لها ما كشف من غيب مطلسم محجب ، إذ يقول في الرد على تأويلات صاحب البهائية :

(وإذا كانت حجته في هذه المزاعم هي أنه لم ير الملائكة ولا الجن ولا الشياطين ، فلماذا يلزم بها البشرية ، وفي هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً ؟ هل الأعمى هو الذي يلزم المبصر ؟ أم أن حجة المبصر الواحد تقوم فتلزم ملايين العميان الذين لا يرون الشمس إذا رآها مبصر واحد ؟

(إنها اختلاقات النبي الذي أراد أن يدخل منتدى الأنبياء بلا مؤهلات ، ويتسلل إلى مائدة الخالدين دون أن يمتحن ، فأنكر المعجزة والغيب حتى لا يطالبه أحد بأوراق اعتماده في السفارة الإلهية التي ادعاها) .

(ص ١٢٢)

* * *

ولا أسأله هنا :

هل تكون رؤية الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب ، أوراق اعتماد في السفارة الإلهية ، لمن رآها من هذه البشرية شهوداً ؟

بل أطيل التأمل في قوله :

(ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض في أية صورة ، ويحمل الوحي إلى أي نبي في أي عصر وبأية لغة) !؟

(ص ١٣٠)

ثم لا أملك إلا أن أتلو الآية المحكمة :

« مَا كَانَ مُحَمدٌ أبَا أحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »

وأستغفر الله لي وله ...

* * *

وماذا عن غيب الآخرة ؟

الساعة التي لا يعلمها إلا الله ، والتي أكد القرآن أنها تأتي بغتة ، أدخلها المفسر العصري في مجال اجتهاده ، فجاءنا من غيب أنبائها ، ما استأثر بفصل كامل من كتابه .

وعلى عادته يبدأ بتقرير الأصل فيقول :(الساعة ذروة الغيب وعلمها محجوب عن الكل ، اختص الله به نفسه دون العالمين).

ثم لا يلبث أن يمضي على غلوائه ، فيضع رؤيا يوحنا اللاهوتي أمامه ، ثم يتجاوز أقصى المدى في الاجتهاد ، فيحدد موعداً محتملاً لقيام الساعة ، بيننا وبينه ثلاثون عاماً !

(ثم تأتي العلامة الأخيرة — من علامات الساعة — وهي يأجوج ومأجوج . وهي قصة غامضة كلها رموز . البعض «؟» يقول إن يأجوج ومأجوج هم نسل يافث بن نوح ، وإنهم هم الجنس الأصفر ، الصين وما في دربها ، عاشوا في آجالٍ وأحقاب من الجهالة ، والشعوب المتقدمة من حولهم تبني أسواراً من العلم والتصنيع .

(وذو القرنين وصهر الحديد والنحاس ، كلها رموز للعلم والصناعة التي كانت دائماً تحجزهم وراء حاجز الجهل والتخلف وتقيم حولهم سداً . حتى إذا جاء اليوم الموعود ونفضوا عن أنفسهم هذا التخلف وأخذوا بأسباب الصناعة وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينية وتكاثروا إلى آلاف الملايين وهدموا السد ولم يكن ذلك السد إلا رمز الجهل الذي يعزلهم عن العالم ساحوا في الأرض ونزلوا من كل حدب ينسلون وكانت الحرب التي تضع ختام الحياة .

(ومع هذا ، فإنا لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتي عن يأجوج ومأجوج ؛ فإنا نراه يقول نفس المعاني ويشير نفس الإشارات :« متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض ... يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر ») .

هنا ينتبه المفسر العصري إلى أن « الألف سنة » — وأقرب احتمال

عنده أنه بعد ميلاد المسيح عليه السلام — قد مضى منذ تسعمائة سنة وسبعين ، فلا يجد مانعاً من الاجتهاد في تأويله :

(ما هذه الأمة التي عددها كرمل البحر ، والتي سوف تحتشد لتحارب العالم عندما تتم السنة الألف ؟ ولعله يقصد الألف الثانية ميلادية ، وباق عليها الآن أقل من ثلاثين سنة . وهي أمور تثير الخيال ، وهي نبوءات تتداعى الواحدة لتؤيد الأخرى ، ولا نملك إلا الصمت ، فمثل هذه التأويلات لا يحق لنا أن نؤولها والوحي يقول لنا عن القرآن : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ ») .

مرة أخرى يخونه سياق الآية ، في المتشابه من آيات القرآن ، لا في القرآن كله .

ومرة أخرى يردد القاعدة الأصولية في حظر الخوض في الغيبيات ، ومنع الاجتهاد في تأويلها بعد كل ما أوغل فيه من تأويل لغيب الساعة ، ورؤية الجن والشياطين والملائكة شهوداً .

ثم يستطرد فيضيف علامة لقيام الساعة ، بعد الأخيرة التي حددها بيأجوج ومأجوج — فينقل إلينا من سفر الرؤيا ، تفسيراً لآيات الانفطار والتكوير ، صورة مشابهة للقيامة ، في رؤيا يوحنا اللاهوتي .

وكانت نهاية المطاف عنده ، فيما كشف له من غيب الآخرة :

(حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس للنفس . تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا ! ! ... ولكن هذه المعاني تضيع في النظرة المتعجلة والقراءة السطحية والوقوف عند الحروف ، وعند جلجلة الألفاظ ! أكاد أجزم بأن ألفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصلة حينما تصف الجحيم ، إنما هي نذير حقيقي بعذاب نعذبه لأنفسنا بأنفسنا عدلاً

وصدقاً على رتبة استحقها كل منا بعمله . وأكاد أضع يدي على الحقيقة لا ريب فيها) . (ص ٨٤)

* * *

هكذا كاد يضع يده على الحقيقة في غيب الآخرة . وذلك غير مستبعد مِمّن يرشدك من الإنجيل ، إلى الوسيلة التي تكشف لك ما كشف له من علم الغيب ، فيقول :

(ووعد الإنجيل :« اطلبوا تجدوا . دقوا على الباب يفتح لكم » على أن يكون دق الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال وخلوص النية . وليس مجرد شقشقة لسان بدعاء تقليدي . وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبابه وأوليائه فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً ، وتسمع ما لا أذن سمعت) . (ص ١١٩)

* * *

٢ ــ حرية الانسان :

وأدع الغيبيات ، من قصة الخلق ، ومن الجن والملائكة ، إلى علم الساعة والآخرة ، لأتابع المقارنة الموضوعية بين دراستي القرآنية والتأويل العصري ، فأشير بوجه خاص إلى مباحث حرية الإنسان ، التي هي قضية الإنسان الكبرى في هذا العصر وكل عصر .

* * *

والمبحث الأول من مباحث هذه القضية في دراستي ، خاص بالحرية والرق ، وخلاصة ما هدى استقراء كل آيات القرآن فيه ، هو :« أن كتاب الإسلام لم يكتف في مواجهة مأساة الرق بتقرير المساواة بين الناس جميعاً وتحريم العبودية لغير الله وحده ، وهذا هو جوهر الدين كله .

وإنما عمد إلى إغلاق المنفذ الجديد من الاسترقاق من ناحية ، وإلى تصفية الرق القائم عصرَ المبعث من ناحية أخرى :

« فأما إغلاقه المنفذ للرق ، فالمعروف أن أسرى الحرب والقتال كانوا المورد الأول للرقيق . وتشهد آية محمد :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا »

تشهد أن كتاب الإسلام لا يجيز استرقاق أسرى الحرب ، وإنما

يخيّر المسلمين المنتصرين بين أمرين لا ثالث لهما : المن على الأسرى بإطلاقهم ، أو قبول الفدية فيهم . وإذ لم يقل الثالثة : وإما أسراً واسترقاقاً ، فقد سد المنفذ الأكبر للرق وأعفى الإنسانية من مورد له جديد متصل . وفي تصفية الرق القائم ، بدأ القرآن في العهد المكي المبكر فحضّ الإنسان على اقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنساني الحر ، وبيّن تعالى سبيل اقتحامها ، فكان « فَكّ رقبة » أول ما بدأ به ، دون تقييد هذا الفك بكفارة من ذنب : « فلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ • فَكُّ رَقَبَةٍ ...

« ثم في العهد المدني الذي اتجهت فيه عناية القرآن إلى التشريع ، أخذ وضع الرق من هذه العناية ما يؤكد حرص الإسلام على تصفية الرق القائم . وفرض الإسلام على المؤمن تحرير رقبة ، كفارةً لعدد من الذنوب منصوص عليها في القرآن :

الحلف في الأيمان	:	المائدة ٨٩
القتل الخطأ	:	النساء ٩٢
الظهار	:	المجادلة ٣

كما شرع المكاتبة منفذاً آخر لتصفية الرق : النور ٣٣

وإذا كان الاسترقاق قد بقي في المجتمع الإسلامي على عهد الرسول فلست أشك بما أعي من سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وخلفائه الراشدين ، أن الرق كان في طريقه إلى التصفية لولا ما طرأ على الأمة الإسلامية ابتداءً من العصر الأموي من ظروف وأوضاع ضيّعت على الإنسانية ما أتاحه لها كتاب الإسلام لتخليصها من محنة الرق ».

* * *

المبحث كله جملة وتفصيلاً منقول إلى التفسير العصري ، وإن عدل به التدليس عن موضعه من قضية الحرية ، إلى فصل (لاكهنوت) !

وقد حاول أن يستغني — فيما نقل من كتابي — عن بعض ألفاظ ، وأن يعيد صياغة بعض الجمل بأسلوبه العصري ، فخانه الالتفات إلى دلالة السياق وأفسد المعنى . كمثل قوله :

(والحل الأمثل هو الذي نزلت به الآيات بألا يكون هناك مزيد من الاسترقاق . وكان مصدر الرقيق هم أسرى الحروب وكانت وصية (؟!) القرآن تسريح الأسرى أو طلب الفدية فيهم : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً » بلا استرقاق . أما الموجود من الأرقاء فيتم تصفيتهم بالتدريج إذ جعل القرآن فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها (؟!) وجعلها وسيلة تطهير للنفس واقتحام لها « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ » . بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق وعمل على تصفية الموجود منه . وإذا كان ما حدث في الدولة الأموية هو العكس فليس الذنب ذنب القرآن ، وإنما ذنب النظام الذي تفسخ ، وقصور الخلفاء التي تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة الفارسية) .
(ص ١٧٥)

وأترك للقراء أن يردوا هذا الكلام إلى مصدره . وألفتهم إلى مواضع التعثر والتدليس فيما حذف أو غيّر :

جعل تشريع المنّ والفداء وصيةً ، وهو في الآية أمر صريح !

وتورط فأفتى بأن (القرآن جعل فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها) هكذا على الإطلاق ، وذلك ما لم يقله القرآن ، ولا قال به مسلم يعلم أن الكبائر لا يكفر عنها فك رقبة . والذي في دراستي :

« كفارة لعدد من الذنوب منصوص عليها في كتاب الإسلام »

ونقلَ الفقرةَ الأخيرة من المبحث ، فاستغنى عن الإشارة فيها إلى عهد المصطفى وخلفائه الراشدين ، ولا غنى عنها . وتوسع في إشارتي إلى العصر الأموي ، فذكر (قصور الخلفاء الأمويين التي تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة الفارسية) والذي يعرفه من له أدنى إلمام بتاريخ الإسلام ، أن قصور الأمويين كانت في شغل شاغل بفتوح إفريقية وغزو الروم ، وبالقتال في جبهات : الشيعة والزبيرية والخوارج ، وأن غزو المدنية الفارسية لم يبدأ إلا مع الدولة العباسية التي قامت بسيوف الخراسانيين فمكنت لهم من مراكز السلطة فيها والنفوذ ، وفتحت الأبواب لغزو المدنية الفارسية الذي ظل الأمويون يصدونه تعصباً للعربية ، فكان اضطهادهم للموالي ، من الفرس بخاصة ، من أقوى الأسباب التي قضت على الدولة الأموية .

* * *

وفي حرية العقيدة :

قدمت الاستقراء الكامل لما في القرآن من آيات تحظر الإكراه في الدين وتقصر مهمة الرسول على البلاغ ثم نظرت في موقف الإسلام من رسالات الدين قبله ، فنراه لا يكتفي بالاعتراف لمعتنقيها بحرية التدين ، بل يلزم المسلمين كذلك أن يقروا بنبوة كل الرسل ، ديناً وعقيدة ، لا لمجرد التسامح أو المسالمة ، كما يلزمهم أن يؤمنوا بأن الإسلام مصدق لما بين يديه من رسالات الله .

ومع اعتراف الإسلام بكل الرسالات التي سبقته ، وتقريره أنه مصدق لها ، وتأكيده لمبدأ حرية التدين ..

فإنه في رياضته للبشرية على تحقيق وجودها الأسمى ، استشرف بها إلى الوحدة الجامعة التي تلتقي فيها الإنسانية المتدينة على الإيمان بالله ، لا تفرق بين أحدٍ من رسله ..

من أسفٍ أن عطاء هذه الدراسة المنهجية لحرية العقيدة ، قد تبدد في التأويل العصري ، فجاء شطرها الخاص بموقف الإسلام من رسالات الدين قبله ، في فصل (رب واحد ودين واحد)

وجاء الشطر الخاص بإبطال الكهنوتية في : (لا كهنوت) وهما في الدراسة متلازمان متكاملان ..

* * *

أما مبحث حرية الإرادة :

فيشق عليَّ أقسى المشقة ، أن ألمح أي وجه للمقارنة بين دراستي المنهجية لأعقد المشكلات التي واجهت مفكري الإسلام ، وبين ما يلقانا في (مخير أو مسير) بالتأويل العصري . من اضطراب التناول وخفة الأسلوب وطيش الأحكام .

وما ظنك بمن يتصدى لعقدة العقد في الفكر الإنساني ، بمثل قوله : (ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة ، فإنه يكتفي بالومض والرمز والإشارة واللمحة ... فهي تلمح ولا تصرح حتى لا تلقي الناس في بلبلة . ولهذا السبب ــ لعدم القهر والجبر ــ أخفى الله نفسه في الإنجيل وأخفى نفسه في القرآن ، لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلي القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قسراً . وضمّن آياته البراهين ، ولكنه لم يجعلها أبداً (!) ببراهين ملزمة تأخذ بالخناق وتقهر العقل) ؟ !

يفتح الله ...

لا وجه لمقارنة مثل هذا الكلام ، بعطاء دراسةٍ استوعبتْ أقوال الفرق الإسلامية في مشكلة الجبر والاختيار ، وعرضتْها على القرآن في استقراء كامل لآيات الإرادة فيه ، هدى إلى الفرق الجوهري بين مفهوم إرادتنا الكسبية الحرة ، ومفهوم الإرادة الإلهية التي هي حكم نافذ وقضاء مبرم ، يحكم علينا بما أردنا لأنفسنا ، تقريراً حاسماً للتبعة وتأكيداً لحرية إرادتنا وإلزاماً عادلاً بمسئوليتها ، وترسيخاً لثبات السنن الإلهية التي لا تتعلق إرادته تعالى بنقضها !

٣ ـ الوجود ... والعدم :

يجد القارىء عطاء دراستي القرآنية ، في هذا المبحث من قصة الإنسان ، ومعه مبحث « جدل في البعث »

فهل يتصور أنه نُقِل كاملاً بكل شواهده ، إلى فصلين من التفسير العصري : أحدهما بعنوان (البعث) والآخر بعنوان (إعجاز القرآن)؟

مع عثرات الأخذ المختلس ، والتدليس المموه ، والبتر المشوه ...

حسبي أن أدع للقارىء أن يقابل على ما في دراستي القرآنية بجدل في البعث ، ما أخذه المفسر العصري على هذا النحو :

(فإذا لجأ القرآن إلى الجدل ، فهو يجادل في بساطة ويقيم الحجة في احكام . يقول عن الكافر (؟) الذي لا يصدق أنه يُبعث :« وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »

« أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » .

(وليبرهن على وجود الخالق لا يلجأ إلى صفحات من الحذلقة الفلسفية ، وإنما هو مجرد سؤال يوقع به الكفار في إشكال :« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » ؟ فإذا أراد أن يفحم ويلجم ألقى بمثل آخر .

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .. وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا (؟!) فمن يستطيع أن يخلق ذبابة على هوانها وتفاهتها . وإذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله إليك فمن يستطيع أن يرد لك تلك الحياة . بل إنها لو سلبتك ذرة من النشا من طعامك فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها لأنها تتحول فوراً إلى سكر بفعل الخمائر الهاضمة . فما أضعف الطالب والمطلوب . ما أضعف عبقري الكيمياء وما أهون الذبابة وما أتفه ذرة من النشا . بهذه البساطة المعجزة الملغزة ، يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان) . (ص٢٠١)

* * *

وهنا أيضاً خانه الحرص فيما حاول أن يغير من عبارتي ، فتورط في عثرات من التدليس :

نقل هذا الكلام من مكانه في (جدل في البعث) من مبحث الوجود والعدم ، إلى فصل إعجاز القرآن !...

وجعل آية يس : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ » قولاً عن الكافر ، والآية في سياق الحديث عن الإنسان بعامة .

واستبدل بعبارتي في المثل القرآني « ما يزال بعد أربعة عشر قرناً منذ ضُرب للناس ، يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء» عبارته : (وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا)

ولا أدري أن العلم والتكنولوجيا ، تطورا منذ ألف عام ، أي في القرن التاسع الميلادي ، من صميم العصور الوسطى !

وما قلته في منطق البيان القرآني لدفع الشك في البعث ، يثبته « النظر الحر والبصيرة المميزة والتأمل الواعي ، دون أن يحتاج فيه الإنسان إلى ظروف خاصة أو وسيلة خارجية إن أتيحت لعدد من الناس في بيئة معينة أو عصر خاص ؛ فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية »

أعاد صياغته وأضاف إليه ما لم أقله من صفة الإلغاز : (بهذه البساطة المعجزة الملغزة يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان).

وجاز عنده أن توصف البساطة بالإلغاز ، وأن يكون الإلغاز سبيل توصيل أعقد القضايا إلى أبسط الأذهان !

* * *

وعليَّ أن أكتفي الآن بما قدمت من مقارنة كاشفة لعثرات التدليس بجهالة ، وأخطاء النقل الغافل عن المغزى والسياق .

فلأختم هذا العرض بنكتة لطيفة :

في دراساتي القرآنية ، يبهرني البيان المعجز وتأسرني ضوابط المنهج ، فقلما أتعلق بإيراد شعر .

غير أن «مرثية أبي العلاء» الدالية ، خطرت على بالي وأنا أدرس قضية الإنسان فجئت بأبيات منها في مبحث (العَرَض والجوهر) ، على ندرة ما أفعل .

ولم أعجب حين جاءت الأبيات نفسها في التفسير العصري الذي لا مجال فيه لشعر ، منقولة إلى أول فصل (لا إله إلا الله)!

مع تعثرٍ في نقلها أخلَّ بنسقها الشعري ، ومع خطأ نحوي أفسد المعنى ! والله على كل شيء شهيد ...

اللهـــمَّ فاشْهـــد

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عندِ غيرِ الله لَوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ».

* * *

أخذ بعض الناس بألفاظ خلابة من التفسير العصري ، ترضي وجدانهم الديني . ويسأل سائلون منهم : ماذا علينا لو قبلنا منه مايرضي عقيدتنا . وتجاوزنا عما يخالطه من بدع التأويل وشحنة الإسرائيليات ؟

من واجبي أن أستخلص لهم من دراستي للقضية ، ما أقدر حاجتهم إليه ليتدبروا ما يقدم إليهم باسم القرآن ومنطق العلم وروح العصر :

ليس لي أن أجادل فيما جاء في التفسير العصري من أن (النبي الأمي لم يكن يعرف لا هو ولا قومه ولا عصره ، معنى كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثربولوجيا) (ص ٤٨)

ولا أخوض كذلك ، وما ينبغي لي ، فيما غاب عن المبعوث بالقرآن ، من محدث التأويل لما جاء في (ذلك القرآن المذهل الذي أتى

به رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة ، بدوي راعي غنم في بيئة بدوية من أجلاف البدو) .

وأقر وأعترف ، بأن النبي الأمي ، عليه الصلاة والسلام ، لم تُروَ عنه كلمة من مثل ما في التفسير العصري من رحلة آدم في طين المستنقعات ، وتطوره من جرثومة إلى أميبا فرخويات وقشريات ....

ولا ذكر في «سبع سموات» ألوان الطيف ودرجات السلم الموسيقي ، فضلاً عن أن يكون فهم حملة العرش يوم القيامة ، بالقوى الكهرمغنطيسية ، أو خطر له على بال وهو يتلو آية آل عمران : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرها » قوانينُ الضغط الأزموزي السطحي وتماسك العمود المائي والتوازن الكهربائي والأيوني بين المحاليل ...الخ

ذلك كله وأمثاله معه ، بعيد عن النبي الأمي وبيئته البدوية ..

فلنتركه للطبيعيين والرياضيين ليروا ما إذا كان شيء من هذا كله ، مما يصح في عقولهم ويجوز في منطق علمهم ؟

* * *

لكن ، ماذا عن أسرار البيان القرآني ؟

أيكون المصطفى والعرب الفصحاء الأصلاء في عصره ، لم يدركوا منه ما يدركه صحفي محدث ؟

وهل يصح في العقول ، أن يفهم مفسر عصري ، ما لم يفهمه النبي القرشي والعرب الفصحاء من لغة هذا القرآن وبيانه ، ومن ثم يتصدى للفتيا في أحكام الشرع بغير ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعرفه الصحابة وأئمة الفقه الإسلامي وعلماء الحديث ؟

— يقول تعالى لنبيه المصطفى :

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون »

« وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

وفي التأويل العصري : (أنه — سبحانه — سوف يشرحه ويبينه في مستقبل الأعصر والدهور) .

(ص ٤٩)

(ثم إن الوحي يلقي عليه فواتح السور ما هو أشبه بالشفرة والألغاز مما لم يقل لنا النبي إنه يعلم له تفسيرا . وإنما هي بعض التحديات التي تحدانا بها القرآن ووعدنا بأن يأتي تأويلها في آخر الأيام) .

(ص ١٩٦)

ويقول تعالى : « كتاب فصلت آياتُه قرآناً عربيّاً لقوم يعلمون »

ويؤكد التأويل العصري عشر مرات ، أن القرآن يتحدث بالشفرة والرمز ، والألغاز المطلسمة (ص ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٨٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٦٥ ، ٢٠٢) .

ونتلو من الآيات المحكمات ، خطاباً للمصطفى :

« قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مسّنِي السوءُ ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »..

ونقرأ في التأويل العصري أن القرآن يخبر (عن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف)

ويتبرع الدكتور المفسر فيقدم لك وصفة للحظوة : (وحينئذ يتفضل

عليك الله كما يتفضل على أحبابه وأوليائه ، فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً وتسمع ما لا أذن سمعت) .

(ص ١٣٩)

* * *

أقول الحق : لقد تحيرت مع هذا التأويل العصري ، فحيث يقول مرات : إن القرآن ليس كتاب علم (ص٢٦) ولا كتاب فلسفة ولا سياسة : (ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٣٨ ، ١٦٧) .

يؤكد في مواضع أخرى :

(إن التوحيد نشأت منه كل أعداد المعارف والعلوم)

(ص ١٩٣)

(وهو – القرآن – يدلك على علوم لم تعلم بعد ... ويقدم إليك حكمة الأزل ودستور الحياة وفلسفة في الأخلاق والحكم واللاهوت وما وراء الطبيعة . وفي المعاملات والحرب والسلم و ...) .

(ص ٢٠٦)

(وفواتح السور علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد) .

(ص ١٩٥)

(وتتسابق العلوم فلا تكاد تلحق بأذيال القرآن) .

وحيث يقول إن الاجتهاد في أمور الدنيا مباح ، لكنه في أمر غيبي (أكبر خطأ يتورط فيه قارىء القرآن ، فضلاً عن أنه ليس في مقدورنا)

(ص ١٤٥)

يؤكد غير مرة ، أن في هذه البشرية من عَلِمَ الغيب شهوداً ،

ويلقانا بتأويلات موغلة بنا في مجاهل من حياة كانت لنا قبل النزول في الأرحام ، إلى غيب الساعة واليوم الآخر .

وحيث يشهد أن نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين .

يقول في موضع آخر : (إن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض في أية صورة ويحمل الوحي إلى أي نبي . في أي عصر بأية لغة) .

* * *

ألا ليت الدكتور أخفى ما كشف له من أسرار غيبية وفتوح ربانية ، وسلك مسلك الصوفية الذين قال فيهم :

(ويُخفي الواحدُ منهم كراماته كما يُخفي عورتَه ، لأنها السِرُّ الذي بينه وبين ربه وعلامة المحبة والخصوصية والقرب . وما بين المحب والمحبوب لا يصح إفشاؤه وابتذاله . وقانونهم : الذي يتكلم لا يعرف ، والذي يَعرِف لا يتكلم .. وما أندر هؤلاء الربانيين في هذا الزمان !) .

* * *

وأرانا بعدُ ، في حاجة إلى تحرير مفهوم الإيمان ومنطق العلم ، لكيلا يلتبس علينا فيهما حقٌ بباطلٍ ....

(٣)

الإيمان والعلم

- الإيمان ، بين الوعي والتخدير
- العلم ، بين الأصالة والادعاء
- «لا أدري» و « الله أعلم »

الإيمان
بين الوعي والتخدير

« فأمّا الزبدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما
ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض ،
كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ »

(سورة الرعد)

الرائد لا يكذب أهله ،

بالإيمان والعلم نواجه هذه الجولة الحاسمة لمعركتنا مع أعداء البشر ، وطاغوت هذا الزمان .

وبالإيمان والعلم ، نواجه كذلك تحديات عصرنا ، ونناضل في صراع الوجود ومعترك المذاهب والقيم ..

ولن يصح لنا إيمان ولا علم ، ما لم نتدبر منطقهما ونتمثل آفاقهما ، ونستبين على الحقيقة مناط قوتنا بهما وجدواهما علينا .

لكيلا تختل المقاييس والموازين ،

وتضطرب الرؤية ، ويضيع منا الطريق .

* * *

الإيمان عقيدة وتقوى ، ويقظة ووعي وسلوك .

وليس استهواء خلاباً يخدّر عقول العامة وضمائر الجماهير ، بألفاظ ضخمة فقدت دلالتها ومعناها وفاعليتها ، أو عبارات فخمة يلوكها مدعو عصرية ، من باعة الكلمة وتجار القلم .

والإيمان سعي وعمل ، وليس جذبة شطحات هائمة في تيه السراب ، تسقط الأمة في غيبوبة عن الوعي ، وتعطل إدراكها لسنن الكون والحياة ، وتريحها من مكابدة هموم يقظتها وتكاليف وجودها ومسئولية أمانتها. وتبعات مصيرها ..

وتسلط على إدراكها بمثل هذه المخدرات التي راجت فينا باسم التفسير العصري للقرآن :

(أنا وأنت وهو وهم ونحن ، كلنا مجرد صور تبرق وتختفي على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار ، ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء ، ثم تعود فتزول هي الأخرى)

(أفِقْ إلى نفسك فأنت غير موجود ! أنت ظل ، شأنك شأن الظل . موجود على الأرض ما دامت الشمس في كبد السماء ، فإذا غربت لم يَعُدْ لك وجود ، واختفت معك كل الظلال التي كانت تتطاول بأعناقها إلى جوارك)

(وكلمة التقوى هي النذير بأن كل شيء إلى فناء ، وبأن كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها أن تُفَكّ وتُعاد إلى علبتها) !

* * *

والله في العقيدة الإسلامية له المثل الأعلى :

هو الحق المطلق والخير المحض والكمال الأسمى .

وهو النور والهدى ، والعدل والسلام .

وهو العزة والجلال .

* فالإيمان به تعالى ، إيمان بما نعتقد أنه الحق والخير والعدل والعزة .

ويُلزمنا هذا الإيمان فريضة الجهاد في سبيل «المثل الأعلى» وتكاليف دفع الشر والقبح ، ومقاومة الفساد .

وليس الإيمان بمن له المثل الأعلى ، أن نلوك كلمات طنانة رنانة ، لم يسمع بها قط رسول الله الذي أبلغنا رسالته ، وتلا فينا كلماته تعالى « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »

فيقول قائل من مدعى العصرية والعلم ، إن الله (هو المعماري العظيم ، وسائق القطار الذي تفوق مهارته مهارة جميع السائقين)

ويخلب ألباب الناس بمثل كلامه في : (فورم المعمار القرآني ، وذبذبة حروفه الموسيقية ، والسيمفونية السباعية لسورة الفاتحة ...)

وقد قالت الوثنية القرشية إن هذا القرآن شعر ،

وأنكر القرآن أن يكون شعرا ..

ولا تجوز عليه سبحانه صفات أو خبرات كسبية ، كالموسيقى والمعمار والهندسة ، ومهارة سائق القطار .

وماذا يجدي على إيمان شباب الأمة ، إذا ذكروا بسورة الفاتحة سيمفونيات بيتهوفن وباخ وموزار ، أو ذكروا بكلمات القرآن « صوت الموسيقى » أو وضعوا الخالق جل جلاله ، في المقام الأعلى فوق مهندسي السد العالي وسد اليرموك ، وقواعد اقتحام الفضاء ، وسائقي قطار « اكسبريس الشرق » ومركبات ملاحة الفضاء ؟

« ومن الناس من يشتري لهوَ الحديث ليُضِلَّ عن سبيل اللهِ بغيرِ علمٍ ويتخذَها هزُوا ، أولئك لهم عذابٌ مهين » —

(لقمان : ٦)

* * *

• والله في العقيدة الإسلامية هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد : لا نعبد إلا إياه ، ولا نشرك به شيئاً .

والإيمان بوحدانية الله المعبود ، يحرر الإنسان من مهانة العبودية لغير الخالق ، ويرفع عنه إصرَها والأغلال .

سواء أكانت هذه العبودية لبشر مثلنا ، ولو كان نبياً رسولا :

« ما كان لِبشرٍ أن يُؤتيَه اللهُ الكتابَ والحكمَ والنبوةَ ثم يقولَ للناسِ كونوا عباداً لي من دون الله »

(آل عمران : ٨٩ ، الأعراف : ١٩٤)

أم كانت العبودية لشيء من الأشياء ،

لئلا نفرط في عزة التوحيد تحت ضغط أي قهر ومحنة ابتلاء ، ولا يُعشي وَهَجُ الوثَن الأصفر بصائرنا وأبصارنا فنذل ونخزى ، ونشتري بشرف الإنسان عرَضاً من الأعراض المادية الزائلة .

ولكيلا نَورط في عبادة الهوى والشهوات :

« أفرأيتَ مَن اتخذ إلهَه هواه وأضله الله على عِلمٍ وختَم على سمعِه وقلبِه وجَعَلَ على بصرِه غشاوةً فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تَذكَّرون »

(الجاثية : ٢٣)

• • •

• والله في العقيدة الإسلامية هو العدل الحق ، وهو الأول والآخر ، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو على كل شيء رقيب حسيب ، وله آخرتنا والأولى .

« عالم الغيب لا يَعزُبُ عنه مثقالُ ذرّةٍ في السمواتِ

ولا في الأرضِ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين »

(سبأ : ٣)

والايمان به ايمان بمعاقبة اعمالنا وجزاء كسبنا ومسعانا وحتمية الثواب والعقاب ...

وتختل الحياة إذا ارتاب الإنسان في أن من يزرع يحصد ما زرع : ثمراً طيباً أو شوكاً وحنظلاً . وأن كل عملٍ من خير أو شر ، يلقى جزاءه حقاً وعدلا ، « فمن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيراً يره ٭ ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يره » .

(الزلزلة ٧ : ٨)

« فأمّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيَمكثُ في الأرض ، كذلك يَضرِبُ اللهُ الأمثال » (الرعد : ١٧)

وكل كلمة يقولها الإنسان ، طيبة أو خبيثة ، يحتمل مسئوليتها وجزاءها حقاً وعدلا :

« ألم تر كيف ضرب اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء ٭ تُؤتي أُكلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهم يتذكرون ٭ ومثل كلمة خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثّتْ من فوق الأرضِ ما لها من قرارٍ »

(ابراهيم ٢٤ : ٢٦)

« إليه يَصعدُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الطيبُ يَرفعُه »

(فاطر : ١٠)

وفي (الموطأ) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« بينما رجل يمشي بطريقٍ إذ وجد غُصْنَ شوكٍ على الطريق فأخره ، فشكر الله له وغفر له »

وقال عليه الصلاة والسلام :

« إن الرجلَ ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجلَ ليتكلم بالكلمة من سخطِ الله ما كان يَظنُّ أن تبلغ ما بلغتْ ، يكتب الله له بها سخطَه إلى يوم يلقاه » .

* وليس من الإيمان أن نكفر بحتمية الجزاء العدل ، وسنة الابتلاء والحساب ، لنصدق ما يقول مفسر عصري من بدع التأويل لحساب الآخرة ثواباً وعقابا :

(جنة الآخرة هي درجة ومقام ، فيها كل ما نعرف على الأرض ولكن مع تفاوتٍ هائل في الرتبة ، مثل التفاوت بين الزمن والأبد ومثل التفاوت بين طعم قطعة سكر وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ)

والنذير للضالين بعذاب الآخرة : (مثـــل تخويفك لابنك حينمـــا تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له : إذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فإن الفيران سوف تأكل أسنانك .. وبالطبع لن تأكل الفئران أسنانه)

* وما بمثل هذه السذاجة الغَرَّة والطفولة الصبيانية ، تتلقى الإنسانية ختام رسالات الدين ، وقد بلغت رشدها وحملت أمانة الإنسان !

ولا هكذا يبطل الجزاء فليس النذير بعقاب الآخرة سوى تخويف لطفولتنا ، ولن يكون عقاب ، كما لن تأكل الفئران بالطبع أسنان طفلك !

* * *

والسنن الإلهية في العقيدة الإسلامية ، ثابتة مطردة :

« فلن تجدَ لسُنةِ اللهِ تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً » .

(فاطر : ٤٣)

وهذه السنن الثابتة ، هي التي يسير عليها النظام الكوني وتمضي عليها حياة الإنسان والجماعات والأمم ، وتتقرر بها مصايرُهم .

ولا تتعلق مشيئة الله العليا بنقض سننه الثابتة وتعطيلها ،

ستظل الأجرام تسبح في أفلاكها العليا على نسقها المطرد وحسابها الدقيق ، بعد أن اقتحمنا إليها مجاهل الفضاء .

وستظل الشمس والقمر على نظامهما الأبدي ، بعد أن سخرنا الشمس ووصلنا إلى القمر ،

وسيظل قانون السببية على فاعليته وحتميته ، لا تعطله المشيئة العليا ، وهو من سننها الثابتة :

من لم يتق النار وجراثيم المرض ، يتعرض حتماً للحريق والداء ،

ومن لم يتجنب العقرب ، سرَى سُمُّها في كيانه ...

ومن ألقى بنفسه في مهلكة ، فتعرض للقنبلة الذرية أو قنابل النابالم ، هلك أو تشوَّه !

ومن ألقى بنفسه في اليم ، دون أن يعرف السباحة ، أو يجد مَن ينقذه من الغرق ، طوته الأمواج وابتلعه اليم ..

ومن انتظر زرعاً بغير بذر وإنبات ، تعلق بالسراب .

ومن التمس عبيراً من وردة حجب عنها الضوء والهواء ومنعها الري والغذاء وعرَّضها للحشرات والآفات ، فلن يجد سوى هشيم تذروه الرياح بدداً !

والتوكل على الله إيمان بثبات هذه السنن الكونية وحتمية اطرادها ، يمنحنا اليقين بنجاح العمل الصالح ، ويؤنسنا بأن الله معنا في كل مسعى نذكره فيه .

وذكرُ الله ليس تعبئة للأمة في حلقات الذكر ، ولكنه خضوع الإنسان لرقابة خالقه ذي الجلال والإكرام ، وإيمانه بأن الله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ينصر من ينصر الحق، ويخذل من يسعى لباطل ، ويمحق الزيف، والبهتان .

* وليس من ذكر الله تعطيلُ الأسباب ، والتواكلُ الذي يجحد السنن الكونية ، ويزين للناس أن يناموا بمثل هذا المخدر الذي نفثه فيهم مفسر عصري للقرآن :

(فإذا توكلنا على الله تعالى ، فلن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض ، لأننا أدركنا وحدة الفاعل ، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله . الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع . وهو الذي يسلط الأسباب . هو الذي خلق العقرب والسم والوردة ، وهو الذي ينشر العبير وينشر السم في العروق . هو مناط الهلاك ومناط النجاة ، لا راد لقضائه ولا معقب لأمره . هو الفاعل ونحن أدواته ...)

وبمقتضى هذا الإيمان العصري ، تكون تعبئتنا لحرب العدو تشاغلاً عقيماً ، وتكون خطط الدفاع المدني للوقاية من خطر القنابل ، عبثاً وضلالا ، كما تكون مقاومتنا لدودة القطن وللآفات والسموم والأوبئة ، زيغاً باطلا ...

يكفي لسلامتنا وصحة إيماننا ، أن نتوكل على الله ونكف عن التعبئة لها ، ونغلق المصانع الحربية وكليات الطب والصيدلة ومعامل الأدوية

ومراكز البحوث العلمية ، لا نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض والسم ! الله وحده هو الفاعل ، فلماذا لا ندع له سبحانه أن يبطل فعل القنابل وأسلحة الحرب ، ويدفع عنا غوائل الأوبئة دون وقاية منا أو تطعيم ! !

* ويسوغ في منطق عصرنا الذي فجر الذرة ، وقاس الأبعاد والمسافات بما دون الملليمتر ، وأطلق رواد الفضاء والقمر ، وهو يحسب ألف حساب لكل ذرة هواء ونبضة قلب وحركة جهاز ، ويقدر الوقت فيما لا يتعدى جزءاً من ثانية ....

يسوغ في منطق عصرنا هذا ، ما ساغ في منطق الجاهليين من الوثنيين المشركين وعبدة المال من يهود :

« سيقولُ الذين أشركوا لو شاء اللهُ ما أشركْنا ولا آباؤنا
ولا حرَّمنا من شيء » كذلك كذَّب الذين من قبلِهم حتى
ذاقوا بأسَنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن
تتّبعون إلا الظنَّ وإن أنتم إلا تَخرُصُون »

(الأنعام : ١٤٨)

« وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من
علم ، إن هم إلا يخرصون »

(الزخرف : ٢٠)

« وإذا قيل لهم أنْفقوا مِمّا رزقكم اللهُ قال الذين كفروا
أنطعِمُ من لو يشاءُ اللهُ أطعَمَه إن أنتم إلا في ضلالٍ
مبين »

(يس : ٤٧)

واللهُ تعالى يقول في ختام رسالاته :

« وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملكم ورسولهُ والمؤمنون » .

« وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سَعَى * وأن سعيَه سوف يُرَى * ثم يُجزَاه الجزءَ الأوْفى »

(النجم ٤٠ : ٤٢)

« يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كَبُرَ مقتاً عند اللهِ أنْ تقولوا ما لا تَفعلون * إن اللهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون في سبيلهِ صَفّاً كأنهم بُنْيانٌ مرصوص »

(الصف ٢ : ٤)

ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، خطب في الناس فقال فيما قال :

« لا يَقعُدَنَّ أحدُكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقني ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .. »

* * *

والإيمان في العقيدة الإسلامية ، التزام أوامره تعالى واجتناب لنواهيه . والله يأمر بالتوحيد والعدل والإحسان والتقوى والعفة والأمانة والصدق، والتواصي بالحق والخير ، والتناهي عن الشر والمنكر ، والصبر على تكاليف الجهاد . . .

وينهى سبحانه عن الشرك والبغي والفحشاء ، وأن نسكت على باطل ومنكر ، وأن نفتري على الله كذباً ونحرف كلماته تعالى عن مواضعها ..

وقد وضع الحدود والقصاص لتقويم الخاطئين وهداية المنحرفين الضالين ، وإصلاح المجتمع ووقاية الأمة من شر المفسدين والمجرمين وتأميناً للحياة :

« ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب »

« أنه مَن قتل نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً ، ومَن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ... »

(المائدة : ٣٢)

وهو وحده ، جل جلاله ، الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

* وليس من الإيمان أن نعطل حدود الله ونأخذ بفتوى عصريٍّ يقول ، مثلا :

(فمن يسرق ويقول —؟ — صادقاً : تُبْتُ ولن أسرق بعد الآن ، يُعطي لولي الأمر مجالاً لرفع الحدّ عنه . ومن سرق للجوع أو للحاجة، لا يصح شرعاً إقامة الحد عليه)

ونمنح صكَّ ثواب وحسنة ، بمقتضى تأويله لآية الغض من البصر :

(لو أخذنا الآية بظاهر حروفها ... فسوف نجد أن الحياة الطبيعية في زمننا ، زمن الميني جيب والديكولتيه والجابرنيز والصدر العريان والشعر المرسل والباروكات الذهب ، أمر صعب . والسير في شارع عماد الدين أو فؤاد وسليمان باشا ، سيراً مطابقاً لحروف الآية ، هو الأمر العسير ..

(ونحن قد نرى وجهاً فنهتف بالقلب إعجاباً : الله ! ونقصد الخالق الذي صوَّر ، وليس المخلوق . فلا تكون هذه النظرة حلالاً فقط ، وإنما تكتب لنا حسنة) !!

فمن قال إن تبرج الجاهلية الأولى مباح ؟ إن السير المطابق للشريعة ، ليس فيه أن تخرج المرأة على الناس في زينتها بالميني جيب والديكولتيه والصدر العريان والباروكه الذهب !

والأمر بغض البصر سدّاً لذرائع الفتنة ، لم يكن للمؤمنين دون المؤمنات : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » فهل تكتب للواحدة منهن حسنة بنظرتها إلى رجل من شارع سليمان أو سليم أو سلوم ، وإذا هتفت بالقلب إعجاباً : الله : الذي صوّر وأبدع ؟

نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم يقول :

« لكل دينٍ خلُق ، وخلق الإسلام الحياء »

(الموطأ)

« إن الحياء من الإيمان »

(الموطأ والصحيحان)

وجاءه رجل فقال :

— يا رسول الله ، أستأذن على أمي ؟

فقال : نعم .

قال الرجل : إني معها في البيت ؟

وقال عليه الصلاة والسلام : استأذن عليها .

قال الرجل : إني خادمها .

فقال له المصطفى : « استأذن عليها ، أتُحب أن تراها عريانة ؟ »

(الموطأ)

ويأتي في آخر الزمان ، من يفتي بأن عري النساء في شوارع القاهرة ، وسيلة إلى الله وقربى ، فالنظرة إليهن والهتاف بالقلب إعجاباً : الله ! ليست حلالاً فقط ، ولكن تكتب بها حسنة . . .

تأويلاً لآية الأمر بغض البصر !

فليلتمس الشباب « حسنة » من معارض الفتنة وأسواق العري والتبذل !

ولتلتمسها النساء كذلك فهن والرجال في الأمر بغض البصر ، سواء ! !

* * *

والإيمان في العقيدة الإسلامية . جهاد في سبيل الله .

ومجمل القول فيه ، ما جاء في (صحيح البخاري) :

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

– الرجل يقاتِلُ للمغنم ، والرجلُ يقاتل للذِّكْرِ ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

« من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا : فهو في سبيل الله »

وكلمة الله هي كلمة الحق والخير والعدل والعزة والصدق والأمانة

« ويَمْحُ الله الباطلَ ويُحِقُّ الحق بكلماته » .

« فلا تضربوا للهِ الأمثالَ »

« للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ ولله المثلُ الأعلى ، وهو العزيز الحكيم »

صدق الله العظيم

مَنطِقُ العِلْم
بَيْنَ الأصَالة وَالادِّعَاء

« إنَّما يَخْشَى اللهَ من عبادِهِ العُلَماءُ »

(سورة فاطر)

ليس الذي يعوزنا من العلم لمعركة البقاء والمصير ، ومواجهة تحديات عصرٍ ما بعد القمر ، أن نجلب كل ما في الدنيــا من أجهزة وكتب علمية ، وأن نستورد بوسيلة أو بأخرى أحدثَ الأسلحة وعصريات التكنولوجيا ، وندخل في السباق العلمي مع الاتحاد السوفييتي وأمريكا وألمانيا واليابان والصين ...

في وطننا الكبير أقطار يتيح لها ثراؤها أن تستورد ذلك كله ، وتقتني أعجب ما يخطر على البال من أجهزة العصر ،

وتظل مع ذلك وراء عصر العلم ....

إنما يعوزنا حقاً ، عقليةٌ يضبطها منطق علمي ،

بعد أن تعرضت الجماهير في المرحلة التي ساقت إلى الهزيمة ، لذرائع تشويه عقلي فادح ، باسم الإيمان والعلم ..

حتى أوشكت هذه الذرائع ، بما دُقّ لها من طبول الإعلان وأجراس الدعاية ، أن تحجب عن الناس نور الإيمان الحق ، وأن تنحي عن مراكز التوجيه العقلي للجماهير ، ذوي الأصالة العلماء .

* * *

في دور الحضانة والمدرسة الابتدائية ، تتساهل وزارات التعليم ، تحت ضغط الضرورة ، فتعهد بصغار التلاميذ إلى « معلم فصل » يعلمهم فكّ الخط ، ويلقنهم معارف بسيطة أولية ، من الحساب ومبادىء العلوم والدين ..

وأرانا نستقبل مرحلة الإيمان والعلم ، بمن يتصورون أن الأمة لا تزال في طور الحضانة والطفولة ، فينتحل إمامةَ الدين والعلم ، كاتبٌ صحفي يؤول لها كتاب دينها بغير علم ، ويقدم إليها كل علوم العصر ، مع أسرار الجن والملائكة ، والعلم اليقيني بغيب الآخرة !

* * *

لم يكن خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، من علماء البيولوجيا والجيولوجيا والتكنولوجيا . . . .

مبلغ علمه ، نبياً رسولاً ، هو ما تلقاه من كلمات ربه ، وأبلغه للناس في كتاب الإسلام المحكم الموثق ، وفيما تعلم الصحابة في مدرسة النبوة ، من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ،

والقرآن كتاب هدى ودين ، وعقيدة وشريعة ، وقِيَم عليا تظل الإنسانية مستشرفة لها دائبة السعي إليها ،

وهو تكاليف مجاهدة وجهاد ، في سبيل المثل الأعلى .

وهو نور القلوب والبصائر ، والأبصار والأسماع .

والقلب في كل آياته بالقرآن ، ليس العضو العضلي الذي يدرسه طلاب التشريح ويعرفه علماء الحيوان ، لا في الإنسان فحسب ، ولكن في الطيور والماشية والأنعام . . .

القلب في القرآن ، موضع الفقه والوعي والعقل والهدى ، وموطن العقيدة والإيمان والتقوى ، أو الكفر والعمى والإثم والنفاق والقسوة .

يطرد ذلك في كل مواضع استعمال القرآن لكلمة قلب ، مفرداً ومثنى وجمعاً ، ليس فيها على الإطلاق قلب بدلالته العضوية العضلية الذي لا ينفرد به الإنسان ، بل منه ما يباع في حوانيت اللحوم ، ويؤكل بعد طهيه ، في المطاعم والمنازل . . .

والسمع والبصر والنطق ، في كتاب الإسلام : لا تأتي كذلك بدلالتها الفسيولوجية ، ولكنها أجهزة إنسانية ، للإدراك والتمييز والوعي والبيان ..

ومرض القلوب في القرآن ليس مما يكشفه أطباء القلب وأجهزة الضغط ، والأشعة والرسم ، ولا هو مما يُلتمس علاجه بدواءٍ يخرج من معامل باير وساندوز ولانت ... أو يستشار فيه جراح مثل الدكتور برنارد .

وإنما المرض فيه فساد وعمى ونفاق وخبث وخيانة :

« ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمْها فإنه آثم قلبُه »

(البقرة : ٢٨٣)

« يا نساء النبي إن اتقيتّن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض .. »

(الأحزاب : ٣٢)

« فإنها لا تَعمَى الأبصارُ ولكنْ تعمَى القلوبُ التي في الصدوزر »

(الحج : ٤٦)

« وإذا ذُكِرَ اللهُ وحدَه اشمأزتْ قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة » .

(الزمر : ٤٥)

« فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفِتنةَ .. »

(آل عمران : ٧)

« إذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبِهم مَرَضٌ غرَّ هؤلاءِ دينهُم»

(الأنفال : ٤٩)

« وليقول الذين في قلوبهم مَرَضٌ والكافرون ماذا أراد اللهُ بهذا مثلاً . »

(المدثر : ٣١)

• • •

وكذلك الصمم والبكم والعمى ، لا يُراد بها في القرآن تعطلُ وظيفتها العضوية الحسية ، وإنما المراد تعطل وظيفتها الإنسانية ، بالغفلة والجهل والسكوت على باطل ومنكر :

« أفأنت تُسمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ إذا ولّوا مُدبرين »

(الروم : ٥٢)

« إن شرَّ الدوابِّ عند اللهِ الصمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون »

(الأنفال : ٢٢)

« لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعيُنٌ لا يُبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ ، أولئك هم الغافلون »

(الأعراف : ١٧٩)

ولم تأت الأمعاء في القرآن ، إلا في النذير لأصحاب النار : « وسُقُوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم »

كما لم تأت الحناجر إلا بدلالة بيانية مجازية ، تصرفها عن أصل استعمالها العضوي ، فلا علاقة لها بتشريح ولا طب أو جراحة :

آية الأحزاب ١٠ في شدة الحرب :

« وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ »

وآية غافر ١٨ في النذير بيوم الآزفة :

« إذ القلوبُ لدى الحناجرِ كاظمين » .

أما المخ والرئة والغُدد والشرايين والأعصاب ، والأضلاع والمفاصل ... فليست من معجم ألفاظ القرآن ، على الإطلاق ..

• وينفي القرآن الموتَ عمن قُتِلوا في سبيل الله :

« ولا تَقولوا لمن يُقتَلُ في سبيل الله أموات بل أحياءٌ ولكنْ لا تشعرون »

(البقرة : ١٥٤)

« ولا تحسبن الذين قُتِلوا في سبيل اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون »

(آل عمران : ١٦٩)

• ويثبت الموت لمن تعطل وعيُه وضل عن الهدى :

« إنك لا تسمع الموتى ولا تُسمع الصمّ الدعاء »

(النمل : ٨٠)

« إن اللهَ يُسمع مَن يشاء وما أنت بمُسمعٍ من في القبور »

(فاطر : ٢٢)

* * *

• والأعداد في القرآن لا تأتي بدلالتها الرقمية الحسابية ، إلا في آيات التشريع والأحكام والأخبارِ ،

وتأتي في سائر الآيات بدلالة بيانية مجازية ، لاصلة لها بأعداد الحساب :

« استغفرْ لهم أوْ لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »

(التوبة ٨٠)

« ليلةُ القدر خير من ألف شهر »

ولو أنّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ ما نَفِدَتْ كلمات ربي »

(لقمان : ٢٧)

• وآيات الفَلَك في القرآن تلفت الناس إلى شواهد القدرة الإلهية وعجيب سننها الثابتة في النظام الكوني المحكم ،

وليست من مثل ما يشتغل علماء المراصد وقواعد إطلاق ساليوت ولوناخود وأبولو وسيوز ومارينر...

• وتوشك الآيات القرآنية في خلق الإنسان ، أن تكون موجهة إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى ، على إمكان النشأة الأخرى ، على ما مضى بيانه في مبحث « جدل في البعث » بالكتاب الأول.

* * *

فماذا عسانا أن نصنع ، لنرسخ الإيمان في ضمائر الشباب وعقولهم ، ممن يدرسون علوم العصر ويدخلون المشرحة والمعمل والمصنع ، ويتابعون جهود علماء الفضاء ورحلات القمر !

هل نأتيهم بقرآن غير هذا الذي نزل على نبي أمي في بيئة بدوية ؟

أو نضحك على عقولهم ببدع من التأويلات تقدم لهم من القرآن كل علوم الدنيا وعصريات التكنولوجيا !؟

أبناء الجيل ليسوا من البلاهة والغفلة والسذاجة ، بحيث يجوز عليهم أن يقول لهم قائل إننا عرفنا الطائرات النفاثة ، إذ عذنا برب الفلق من « شر النفاثات في العقد » واهتدينا إلى أسرار الذرة بـ « مثقال ذرة » !

بل هم الذين يضحكون لسذاجة ما يقرأون في تأويل عصري لآية القمر في سورة يس ، (أن العرجون القديم تشبيه حرفي للقمر الذي لا خضرة فيه ولا ماء) وأن الخبر عن سد ذي القرنين في آية الكهف .

(لم يكن إلا سدّ الجهل ، عزل الصين عن العالم ، حتى إذا جاء اليوم الموعود وأخذوا بأسباب الصناعة وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينية وتكاثروا إلى آلاف الملايين هدموا السد) فتقوم الساعة ! !

وأن هبوط آدم من الحنة ،في القرآن ، يقدم لهم ما فات دارون في أصل الأنواع :

(هبط آدم إلى هاوية التيه المادي ، إلى طين المستنقعات . هذه المرة إلى مجرد جرثومة في طين الأرض إلى نقطة بدء أولى ، من الصفر وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادي في انبثاق متدرج عبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا صعداً إلى الاسفنج والرخويات والقشريات ... الخ ، وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه في رحلته الدامية وأخذ بيده خارجاً من رحم الأرض ومن طين المستنقعات حتى وقف منتصباً على قدميه محاكياً آدم الأول)

* كلا ، لم يبلغ شباب الجيل من البلاهة والغفلة أن يأخذوا هذه التأويلات وأمثالها معها ، مأخذ الجد ،

ولكن الخطر على إيمانهم ، أن تعرضهم لفتنة مجافاة الفهم النبوي للقرآن ، للعقلية العلمية ومنطق العصرية ، فتأخذهم الفتنة بمنطق الجاهلية :

« وإذا تُتْلَى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدّلْه ، قل ما يكون لي أن أبدّلَه من تلقاءِ نفسي إنْ أتّبِعُ إلا ما يوحَى إليّ إني أخاف إنْ عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيم * قل لو شاء اللهُ ما تلوتُه عليكم ولا أدْراكم به فقد لبثتُ فيكم عُمراً من

قبلِه ، أفلا تعقلون * فمن أظلمُ ممَّن افترى على اللهِ كذِباً أو كذَّب بآياته ، إنه لا يفلح المجرمون »

(يونس ١٥ : ١٧)

* وخطرٌ على عقلية الجماهير ، أن نخايلها بهذه الألفاظ المضخمة من بدع التأويلات العصرية العلمية ، تمسخ عقليتهم ويختل بها منطقهم ، وتخدر وعيهم بغرور السبق إلى علوم العصر ، فلا علينا أن تتجول « لونا خود » على سطح القمر ، ولدينا آية الانشقاق :

« فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتَّسق * لتركبُنَّ طبقاً عن طبق ، فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون »

ولا علينا أن يرتاد « جاجارين » غيابة الفضاء ، بعد أربعة عشر قرناً من نزول آيات الرحمن :

« يا معشرَ الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطارِ السموات والأرض فانفُذوا لا تَنفذون إلا بسُلطان * فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان * يُرسَلُ عليكما شواظ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران * فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان » .

* * *

* الإسلام — كما بينت في مبحث : إنسان العصر بين الدين والعلم — يتجه إلى العقل في ترسيخ الإيمان ، وكتابه المحكم يفصِّل الآيات لقوم يعقلون ويعلمون ويؤمنون ، ويضرب الأمثال لعلنا نتفكر ونفقه ونؤمن . وقد حرر القرآن الإنسان من الأغلال التي تعوق تحقيقه

لآية إنسانيته المكرمة أو تقيد مسعاه الطامح إلى ما سخّر له الله : كل ما في السموات وما في الأرض .

بغير العقل ، لا يتميز حق من باطل ، ولا هدى من ضلال .
وبغير العلم ، لا سبيل إلى تسخير شيء مما في الأرض أو في السماء .

* ولا حرج من الدين ، في أن يقرأ أبناؤنا نظرية التطور وأصل الأنواع في بحوث « دارون » والنظرية المادية في إعلان « ماركس » ومؤلفاته وشروح تلاميذه العلماء وإضافاتهم ،

لكن المحظور أن يقرأوا النظرية مشوهة ممسوخة ، مدسوسة على القرآن باسم العلم والعصرية والإيمان .

وأبناؤنا المسلمون ، يدرسون علوم العصر وأسرار الرياضيات والتكنولوجيا في موسكو ولندن وباريس وادنبره وفيينا وبرلين وبراج ، ويطلبون العلم ولو كان في الصين !

ويحظر عليهم دينهم ، أن يطلبوا أي علم ممن يدعي أنه أحاط بكل شيء علماً ، ووسع علمه السموات والأرض ، والدنيا والآخرة » ..

أذكر أن فقيهاً من علمائنا ، سأله سائل في آية « وما فرطنا في الكتاب من شيء » فهل يعلم من القرآن : كم رغيفاً يخبز من إردب قمح ؟

قال : نعم ، .
واتصل تلفونياً بمخابز « الرمالي » فأعطاه مديرُها الجواب .
قال السائل : لكن هذا ليس من القرآن ؟
ورد شيخنا : بلى ، في القرآن : « واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وقد فعلت ..

ومن أهل الذكر نلتمس العلم ،

ونطلب الدين فنرجع فيه إلى الله وإلى الرسول ، في الكتاب والسنة ، وفقه الأئمة وبحوث العلماء ..

لا إلى من يجسر على أن يدعي في أمة متدينة :

(أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض في أية صورة ، ويحمل الوحي إلى أي نبي ، في أي عصر ، وبأية لغة)

* وليس هذا من الدين الذي أعلن ختام الوحي بما أنزل على خاتم النبيين في عصر نزول القرآن ..

فهل هو من العلم ؟

صدقت كلمة ربي :

« إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »

« لا أدرى ، وَاللّهُ أعْلَمُ »

« وما لهم به من عِلْمٍ إن يتبعون إلا
الظنّ وإن الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً .
فأعْرِض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم
يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا . ذلك مَبْلغُهم
من العِلْمِ ، إن ربَّك هو أعلَمُ بمن
ضلّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بمن اهتدى »

(سورة النجم)

من أعز ما يقدمه الإسلام إلى المنهج العلمي ، مبدأ « لا أدري » فرضاً على العالم ، أي عالم ، أن يقولها إذا سئل عما لا يدري ..

ويقوم هذا المبدأ أساساً ، على أصل من صريح النص في الكتاب والسنة .

• في كتاب الإسلام ، يتقرر المبدأ أصلاً من أصول العقيدة ، في استحالة أن يحيط إنسان بكل شيء علماً .

ذلك لله وحده ، لا لأي مخلوق ولو كان ملَكاً من الملائكة ، أو نبياً ممن اصطفاهم الله فبعثهم برسالاته .

سبحانه ، هو وحده الذي « أحاط بكل شيء علماً » « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

الملائكة الأبرار فيما حكى القرآن عنهم :

« قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »

(البقرة : ٨٢)

ونهى الله تعالى رسوله نوحاً ، أن يسأله ما لا يعلم ، ووعظه أن يكون من الجاهلين :

« فلا تسألنِ ما ليس لك به علمٌ إني أعظُكَ أن تكون من الجاهلين » (هود : ٤٦)

• وكل الرسل عليهم السلام ، لم يكن لهم علم إلا ما تلقوه من وحي الله تعالى ، وأمِروا أن يبلغوه في رسالاتهم . فما كان لأحد منهم أن يجيب بغير : لا أدري ، فيما لم ينزل فيه وحي .

والذي استأثر الله بعلمه ، لم يَعلمه أحد من رسله الأنبياء ، فضلاً عن أن يعلمه غيرهم من سائر البشر .

خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، سأله أحبار يهود عما لا يدري من أمر الروح ، فتلا من كلمات ربه :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

وسألوه عما لا يعلم من خبر أهل الكهف وذي القرنين ، فتوقف لم يقل شيئاً حتى نزلت آيات الكهف فيما سألوا عنه ، واقتصر الرسول عليها ، رداً على أحبار يهود .

وسأله قومه عن الساعة ، ولا علم له بها ، فكان الرد من الوحي :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها • فيم أنت من ذكراها • إلى ربك منتهاها • إنما أنت منذر من يخشاها »

(النازعات)

« يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها قل إنما علمُها عنه الله »

(الأعراف : ١٨٧)

وتساءل طواغيت المشركين ، كما تساءل الكفار من قبلهم ، متى

وعد الله الذي يُنذرهم به الرسل ؟ فرد المصطفى بما تلقى من كلمات ربه :

« قل ما كنت بِدْعاً من الرسل وما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم، إن أتبع إلا ما يوحي إليّ وما أنا إلا نذير مبين »

(الأحقاف : ٩)

« قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضَرّاً إلا ما شاء اللهُ ، ولو كنت أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسني السوءُ ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »

(الأعراف : ١٨٨)

« قل لا أقول لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلم الغيبَ ولا أقول لكم إني مَلَك ، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ... »

(هود : ٣١)

« فإنْ تولّوا فقُلْ آذنتُكم على سواء ، وإنْ أدرِي أقريب أم بعيد ما توعَدون »

(الأنبياء : ١٠٩)

والإنسان بشر ، عرضة لأن يسهو ويغفل ، وينسى ما تعلمه . ولا عجب فهو ابن آدم الذي علّمه الله فنسِيَ ما تعلم ، وحذّره من كيدِ إبليس فاغترّ من حيث لا يدري ، وتورط في خطيئة المعصية .

وقد عوتب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في ابن أم مكتوم « الأعمى » :

« وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنتَ عنه تلَهّى *
وما يُدريك لعله يَزّكّى * أو يَذّكّر فتنفعه الذكرى »
(عبس)

* * *

والعلماء يتفاوتون ، لا باختلاف علومهم فحسب ، ولكن يتفاوتون كذلك في العلم الذي تخصصوا فيه ، بمقدار ما يُتاح لكل منهم من رسوخ في العلم الذي تفرغوا له ، ونفاذ في دقيق مسائله ، وفقه لأسراره ، تصدق عليهم جميعا آية يوسف :

« نرفعُ درجاتٍ مَن نشاءُ ، وفوق كل ذي علم عليم »

من ثم أُمِر المؤمنون بأن يردوا الأمر في الدين إلى الله والرسول : الكتاب والسنّة .

والمسئول فيما لا يدري ، لا يخرج عن إحدى ثلاث :

أن يكذب ، وذلك من أكبر الكبائر . وفي الحديث المتواتر :

« مَن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعدَه من النار »

أو يرجم بالظن ، وذلك محظور في الإسلام :

« وما لهم به من علم إنْ يتبعون إلا الظنّ وإن الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً »

(النجم)

فلم يبق إلا الثالثة : أن يقول : لا أدري .

وقد قالها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام لأصحابه ، فيما لم يكن

يدري من أمور دنياهم .

وقالها في كل ما سئل عنه من أمور دينهم ، قبل أن ينزل بها قرآن.

وأوصى بها العلماءَ من أمته ، حين يتصدون للتعليم ، قال عليه الصلاة والسلام :

« أيها الناس ، مَن علم منكم شيئاً فليقل لما لا يعلم : الله أعلم . فإن مِن عِلْمِ المرءِ أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم »

ورَوى « عبدالله بن جعفر » حديثاً مرسلاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال : «أجرؤكم على الفتيا ، أجرؤكم على النار »

* * *

وتلقاها عنه تلاميذ مدرسة النبوة ، من الصحابة والتابعين . فقال ابنُ عباس :

« إذا أخطأ العالِمُ «لا أدري» أصيبَتْ مَقَاتِلُه »

وسُئِل « أبو بكر الصديق » في كلمة من غريب القرآن ، ففكر رضي الله عنه ملياً ثم قال :

« أيُّ سماءٍ تُظِلُّني وأي أرضٍ تُقِلُّني إذا قلت في كتابِ الله بغيرِ علم ؟ »

وسئل « سعيد بن جبير » عن مسألة في الدين ، فقال : لا أعلم

ثم عقب : « ويلٌ للذي يقول لما لا يعلم : إني أعلم » .

وأعضلتْ مسألة من الفقه على « الشعبي » فقال له أصحابه : إنا قد استحيينا لك لما رأينا منك .

وردّ عليهم :

« إن الملائكة لم تستحي أن تقول : سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا »

* * *

ورسخ المبدأ من العصر الإسلامي الأول ، فكان العالِمُ يُقاس بمقدار ما يقول : « لا أدري » فيما لا يدري . والجاهل مَن لا يقولها . فيَضِلُّ ويُضل الناس . وأجرؤهم على الفتيا ، أقلهم عِلماً .

في الخبر عن « عبدالله بن عمر بن الخطاب » أن رجلا سأله في أمرٍ من الدين فقال رضي الله عنه : لا أدري .

وانصرف السائل وهو يقول للناس من حوله : نعم ما قال عبدالله بن عمر ، سئل عما لا يعلم ، فقال : لا علم لي به .

ويروون عن « القاسم بن محمد » أن رجلاً حضر مجلسَه العلمي فسأله عن شيء فقال رضي الله عنه : لا أحسِنُه .

فجعل الرجل يقول : إني رفعت إليك السؤال لا أعرف غيرك .

وردّ عليه القاسم :

« لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي ، واللهِ ما أحْسِنُه »

قال شيخ من قريش وكان حاضراً بالمجلس : « يا ابن أخي ، الزمْها فواللهِ ما رأيتك في مجلس أنبلَ منك اليومَ »

فقال القاسم رضي الله عنه :

« والله لأنْ يُقطَع لساني ، أحبُّ إليَّ من أن أتكلم بما لا أعلم »

ذكرها الإمام مالك وقال :

« لأن يعيش الرجل جاهلاً ، خير من أن يقول على الله ما لا يعلم . هذا أبو بكر الصديق ، وقد خصَّه الله بما خصَّه مِن الفضل ، يقول : لا أدري »

* * *

وتوارث الأئمة من فقهائنا العلماء ، هذا المبدأ المنهجي الإسلامي ، فكان مما أوصى به الفقيه « ابنُ هرمز الأصم » تلميذه مالكَ بن أنس :

« ينبغي أن يورِّث العالِمُ جلساءه قولَ : لا أدري . فإن العالمَ إذا أخطأ « لا أدري » أصيبتْ مقاتلُه »

ووعاها الإمام مالك ، فقال :

« العلم آيةٌ محكمة ، أو سنة مُبيَّنة ثابتة ، أو : لا أدري »

ونقرأ معه في تعريف الفقه ، أنه سُئِلَ يوماً في أربعين مسألة ، أجاب في ستٍّ وثلاثين منها بـ : لا أدري .

وجاءه رجل من المغاربة ، موفداً من بعض قومه ليستفتي إمام دار الهجرة في مسألة فقهية . وذكر للإمام أنه أُرسِل فيها من مسيرة ستة أشهر ، من المغرب . فقال «مالك» رضي الله عنه :

ــ أخبِر الذي أرسلك أني لا علم لي بها .

سأله الرجل : ومن يعلمها ؟

وأجاب الإمام : مَنْ علّمه اللهُ .

* * *

وليس الخطر في حرمة « لا أدري » أن العالم إذا أخطأها أصيبت مقاتلُه فحسب :

الخطر كل الخطر أن تُهدر حرمةَ العلم فينا ، فيتصدى له مَن يُضلُّ الناس بغير علم .

وهو بذلك يحمل وزر إضلالهم ، مع وزر ضلاله ، بمقتضى تبعة القدوة التي يشتد الإسلام في تقريرها ويوجب الالتزام بمسئوليتها :

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم »

(الأنعام : ١٤٤)

« ولا تتبعوا أهواءَ قومٍ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلّوا عن سواء السبيل »

(المائدة : ٧٧)

« ليتحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضِلّونهم بغيرِ علم »

(النحل : ٢٥)

دون أن يُعفى من العقاب ، مَن غرر بهم الذين أضلوهم بغير

علم ، لأن المضَلّلين لن يلبثوا أن يُضِلوا غيرَهم بغير علم ، وتنتقل اللعنة من سلف إلى خلف ، حتى يوم الحساب :

« هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالو النار ؛ قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار * قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزِدْه عذابا ضِعفاً من النار »

« كلما دخلت أمة لَعَنَتْ أختَها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلونا فآتِهم عذاباً ضِعْفاً من النار قال لِكُلٍّ ضِعف ولكن لا تعلمون »

(الأعراف : ٣٨)

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما مِنْ داعٍ يدعو إلى هُدىً إلا كان له مثلُ أجرِ من اتّبعه ، لا يَنتَقِص ذلك من أجورهم شيئاً . وما من داعٍ يدعو إلى ضلالةٍ إلا كان له مثلُ أوزارِهم ، لا يَنقُص ذلك من أوزارهم شيئاً . »

وعن عُقبةَ بن مسلم ، قال :

« صحِبتُ ابنَ عمر أربعة وثلاثين شهراً ، فكان كثيراً ما يُسأل فيقول : لا أدري . ثم يلتفت إليّ فيقول : أتدري ما يريد هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جِسراً إلى جهنم ».

منذ تلا الرسول عليه الصلاة والسلام في أمته كلمة ربه :

« والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

وقال عليه الصلاة والسلام :

« أجرؤكم على الفُتيا ، أجرؤكم على النار »

دخل مبدأ التحرج من الفتيا وفي الفتيا ، في البيئة الإسلامية .

واشتهرت فينا كلمة الصحابي « ابن مسعود » :

« إن الذي يفتّي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون »

واشتهر عن الصحابة والتابعين ، تلاميذ مدرسة النبوة ، التحرج من الفتيا ، لا يقدمها أحدهم إلا مضطراً .

عن البرّاء التابعي ، قال :

« أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . يُسأل أحدهم عن المسألة ، ما منهم من رجلٍ إلا ودّ أن أخاه كفاه »

وقال الفقيه « سفيان الثوري » شيخ مالك :

« أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا ، حتى لا يجدوا بداً من أن يُفتوا . وإذا أُعفوا منها كان أحبَّ إليهم » .

وكان «النخعي» فقيه الكوفة ، يُسأل فتظهر عليه الكراهة ويقول لسائله : أما وجدتَ من تسأله غيري ؟

وقال رضي الله عنه : « قد تكلمتُ ، ولو وجدتُ بداً ما تكلمت . وإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لَزمانُ سوء »

ومن مأثور قول الإمام مالك :

« ما كان شيء أشد عليّ ، من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام . لأن هذا هو القطع في حكم الله . ولقد أدركنا أهم العلم ببلدنا وإن أحدَهم إذا سئل عن المسألة : أحلال هي أم حرام ؟ كأنما الموت أشرف عليه »

وذكروا في مناقبه ، أنه « كان إذا سئل عن المسألة ، كأنه واقف بين الجنة والنار »

كما ذكروا مثل ذلك عن ابن سيرين : « إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام ، تغير لونه وتبدل ، حتى كأنه ليس بالذي كان ! »

وقال الإمام أحمد بن حنبل :

« من عرّض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمرٍ عظيم ، إلا أنه قد تلجىء إليه ضرورة »

* * *

من هنا دخل الالتزام بكلمة «والله أعلم» يثبتها علماء الإسلام بعد الذي يقدمون أو يدونون من علم .

وتلقانا « والله أعلم » في تراث السلف الصالح ، فيتندر بها من لا يدرون أنها من تحرج العلماء .

ولعلها التي تحمي الأمة ، من جرأة من يجسر على ادعاء العلم بكل شيء ، وما خشي نبينا عليه الصلاة والسلام على الدين إلا من آفته :

« آفة الدين ثلاث : فقيه فاجر ، وإمام جائر ، ومجتهد جاهل »

* * *

ومضت عصور حققت الأمة وجودها الحضاري بقادة من علمائها . لا يقول أحدهم بما لا يدري ، ولا يتكلم إلا في مجال تخصصه العلمي .

وفي غشية ليل التخلف . لم تفقد الأمة منارها الهادي في الظلام ، ولا عدمت في كل خطوة عن مسراها ، من يصون عقليتها وإيمانها ، بكلمة : لا أدري ، والله أعلم .

كلمة لم تخطئها مناهج علمائها في أحلك عصور الظلام ، نوراً في ضمائرهم وأمانة يؤدونها إلى الأجيال من خلفهم .

في مدينة مراكش بالمغرب الأقصى ، قرأت فيما قرأت من وثائق تاريخها العلمي في عصر الاستعمار ، إجازتين علميتين ، كتبهما اثنان من علماء الجيل الماضي الفقهاء ، لمحمد بن ابرهيم المراكشي :

الأولى : من الفقيه القاضي « السيد عباس التعارجي »مؤرخة في فاتح ربيع الأنور عام اربعة واربعين وثلاثمائة وألف . وفيها ما نصه :

« قد أجزتك أيها الأخ فيما تجوز لي روايته ....

بشرط التحري ، وأن تقول فيما لا تدري : لا أدري . فمن أخطأها أصيبت مقاتلة ...

« وأوصيه وإياي بالتقوى فانها العمل الأقوى . ونطلب من الله تعالى أن يسلك بالجميع مسالك النجاة »

والإجازة الأخرى — في صحيح البخاري ومختصر الشيخ خليل في الفقه — من الشيخ « أبي شعيب الدوكالي » ومن نصها :

« فأجزته فيما تجوز عني روايته من معقول ومنقول وفروع وأصول . بشرط أن يقول : لا أدري . فيما لا يدري . وأن يواظب على الاستفادة والإفادة »

وتاريخها الثالث عشر من شوال سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف .

ومحمد بن ابراهيم المراكشي ، المجاز ، هو شاعر الحمراء الذي أخذ مكانه في التعبئة الوجدانية لقومه، في إبان الاستعمار . وهو الذي أرّق الاحتلال بقصيدته في رفض الأمة للظهير البربري الذي أراد الاستعمار أن يفرضه على قومنا بالمغرب سنة ١٩٣١ ، بديلاً للشريعة الإسلامية .

* * *

فأين نحن اليوم من : لا أدري ، والله أعلم .

وفينا من يخوض في كل علوم الدين والدنيا وغيب الآخرة !

كأن ليس في الأمة علماء راسخون فيما تخصصوا فيه .

فاللهمّ لا يصل بنا الحال إلى الدرك الذي حذرنا منه نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام :

« إن الله لا يقبض العلمَ انتزاعاً ينتزعه من الناس . ولكن يقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناسُ رؤوساً جهالاً أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »

* * *

وأعود على بدء فأقول :

إن إنسان العصر يُمتحن بكل الذرائع التي تبررها وطأة الجبابرة وطاغوت الماده ، وبغي السيطرة والاحتكار .

وهو في أمتي ، يمتحن من أجل ذلك كله بذرائع الغربة في وطنه ، وبعملية تشويه ماسخ لعقله وضميره ، لكي يُفتن عن عقيدته التي تنير بصيرته ، وتفرض عليه رفض العبودية لغير خالقه ، وتحمله تكاليف وجوده الكريم الحر .

في هذا التشويه الماسخ ، تتسلط عليه مخدرات من الكهنوت العصري ، تُسقط وعيه باسم الإيمان والعلم ، فتريه الجن والملائكة في عصر ساليوت

وماريتر ، وتعطيه كلمة السر التي تفتح له خزائن علوم الدنيا والدين ، وغيب الآخرة ....

وفي غيبوبة اللاوعي ، يُحجب عنه عطاء الدين ؛ ليلقى سمعه إلى ما يقال عن أفيون الشعوب ونقد الفكر الديني ، وتأخذه أصوات الساخرين برسالات الدين ، لا يرون فيها غير « صناديق دُمى ، كانت تصلح لأن تلهو بها البشرية في سذاجتها البدائية » وقد آن لنا أن ننصرف عن « قبور الأنبياء وأكفان الموتى » التي يفسد ريحها مناخ العصر !

والقرآن هو الهدف ...

وزمجرة العدو في حمانا ، توقظ النيام .

وتحديات العصر تؤرق الإنسان ..

فأي بديل عن هذا القرآن يقدمه مثقفونا العصريون إلى الأمة : لواءً جامعاً لشملها ، ودليل مسراها في غواشي المحنة ، ونور بصيرتها وضميرها فيما تواجه من تكاليف الجهاد وتحديات العصر ؟

اسألوا التاريخ ، والسلام على من اتبع الهدى ....

فهرست

مقدمة ٥

القسم الاول
الانسان والعصر

الاهداء ١١
هذا الانسان ١٣

١ . قصة الانسان من المبتدا إلى المنتهى ٢٧
خليفة في الأرض ٢٩
اسجدوا لآدم ٣٩
خلق الانسان ، علمه البيان ٥٣
أمانة الانسان ٦١
حرية الانسان ٧٧
الحرية والرق ٨١
حرية العقيدة ٩٣
حرية العقل والرأي ١١١
حرية الارادة ١٢٣

٢ . مصير الانسان : الوجود والعدم ١٤٩
جدل في البعث ١٥٧
العرض والجوهر ١٦٧
عالم الروح ١٧٧

٣ . إنسان العصر بين الدين والعلم ٢٠٥
الانسان والقمر ٢٢١

القسم الثاني
أمتي والعصر

القرآن ومنطق الحتمية التاريخية ٢٥٩
القرآن والتفسير العصري ٢٧٧
مدخل تاريخي ٢٨٥
القرآن الكريم بين الفهم والتفسير ٣١٣
لكيلا تضل المقاييس ٣٣١
دفاعاً عن منطق عصرنا وكرامة عقولنا ٣٤٥
بيت العنكبوت ٣٥٣
بين الدراسة القرآنية والتفسير العصري ٣٦٥
١ — الغيب ٣٧١
٢ — حرية الانسان ٣٨٥
٣ — الوجود والعدم ٣٩١
اللهم فاشهد ٣٩٤
الايمان والعلم ٤٠١
الايمان بين الوعي والتخدير ٤٠٣
منطق العلم بين الاصالة والادعاء ٤١٩
« لا أدري ، والله أعلم » ٤٣١

رقم الإيداع	١٩٩٩/٢٨٨٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5746-X

١/٩٨/١١٧ طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

أسهمت الكاتبة الكبيرة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) بنصيب وافر من الدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية ، وكان لها نشاط ملموس فى الدراسات القرآنية ، فقدمت لها دار المعارف « التفسير البيانى للقرآن الكريم » ، و« دراسة عن الإنسان فى القرآن » ، و« التفسير العصرى للقرآن » وفى السيرة النبوية قدمت لها « مع المصطفى فى عصر المبعث » ، وغير ذلك من الكتب والدراسات القيمة التى أثْرَتْ بها حياتنا الفكرية فى مصر والعالم العربى والإسلامى .

لقد اتخذت الدكتوزة عائشة عبد الرحمن من قلمها سلاحاً ناضلت به فى سبيل عقيدتها ، وجاهدت فى سبيل إعلاء كلمة الحق ضد كل من سَوَّلَتْ له نفسه أن يسىء إلى هذا الدين الحنيف أو ينال منه .

دار المعارف

٠٣١٦٩٣/٠١